بيانات الإيداع في دائرة المكتبة الوطنية بالمملكة الأردنية الهاشمية

قوروجو، علي علوي.

في صحبة الشيخين: شيخ الإسلام مصطفى صبري، ووكيله الإمام محمد زاهد الكوثري.

عمان: دار الفتح للدراسات والنشر، ٢٠٢٣.

٣٧٦ص، قياس القطع: ١٧×٢٤سم.

الواصفات: رجال الدين / العلماء / الدولة العثمانية / التراجم / التاريخ الإسلامي.

التصنيف العشري (ديوي): ٩٢٢,١

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٦٢٥٨/ ١١/ ٢٠٢٣).

الرقم المعياري الدولي (ISBN): ٩٧٨-٩٩٥٧-٢٣-٦٨٠-٩

9 789957 236809

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٤٦هـ = ٢٠٢٥م

دار الفتح للدراسات والنشر

أسسها سنة ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م

د. إياد أحمد الغوج

رقم الهاتف : ٦٤ ٦٣٥ ٦٥١ (٠٠٩٦٢)

رقم الجوال : ٤٦٧ ٩٢٥ ٧٧٧ (٠٠٩٦٢)

ص.ب : ١٩١٦٣ عمان ١١١٩٦ الأردن

البريد الإلكتروني : info@daralfath.com

الموقع الإلكتروني : www.daralfath.com

في صحبة الشيخين

شيخ الإسلام مصطفى صبري
وَوكيله الإمام محمد زاهد الكوثري

شهادات على عصر التغريب

تُنشر بالعربية لأول مرة

مِن مذكرات تلميذهما الأديب والمفكر الإسلامي

علي علوي قوروجو
(١٩٢٢-٢٠٠٢م)

ترجمة وتعليق
الدكتور إياد أسامة عمار

تقديم
الشيخ الدكتور إحسان شن أوجاق
مؤسس مركز الدراسات العلمية والفكرية
مدينة صامسون - تركيا

دار الفتح
للدراسات والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الدّكتور إحسان شن أوجاق

❁ شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي ووكيله في الدرس محمد زاهد الكوثري:

إنّ الدولة الإسلامية العثمانية لم تنهزم أمام الحضارة الغربية علميًا، بل سياسيًا؛ لذلك شُنِق علماء الدين وأُجْلُوا، وأُغلِقت المدارس الدينية، وبسبب انقلاب الحرف أُبعِدت الأمّة عن دينها، وأُغلِقت أبواب الثقافة والحضارة الإسلامية، وشيخُ الإسلام مصطفى صبري أفندي ومحمد زاهد الكوثري شاهَدا أيضًا أنّ الدولة الإسلامية العثمانية لم تنهزم علميًا من قِبَل الغرب، حيث إنهما دمّرا مبنى الفكر الاستشراقي، ونشرا بقلمهما العقيدة الصحيحة.

في الحقيقة كان في إسطنبول عشرات من العلماء على مستوى هذَين العالِمَين في آخر الدولة العثمانية، لكنّ هذَين العالِمَين فقط ذهبا إلى مصر، واستمرّا في التأليف، وانتشر علمهما فيها إلى العالَم، بينما تمّ تحييدُ الآخَرِين شَنْقًا أو حَبْسًا في منازلهم؛ لذلك لم يشتهر الآخَرون في العالم الإسلامي كما اشتهر هذان العالِمان الجليلان.

من بين العديد من النقاط المشترَكة التي تجمع بين مصطفى صبري أفندي ومحمد زاهد الكوثري، أنّ الكوثري كان وكيلًا في الدرس لشيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي، ومصطفى صبري أفندي كان يُقدِّر العظمة العلميّة

لأسلافه من شيوخ الإسلام، ويُعلن أنه كان متفوِّقًا عليهم من جانبٍ أن يكون له وكيلٌ في الدَّرس مثل محمد زاهد الكوثري.

وكانت وفاة هذَين العالِمَين اللذَين تعلَّما في إسطنبول وعلَّما الناس فيها وجاهَدا فيها كلاهما في القاهرة، وهما يحمِلان الحنينَ إلى الوطن والشوقَ إليه.

❁ شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي:

إنَّ شيخ الإسلامِ مصطفى صبري كان ينتمي إلى المتأخِّرين من حيث الزمان، وإلى العصور القديمة من حيث الفكر والعلم، وأما من حيث تحدِّيه الظالمين، فقد كان مناضلًا في عصره مثل العزِّ بن عبد السلام في عصره، وقد جاهد وكافح في كل مجالات الحياة، ونطق بالحق، وبكلِّ شيءٍ أعلنه.

وفي سنِّ الثانية والعشرين من عُمره انضمَّ إلى صفوف المدرِّسين في مدرسة الفاتح، وقد نال التقدير من العلماء، مثل محمد ذهني أفندي، وأثار وَلاؤُه التام للإسلام غضب الاتحاديِّين، ثم أغضب الكَماليِّين، ووقف في إسطنبول ضدَّ الاتحاديِّين، وفي مصر ضدَّ المجدِّدين، مثل محمد عبده، والمراغي، وفريد وجدي، وكتب رُدودًا عليهم، وظل ملتزمًا بفكره وداعيًا إليه.

❁ الرُّدود المكتوبة في السجن:

ذات ليلة عندما داهم الاتحاديُّون منزله المجاوِر لمكتبة مُلّا مراد في تشارشامبا، تمكَّن من الفرار بالانتقال إلى المنزل المجاور، وسافر إلى مصر بطريق البحر.

وبعد إقامته هناك لفترة من الزمان ذهب إلى البوسنة أولًا، ثم إلى باريس، وبقي في رومانيا لفترة من الوقت، جمع فيها المسلمين المتفرِّقين بقدر الإمكان، وعلَّمَهم علم الأصول والبلاغة، فاعتُقل، وكتب ردًّا في السجن على

موسى جار الله الذي كانت له آراء مخالفة لأهل السنة والجماعة، بناءً على طلب المفتي العامِّ التَّتَريِّ الأصل صالح أفندي، فكتب كتابًا على ورق رقيق، وأخفاه في إبريق، وكان يحمل الإبريق معه دائمًا حتى لا يضيع، ثمَّ تمَّ ترحيله إلى إسطنبول فحُوكِم مدّةً ونُفِي إلى بيليجك.

❁ الطلب إلى وحيد الدين لتعيين قائد الكفاح:

في بداية كفاح الاستقلال الوطني سعى لإقناع السلطان وحيد الدين بعدم تعيين القائد الاتحاديِّ للكفاح، ومع ذلك لم يستفِد السلطانُ من تحذيره، ولم يستمع إلى نصيحته، يا للأسف! حدث كل شيء كما قال في هذا الصدد: «إذا ضاعت الدولة سيُمكِن استبدالها بأخرى، ولكن إذا اهتزَّ الإسلام فلن يأتي مكانه من جديد»، ولكن لم يستطع أن يُقنع أحدًا بذلك.

❁ الجوع وبيع الكتب:

أُدرِج الشيخ مصطفى صبري أفندي مع ابنه إبراهيم من قِبَل الكماليِّين في قائمةٍ تضم مئة وخمسين شخصًا من المشهورين المطلوب إجلاؤهم بتهمة خيانة الوطن، فاضطرَّ إلى مغادرة إسطنبول للمرة الثانية عندما كانوا على وشك اعتقاله، وتجوَّل في ديار الروم، وطلب الالتجاء من رؤساء الدول الإسلامية فلم يُقبَل، ثم سافر إلى الإسكندرية بالسفينة، وتعرَّض في مصر لهجوم بالبَيض الفاسد والطماطم من قِبَل جماعة من السفهاء الذين تجمَّعوا تحت إشراف القنصل الذي تحرَّك بأوامر من أنقرة، وتعرَّض للمضايقات في شوارع القاهرة، وسخِر منه الصحفيون المستغرِبون، وقُطِع راتبه التدريسي سنة (١٩٢٤)، ثم جُرِّد من جنسيَّته بعد ذلك.

خلال هذه الفترة عانَى من الجوع والفقر، واضطرَّ إلى بيع كُتبه لأجل لقمة العيش، ومع ذلك لم يتنازَل عن واجبه في إعلان الحقيقة.

❁ جريدة «الغد»:

عندما كان على وشــك أن يُطرَد من مصر ذهب إلى مكة، ثمَّ أدرك فيها خطّة الشريف حســين لفرض الوصاية على الأمّة من خلال نفسه، رفض كل عروض المســاعدة، وغادر من مكة، وعاد إلى رومانيا مرة أخرى، ثم انتقل إلى غومولجنه، حيث أقام لمدّة خمس سنوات، فأصدر صحيفة «الغد».

شــعر الكماليُّون بالانزعاج من صحيفــة «الغد» من تحليلهــا وانتقادها للأحداث في تركيا، وحاولوا إغلاقها، فدُعِي رئيس حكومة اليونان فِنِيزيلُوس لزيارة تركيا، ورغم أنه لم يمضِ ســوى بضع سنوات على حرب الاستقلال فإنّ يقظةَ مصطفى صبري أفندي أدَّت إلى علاقات ودِّية للمسؤولين المعنيِّين مع العدوِّ القديم، وتمَّ الاتِّفاق بشــأنه، وبموجب الاتفاق ســيتمُّ إيقاف نشر الصحيفة، وسيُطرَد مصطفى صبري من اليونان.

وقد دخلت بنــود الاتفاقيــة حَيِّزَ التنفيــذِ دون تأخير، فتمَّ إيقاف نشــر الصحيفة، وأبلغ والــي غومولجنه خطابًا إلى مصطفى صبــري أفندي يأمره بمغادرة المدينــة، ونُفِي إلى باتراس، وعندما علم القساوســة المســيحيون بوصوله خرجوا إلى الطرقات واستقبَلوه.

❁ قلقه بشأن الدفن في مقبرة مسيحية:

بقي في باتراس لعدّة أشــهر شــعر فيها بالحزن والآلام، وكان قَلِقًا من أن يُدفَن في مقبرة مســيحية إذا مات هناك، من أجل ذلــك كتب مصطفى صبري أفندي عدّة رســائل إلى أصدقائه المســلمين الذين يعرفهم في مجلس الشعب العثماني؛ ليطلبوا من رؤســاء الدول الإســلامية إصدار تأشــيرة له، ومع ذلك أُغلِقت جميع الأبواب أمامه بضغط من حكومة أنقرة، حتى حصل في عام ١٩٣٢ على تأشيرة من قنصلية مصر، فذهب إلى هذا البلد، ولم يعُد مرّة أخرى.

۞ إعادة الاعتبار:

وقد رُدّ الاعتبار لأشخاص يكونون مثالًا لكل أنواع الخيانة، أما مصطفى صبري أفندي فمـا زال على قائمة المتَّهَمين على الرغم من كل شـيء، وقد كتبناه على رأس قائمة العلماء المعتبَرين، ولولا قوله: «أستحي أن يقال عنّي: عالم بجانب السرخسي» لكتبنا اسمَهُ في مقدِّمة جماعة العلماء المفكِّرين التي تأتي مباشرةً بعد طبقة العلماء المجتهِدين والمجدِّدين.

في يوم ما ـ إن شاء الله ـ ستُنظَّم مَراسم إعادة الاعتبار الفَخْمة باسم شيخ الإسلام، وسيُجسَّد مجدُه مرّةً أخرى في شخصه، وسيُبَيِّن ما هي معاني العزة، وكيف تكون الوراثة والدفاع عن أفـكار المتفكِّرين، وكيف لا يمكن للجوع والفقر أن يجعل العالِمَ سائلًا من النّاس.

يا شيخ الإسلام العظيم! لقد قلت من قبل: «اسمعي يا مصر!»، الآن قل: «اسمعي يا أناضول، اسمع يا عالَم الإسـلام!»، الحمد لله، إنّ الأناضول بعد مُضِيّ سنواتٍ تستعدُّ للاستماع إليك، لديك العلم، ولك إلقاء الكلام، فتَفَضّل شيخَ الإسلام!

۞ وكيل شيخ الإسلام في الدرس الشيخ محمد زاهد الكوثري:

قد جاء العلـم إلى الأرض مع آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد انتشـر أحيانًـا من أماكنِ الأنبياء إلى الأماكن التي يوجد فيها طالِبُوه، وأحيانًا كان يُهاجِر بسبب الضغط الذي واجهَه، كما هو الحال في الرّسالة المحمدية، ومع الرّسالة أصبحت مكةُ مركزًا للعلم أولًا، ثمّ المدينة المنورة، ثمّ انتشر في السنوات التالية إلى بلاد أخرى، مثل الكوفة ومصر والشام، وظلّ ينتشرُ حتى وصل إلى أقصى البقاع، مثل مدن مرو وبخارى وسـمرقند، ولقد تسـبَّبَت هجمـاتُ المغول ثم قيام الدولة العثمانية في تغيير اتجاه العلم، وهجرته إلى إسطنبول عبر الأناضول،

وقد كانت لإسطنبول بعلمائها وجامعاتها ومكتباتها مكانة بارزة بين المدن التي كان العلم فيها أقوى حتى القرن الماضي.

ولقد أدّت الوقائع والحوادث المَريرةُ التي عاشتها إسطنبول في القرن الماضي إلى هجرة العلم من هنا مع العلماء، وفُقدانِ الثّروة العلمية التي نتجَت عن قرون من التعلُّم، ومن بين الكنوز التي خسرتها إسطنبول في هذا الإطار الإمام محمد زاهد الكوثري (١٨٧٩ ـ ١٩٥٢م)، الذي كان منصبه «وكالة الدَّرس» في المشيخة[١].

عندما رأى العلامة محمد زاهد الكوثري أنّ حياته وحُرية العلم والفكر مُهدَّدة في إسطنبول التي يهيمن عليها الاستبدادُ هاجَر إلى مصر التي كان يعتقد أن البيئة العلمية فيها أكثر حيويةً وحرية.

ومع ذلك فإن خصوم الفكر الإسلامي الصحيح لم يتوقفوا هنا، بل قاموا بجهود مختلفة لدى كبار الدولة المصرية، وطالَبوا بطرد الكوثري من مصر، لكنَّهم لم يُحصّلوا أيَّ نتيجة.

ووجد الكوثري في القاهرة ـ التي أصبحت المركز العلمي الوحيد في العالم الإسلامي بعد إسكات إسطنبول ـ فرصةً لمخاطبة العالم الإسلامي بأسْرِه، من خلال نشره للمخطوطات المحقَّقة، وتأليفه للمقالات والكتب، وبذلك ساهم الكوثري في تنشئة جيل جديد على عقيدة صحيحة، فأجاب عن الأسئلة المعقَّدة التي طرحها عليه العلماء والطلاب إجاباتٍ شافيةً بشكل مُرضٍ، أو أشار لهم إلى المصادر التي تُوفِّر لهم المعلوماتِ اللازمة.

---

(١) لما بنى السلطان بايزيد «مدرسة بايزيد» أوصى أن يُدرِّس فيها شيخ الإسلام، لكن لما كثُرت أعمالُه ولم يجد الفراغ للتدريس أُحدِثَ مقام «وكالة التدريس»، ونُصب بها واحدٌ من كبار العلماء كان يُدرِّس فيها بدلًا عن شيخ الإسلام، ومع هذا كان مسؤولًا عن تدبير الأمور في المدارس، ونصبِ الأساتذة فيها بالامتحانات.

بعد هجرته إلى مصر (١٩٢٢م) رفضَ الكوثري في مصنَّفاته وتحقيقاته في العديد من المجالات ـ من الحديث إلى علم الكلام، ومن الفقه إلى التاريخ، ومن العقيدة إلى التصوف ـ النهجَ الإلزاميَّ الذي يُجرَى تحت أسماء التجديد والإصلاح، وأكَّد على أن التجديد الذي يؤدِّي إلى ابتعاد الإسلام عن أصوله هو تحريفٌ للديـن، ودافَعَ عن ضرورة أن يكون التجديـد في إطار المبادئ الإسلامية دون المساس بأصالة الدين.

لقد كان الكوثري إمامًا في الفقه والحديث، وكان على دراية متقدمة بالعلوم الأخرى، ولا يُعَدُّ مـن المبالغة القول عنه ما قيل عن ابـن جرير الطبري: «كان كالقارئ الذي لا يعرف إلّا القرآن، وكالمحدِّث الـذي لا يعرف إلّا التحديث، وكالفقيه الـذي لا يعرف إلّا الفقـه، وكالنحـوي الذي لا يعـرف إلّا النحو، وكالحاسب الذي لا يعرف إلّا الحساب»[1].

بمعنى: أنّ الكوثري كان على درايةٍ واسعة بالعلوم المذكورة، حتى اعتقد مخاطِبوهُ أنّه قد خصَّص وقتَه كلَّه لعلم واحد فقط، فكان الناس يظنُّون عندما يروي الحديثَ أنّه محدِّثٌ فحسـب، وعندما يتكلَّم في الفقـه أنّه فقيهٌ فقط، وعندما يتحدَّث في النحو أنّه نحويٌّ لا غير، وعندما يتكلَّم في الحسـاب أنّه حسابي؛ لكونه مُتبحِّرًا في كلِّ هذه العلوم.

وقد ذكره أبو الوفاء الأفغاني بالأوصاف التي تُسـتخدم لوصف العلماء المحقِّقين، وفي نفس الوقت تشـير إلـى مجال تخصُّصِ الشـخصِ، مثل: العلامة، والمحقِّق، والمدقِّـق، والفقيه الكبير، والمحدِّث الشـهير، ومولانا الشيخ محمد زاهد الكوثري[2].

---

(١) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموي (٦: ٢٤٥٢).

(٢) مقدمة تحقيق أصول السرخسي (١: ٨).

وقد استخدَم الشـيخ أبو غدّة أيضًا في كتبه عباراتٍ مشابهة لها، بل أكثرَ من ذلك، مع فخرٍ كبير بكونه مُنتسِبًا إلى الكوثريِّ في العلم.

وكان يُلقِّبه محمد رجب البيُّومي عميد كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بـ«راوية العصر»، و«أمين التراث الإســلامي»[١]؛ نظرًا لاطِّلاعه الواسع على العلوم الإسلامية الأساسية، وتقديمه معلومات شافية مُرضِية عن الموضوعات التي كتب عنها، وقدرته على إحياء التراث الإسلامي، وتفوُّقه على أقرانه.

وقد نقل الشيخ محمد يوسف البنوري عن التابعي مسروق بن الأجدع، في الصفحة الأولى من المقدِّمة التي كتبهــا لمقالات الإمام الكوثري، التي جمعها رضوان محمد رضوان، وفي هذا النقل قال مسروقٌ تقييمًا لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إنّه كالإخاذ الذي لو نزل به أهلُ الأرض لأصدَرَهم[٢].

وذلك إشــارةً إلى عظمته العلمية، ثم يتابع البنــوريُّ ويقول: هذه كلمة قرأتُها رأيتُ صِدقَها على «محقِّق العصر الجِهبِذ الناقد البَحّاثة الخبير الشــيخ محمد زاهد الكوثري»[٣].

وقد سمعتُ الأستاذ محمد عَوّامة يصف الكوثريَّ بأنّه «الرجُل الذي خلَقه اللهُ للعِلم»، وقال نقلًا عن مفتي حلب محمد أســعد العَبَجي قولَه فيما يتعلق بالكَوثَريّ: «لم يَأتِ إلى الدُّنيا مِثلُه من العلماء منذ مئتي عام».

وذكرنا أن شــيخ الإســلام مصطفى صبري أفندي كان يفتخر على شيوخ الإسلام المعاصرين له بكونه له وكيلٌ في الدرس مثل محمد زاهد الكوثري،

---

(١) النهضة الإسلامية في سِيَر أعلامِها المعاصرين للعلامة الدكتور محمد رجب البيومي (٢: ٤٩٣).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢: ٣٤٣)، ومعنى قولِ مسروق أنّ ابن مسعودٍ رضي الله عنه كان كالمكان الذي يجتمع فيه الماء الذي يكفي لأن يرويَ جميعَ أهل الأرض.

(٣) مقدمة مقالات الكوثري ص٣.

ويقول: إنّ مدارس الفاتح لها الحقُّ في أن تَفخَر بأنّ في قائمة خرِّيجيها مؤلِّفَ كتابَيْ «تأنيب الخطيب» و«النكت الطريفة»، اللذَينِ يستحقّان كلّ الثناء، وإبقاءه مدرِّسًا في حضنها، في مقابل الأزهر، ويصِفُه أيضًا بأنه غوّاص لا مثيلَ له في محيط الحديث والفقه.

وقد ذكره العلامة محمد أبو زهرة أيضًا في مقالـة له بعنوان «الإمام الكوثري» إحدى عشـرة مرةً بلقب «الإمام»، حيث كان يشير إلى أنّه كان حافظًا للعلم، حجّةً على غيره، وحكيمًا في فهمه للدين[1].

إنّ اكتشاف شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي ومحمد زاهد الكوثري سيكون وسيلة إلى فَهم مدى اتِّسـاع الثروة العلمية التراثية في إسطنبول قبل قرن من الزمان، ومدى اتِّساع هجرة العقول التي نشأت في إسطنبول.

عندما تقرأ هذا الكتـاب المأخوذَ من ذكريات أسـتاذنا عَلِيّ عُلْوِي، الذي خدم شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي ووكيله الإمام محمد زاهد الكوثري في مصر وتلقّى منهم الدروس، سـتفهم عُمقَ العلم في مدارس إسطنبول، وستحزنُ على الكنز العلميّ العظيم الذي فقدناه بسقوط الدولة العثمانية.

❁ هذا الكتاب:

إن أخي الحبيب الدكتـور إياد الغوج، صاحب «دار الفتح للدراسـات والنشر» في عـمّان، كان قد زار معهدنا «مركز الدراسات العلمية والفكرية» (إفام) مرتين، وقد تحدّثت معه في زيارته الأولى عن مذكرات الأستاذ علي عُلْوي قورجو رحمه الله ومحتواهـا، فأبدى من الوهلة الأولـى أهميةَ نقل هذه

(١) أعلام قدماء ومعاصرون بقلم العلامة الكبير الشيخ محمد أبو زهرة ص٣١٧ ـ ٣٢٦.

المذكرات إلى اللغة العربية، ثم تطرَّقنا في الكلام لساعاتٍ إلى ما في هذه المذكرات مما يتعلق بهذَين الإمامَين الجليلَين.

وفي زيارته الثانية إلى معهدنا بعد بضعة أسابيع قدَّم إليَّ الدكتورُ الغوج ترجمةً ما تحدَّث فيه الأستاذ علي عُلْوي قورجو في ذكرياته عن الإمامَين الكوثري ومصطفى صبري، فقلتُ له: إنّ طلبة هذَين الإمامَين كلُّهم مَدينون لك بسبَب خدمتك العظيمة في صدَد إحياء تراثهما.

أسأل الله تعالى أن يظلَّ الدكتور الغوج في سعادة وسلامة، وأن يرحم الإمامَين الجليلَين، ويرفع قدرهما، وينفعَنا بعلمِهما وإخلاصِهما، ومَن يدرُس في مدارسِنا، وأن يجعلنا واسطةً لبلاغ إجازتهما وتراثهما العلميّ إلى يوم القيامة، وأن يحشُرَنا معهما تحت لواء سيدنا رسول الله ﷺ.

الدكتور إحسان شن أوجاق

مؤسِّس مركز الدراسات العلمية والفكرية (إفام)

تركيا، صامسون

١٣ ربيع الآخر ١٤٤٥هـ = ٢٨ تشرين الأول ٢٠٢٣م

مقدّمة

د. إياد أحمد الغوج

الحمد لله الحليم الكريم، والصلاةُ والسلامُ على صاحب الخُلُق العظيم، سيّدِنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فلا يخفى على كل دارسٍ لتاريخ القــرن الهجريّ الماضي وما دار على ساحته العلمية والفكرية؛ ما كان من أثرٍ واسعٍ وعميقٍ فيه للعَلَمَين الجليلَيْن، والعالِمَين الجبَلَين: شيخ الإسلام مصطفى صبري (ـ ١٣٧٣هـ) ووكيلِ دَرسِه العلّامة الجِهبذ الإمام محمد زاهد الكَوثَري (ـ ١٣٧١هـ)، رحمهما الله تعالى، اللذَين خَرَجا من عاصمــة الخلافة مهاجِرَينِ في ســبيل الله، نجاةً مِن بطش طُغاةِ بلادِهم آنذاك.

اســتقرّ المُقام بالرجلَين الكبيرَين في مصر، فكانـــت لهما الملاذَ الآمِن، والمنبرَ الحُـرَّ للكلمة، بصُحُفها الســيّارة، وبيئتها العلميـــة النابضة بالحياة، وفيها إذ ذاك كبــارُ الأدباء والعلماء والمفكّرين، فكتبَ الشــيخان الرســائلَ العلمية، والمؤلفات الماتعة، وتصدَّيا لكشف كثير من الشبهات والمكائد التي كانت تُحِدُق بالمســلمين آنذاك، فكانت لهما في ذلك يدٌ باسِــطةٌ وصَحِيفةٌ ناصعة، رضي الله عنهما وأرضاهما.

هذا وقد جمعَني لقاءٌ علميّ حافل، يومَ الأحد ٢٠٢٣/٧/٢٣، بصاحبِ الفضيلة، العالِم الداعيةِ الغَيور، الشيخ الدكتور إحسان شَن أُوجاق، حفظه الله تعالى، مؤسّس مركز الدراسات العلمية والفكرية (iFAM) بمدينة صامسُون التركية، فكان مِن جميل ما أكرمَني به الشيخ ـ أسعد الله أيامه ـ نسخةٌ من مُذكّرات الأستاذِ علي عُلوِي قُورُوجُو (باللغة التركية)، في خمسِ مجلدات، والمذكورُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تلامذةِ الشيخَين صبري والكوثري، وممّن طالَت صحبتُه لهما، وقد عَلِمتُ مِن فضيلة الدكتور إحسان أنّ مُذكّراتِه هذه احتوَت على مادّةٍ تاريخيةٍ فريدةٍ تتعلّق بسيرةِ الشيخَينِ الجليلَين، فعزَمتُ مِن لحظتِها على ترجمةِ تلك المادّةِ إلى العربية، لينتفعَ بها القُرّاءُ في بلادِ العرب، وبحثتُ عن مُترجِمٍ متمَكِّن، يجمعُ بين دقّةِ الفَهم للتركية ورِفعةِ البيانِ في العربية، واختبَرتُ لهذه الغايةِ عددًا من المترجِمين، حتى وقعَ اختياري على صديقي الدكتور إياد عمّار حفظه الله، نزِيل إسطنبول، فقام بالأمرِ على خيرِ وجه، وشفعَ عملَه بالتعريفِ في حواشي النصّ بمَن ذُكِرَ فيه منَ الأعلام غيرِ المشاهير، والأماكنِ والهيئات، بما أثرى النصّ وأنارَ جوانبَه، ولا سيّما للقارئ العربي. ثم صنع فهرسًا دقيقًا لما ورد في الكتاب من الأعلام والأماكن والهيئات، وقام فريقي العلمي بالعناية بالكتاب تصحيحًا ومراجعةً وإخراجًا فنيًا، فتكاملَ العَمَلُ مِن كل وجهٍ بحمد الله تعالى.

وها أنا ذا أقدّمُ هذه المذكّراتِ اليومَ لقُرّاء العربية، ليجِدُوا فيها مِن المواقفِ المؤثّرة والحقائقِ الغائبة والتأريخِ لحِقبةٍ مِن حياةِ أُمّتنا هاجَمَها فيها التغريب، وتَمالأت عليها فيها ضِباعُ البشر، آملًا أن يكونَ فيها مِن مَقاماتِ الاعتبارِ ما يكونُ حافِزًا للنهُوض، وإعادةِ بعثِ الأمّةِ لمدارج الريادةِ والقيادة.

ولا يفوتُني في الختام أن أجدّدَ الشكر لفضيلة الشيخ الدكتور إحسان شَن أُوجاق حفظه الله، فقد كان السببَ في خروج النسخة العربية مِن هذا القسم

مِن مُذكِّرات الأســتاذ علي عُلوي، وقد زادَ في الفضــل ـ أكرمَهُ الله ـ فكتبَ كلمةً ضافيةً ازدانَ بها جِيدُ الكتاب. وكذلك الشــكر موصول لأخي وسَمِيِّي الدكتور إياد عمّار لعملِه المتميّــز، ولجميع فريقي العلمي والفني بدار الفتح للدراسات والنشر بالأردن، وكلِّ مَن تفضّلَ بقراءةِ النصِّ المترجَم قبل نشرِه، وأفادَ بملاحظاته.

والحمدُ لله الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحات

وكتبه

د. إياد أحمد الغوج

يوم الثلاثاء ١٦ ربيع الآخر ١٤٤٥ هجرية

الموافق ٢٠٢٣/٧/٢٥

مُقَدِّمَة المُتَرجِم

الدكتور إياد أسامة عمّار

للذكريات عبَقُها الآسِـرُ الذي لا يَبلَى على تقادُم العهـد وتعاقُب الأيّام، حيث إنّها تُحلّق بالقارئ إلى عوالمَ أخرى غابت بين سِجاف الزمن، أو طواها النسيان، تأخذه ليعيش مع أُناسٍ مضَوا، فيسمع تأوُّهاتهم، ويُنصت لحسَراتهم، ويتجاذب معهم أطراف الحديث، ويخوض بينهم في سـجالاتهم، فيُفيد مما عايَشـوه من تجارب، ويأنَس بما وصلوا إليه من وصايـا ورُؤى، فالذكريات عُصارة الأيام وحصاد السـنين، وخلاصة أحداث عاينها أصحابها، وشهادات عِيانٍ نقلها الراحلون لنا، ولا غِنى لأحدنا عن قراءة رحلات الكبار، والاستفادة ممـا علّمتهم الحياة حتـى أنضجت تصوُّراتهـم، وأحكَمَت رُؤاهـم، فقراءة مذكّرات هؤلاء تُضيف تجارب متطاولةً وحيـواتٍ عريضةً إلى تجربة القارئ المتواضعة، وحياتِه القصيرة، فكيف إذا كان هـؤلاء أصحابَ مَلاحِم، طبعوا آثارهم على أديم الزمن، وخلّفوا وراءهم حياةً مِلءَ السمع والبصر؟!

وهذا ما يَلمَسـه القارئ عندما يَسِـيح في عوالم ذكريات الأسـتاذ الأديب والمفكر الإسلامي التركي علي علوي كورجو الذي نقل بعفوية وصِدق ما سمعه وخَبَرَه خلال سنوات لقائه بعَلَمَين من كبار أعلام الأمة الإسلامية، عاشوا في ظلّ مرحلة خطيرة، وعصر زاخِر بالتحولات؛ شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي،

والعلامة الجليل زاهد الكوثري، فأخذ الكاتب بأناملنا نتلمَّس معالم حياتهما، ونُطالِع صفحات من تاريخهما، فنألَم لآلامهما، ونفرح لفرحهما، ونتأثر بمواعظهما، ونعتبر بمصارحاتهما، ونتوقف طويلًا عند مراجعاتهما.

فشخصية شيخ الإسلام مصطفى صبري لم تكن شخصية عابرة مغمورة في النصف الأول من القرن العشرين، بل كان أحد المشاركين الفاعلين في الأحداث الكبرى التي ألَمَّت بعالمنا الإسلامي، فقد كان الرجل الثاني ـ بعد الصدر الأعظم ـ في الدولة العثمانية الآيِلة إلى السقوط، وتقلَّبَت به الحياة، فارتقى إلى أعظم مقام يمكن أن يرتقي إليه عالِم دين في عصره، وانخفضت به حتى عانَى الجوع والتشرُّد والبؤس والشقاء، ولكنه في كلِّ أحواله ـ حتى عندما بقي وحيدًا في ساحة المعركة ـ لم يتخلَّ عن فِكره وحُريته، ونضاله في وجه الباطل، ولم يفتُر عَزمُه وسعيه لنصرة الحق وإعلاء رايته، فلم يَفتأ يجاهد في ساحات السياسة والفكر، وتحت قبة مجلس المبعوثان (البرلمان)، وعلى صفحات الجرائد والكتب، في العالم التركي ودنيا العرب؛ ففي تركيا واجه فكر الاستبداد وتضييق الحريات، انتسب في مقتبل حياته إلى جمعية الاتحاد والترقِّي، ثم انقلب عليها، ووقف ضد مصطفى كمال، وأماط اللثام عن وجهه الحقيقي، ودفع ضريبة كل مواقفه سجنًا ونفيًا وملاحقة، ثم في مصر تَقدَّم صفوف المعارضين للحداثة التي نادى بها محمد عبده وطلابُه، وردَّ مقولاتِهم، وأبطل حُجَجَهم، ولم تنطلِ عليه بَهارِجُهم ومغالطاتهم، فترك لنا تراثًا علميًا فيّاضًا ما زلنا حتى اللحظة نستقي من مَعِينه، ونغرف في الرد على الحداثيِّين والتغريبيين ومُدَّعِي التجديد.

وأما شخصية الأستاذ العلامة زاهد الكوثري فشخصية أخرى مختلفة تمامًا، وإن التقت مع الشيخ مصطفى صبري في بعض جوانب حياته وتجليات

عظمته، إلا أن العلم والاشـتغال به، والدفاع عن أصول الدين، أخذ عليه كلَّ مأخذ، فوقف عليه عمرَه كله، حتى غاب فيه عن كل مجال آخر، ولذلك كان من كبار الشخصيات العلمية التي أثَّرت في حياتنا الفكرية والعلمية، وتركت بصماتها الواضحة في العالم العربي، بدفاعه عن أصول أهل السُنة ومناهجهم في علوم الفقه والكلام والحديث.

ولا زِلتُ أذكر تلك الأيام حين طرق أسماعَنا ـ إذ كنا طلبةً صغارًا ـ اسما هذَين العَلَمَين في مجالس العلم، حيث كان بعض علماء دمشق يذكرهما في مَهابة وإجلال زَرعَت في قلوبنا محبَّتهم واحترامَهم، ثم توالَت الأيام، وإذ بقَدَر الله تعالى بعد عَقْدَين من الزمن يسـوقني لأقيم في الحي نفسه الذي عاش فيه الأستاذ مصطفى صبري، وكُتِبَت بين أزِقَّتِه آثارُه، وتردَّدَت بين جدران مدارسِه ومساجدِه كلماتُه، حي «جهارشمبه» في منطقة الفاتح، فأترجم ذكرياتِه في الحيِّ نفسه الذي تنفَّس هواءَه واستظل بأفيائه، فله سبحانه الحمد والمنة أن أكرمني بخدمة هذَين العَلَمَين، وتقديم نفحة من ذكرياتهما إلى القارئ العربي لعله يعيش معهما لحظات من أمتع وأنفع ما يمكن أن يعيشه الإنسان.

وحرصًا علـى تقديم الكتاب على أكمل وجه ـ يسـاعد القارئ العربي على الإحاطة بكل جوانب الصـورة، والإلمام بخلفيات مُجريات الأحداث وتاريخ الشخصيات المذكورة بين طَيّات الكتاب ـ اجتهدت أن أضيء النص بالتعليق على الأسـماء والأماكن والمؤسسـات التركيـة، وأغنيتُ الكتاب بصور لكل من اسـتطعت العثور على صورة لهم من الأسـماء التي ذكرها الشيخان في أحاديثهما، وألحقتُ بالكتاب فهرسًا تفصيليًا للأعلام والأماكن والمؤسسـات التي امتلأت صفحات الكتاب بها حتى يسـهل على القارئ العودة إليها في مكانها.

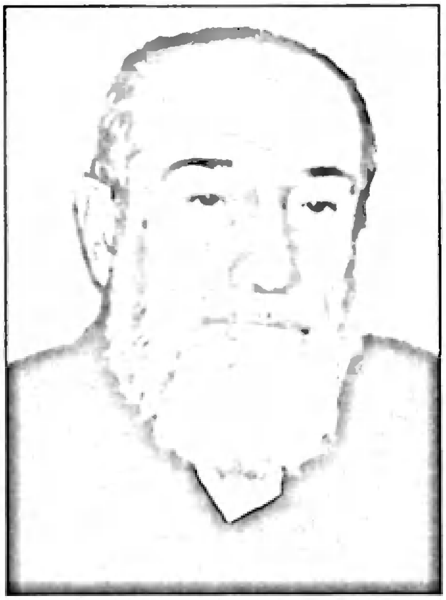
وأخُصُّ بشكري وامتناني أخي وصديقي الأثير الباحث الواعد، الأستاذ «دوغوقان براءة ييلدز خان» على ما قدَّمه من خدمات جليلة، ما كان للكتاب أن يخرج على هذه الشاكلة دونها، فقد قرأ معي الكتاب كلمة كلمة، وترجم عن التركية، وجَلى معاني بعض المواضع في الكتاب، ولم يدَّخِر في سبيل ترجمة الكتاب جُهدًا، أو يبخل بمساعدة، فجزاه الله خيرًا أن كان لي نعم العون على إخراج الكتاب وتقديمه للقارئ العربي، فالكتاب في الحقيقة ثمرة جهد عربي تركي لخدمة رجلَين عظيمَين عرفهما واستفاد منهما العالَم التركيُّ والعربيُّ عقودًا وعقودًا.

وفي الختام لا بدَّ لي أن أوَفِّي دَينًا طوَّقني به الدكتور إياد الغوج، مؤسس دار الفتح، فأُقدِّم له أعظم آيات شكري وعرفاني على أن شرَّفني بخدمة هذَين العَلَمَين الجليلَين، وتقديم مذكراتهما للقُرّاء العرب، وعلى ما بذل في سبيل ذلك من كل أنواع الدعم والمشورة والمتابعة الحثيثة، فله جزيل الشكر على غَيرَته، وسعيه المحمود في خدمة أعلام أهل السُّنة وآثارهم الجليلة، بارك الله فيه، وزاده فضلًا، وأجرى على يدَيه مزيدًا من الخير والنفع والإفادة.

الدكتور إياد أسامة عمار

إستانبول، الفاتح

راوي المذكرات .. الأديب والشاعر التركي علي عُلوي كورجو (١٩٢٢ - ٢٠٠٢)[١]



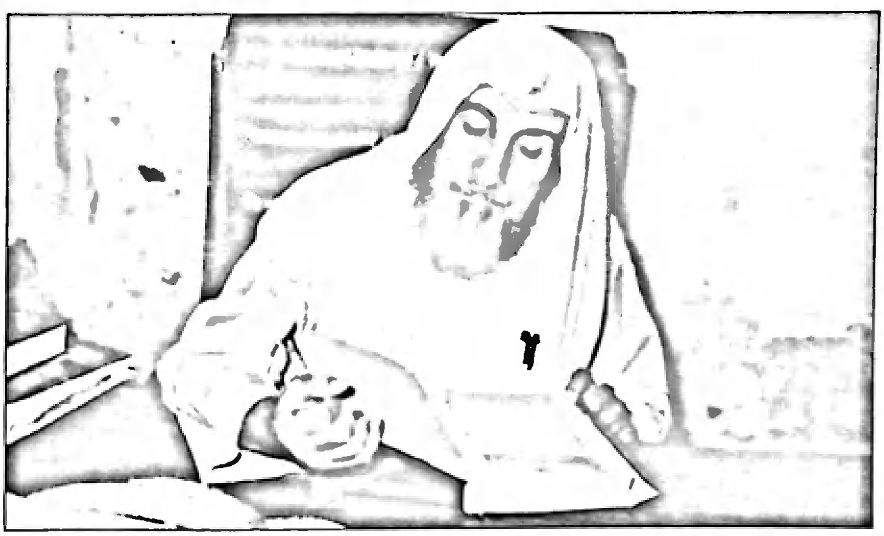
▲ علي علوي كورجو في آخر سنوات حياته

علي عُلوي بن إبراهيم بن الحاج أويس أفندي كورجو، وُلد في مدينة قونية، في بيت علم ودين ودعوة، تلقَّى علومه الأولية على والده، وسلك في المدارس الابتدائية والثانوية الرسمية في قونية، ثم هاجر مع أسرته إلى المدينة المنورة بسبب الظروف القاسية التي تعرَّض لها العلماء والدعاة في ظل حكومة مصطفى كمال، ومن هناك انتقل للدراسة في الأزهر الشريف عام ١٩٣٩، والتقى في رواق الأتراك بعدد من الطلاب الأتراك الذين كان لهم لاحقًا فضلٌ في إعادة إحياء العلوم الدينية في تركيا، مثل: مصطفى زُنيون، وعلي يعقوب جنكجيلر، وأحمد داود أوغلو، وإسماعيل الأزهري، وكان يحضُر ـ في سنوات إقامته بالقاهرة ـ مجالس العلماء الأتراك، مثل: مصطفى صبري أفندي، وزاهد الكوثري، وإحسان أفندي اليوزغاتي.

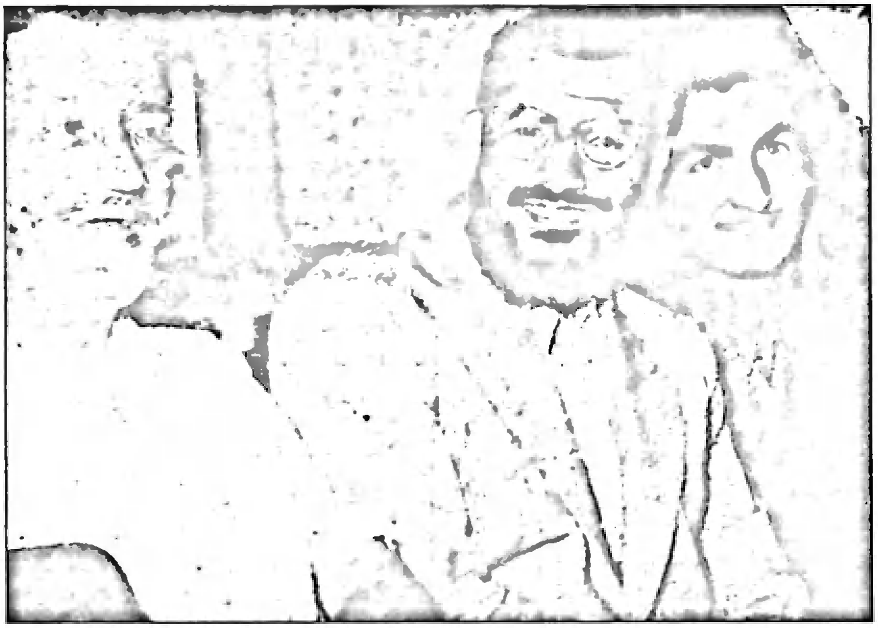
(١) انظر: عالم قهرمان، مادة علي علوي كورجو، موسوعة شؤون الديانة التركية (٢٦: ٤٥٧).

وبعد أن تخرَّج في جامعة الأزهر عاد إلى المدينة المنورة، وتولَّى عدة وظائف في مكتبة المحمودية (١٩٥٣ ـ ١٩٧٥) التي بناها السلطان محمود الثاني سنة ١٨٢١، ثم في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت (١٩٧٥ ـ ١٩٨٥)، حيث اشتغل بتصنيف وفهرسة المخطوطات التركية والعربية والفارسية، وقد ساعده عملُه في هاتَين المكتبتَين أن يتعرف على كبار شخصيات العالم الإسلامي التي كانت تزور المكتبات عند زيارتها المدينة المنورة، وكتب عنها في مذكراته.

ومع غُربته عن وطنه فإنه لم يقطع علاقته بتركيا، وكان حريصًا على تقديم أقصى ما يستطيعه من خدمات في الحقل العلمي والديني في تركيا، وكان يهتم بالحجاج الأتراك ويلتقي بهم، وبعد تَقاعُده صار يُكثِر من الزيارات، ويُطِيل الإقامة في تركيا، إلى أن توفي في المدينة المنورة، ودُفن في جنة البقيع.



▲ علي علوي كورجو أثناء عمله
في مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة



▲ علي علوي كورجو في الوسط، وعن يساره المؤرخ قدير مصر أوغلو، وعن يمينه الشاعر والمفكر الإسلامي التركي نجيب فاضل

ظهر مَيلُه للأدب والشعر، وقرأ لكبار الشعراء الأتراك، وتلقّى دروسًا في العَروض والشعر التركي من إحسان أفندي وإبراهيم صبري أفندي، وتأثَّر بالشاعر الوطني محمد عاكف، وربطته علاقة وثيقة بالشاعر محمود جودت سيزر بك، وكان يكتب رسائل كثيرة إلى بعض الأدباء والشعراء، مثل رضا توفيق، وبدأ ينشر شعره الإسلامي في مجلة «نور الإسلام» في إستانبول منذ عام ١٩٥٠م.

له دواوين شعرية، ومقالات كثيرة، نشرها في عدة جرائد تركية، إضافة لترجمة بعض الكتب من العربية إلى التركية، مثل كتاب أبي الحسن الندوي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟».

قصة المذكرات

كانت حياة الأديب والمفكر علي علوي كورجو حافلة بالأحداث والشخصيات، وكان خلال زياراته لتركيا يلتقي بالشباب الذين تأثَّروا به، وأخذوا عنه كثيرًا من ذكرياته ووصاياه، ونقلوا عنه أحاديثه ولقاءاته بشخصيات من بلاد وأقطار شتى، وشهاداته على أحداث عصره، فاسترعى الأمر اهتمام أحد الكُتّاب، وهو الأستاذ أرطغرل دوزداغ، الذي سافر إلى المدينة المنورة ـ مقر إقامة الأستاذ علي علوي ـ بطريق سُلطانة، شارع أبي بكر الصديق في عام ١٩٩٣م، ورتَّب معه عَقْد جلسات يومية يستدعي فيها خواطر الأستاذ وذكرياته، فزارَه يوميًا على مدار شهرَين كاملَين، يُسجِّل على مُسجِّل صوت كلِّ كلمة يقولها الأستاذ علي علوي.

ثم فرَّغ هذه التسجيلات في ألف وثلاثمئة صفحة، فاشتغل عليها ترتيبًا وتقسيمًا، واختصارًا وتهذيبًا، وتقديمًا وتأخيرًا، وتصويبًا وتعديلًا، مدة ست سنوات ـ لمشاغل كثيرة كانت تطرأ على المحرِّر بين الفينة والأخرى ـ ثم بدأ بكتابة الذكريات في ٢٦ ـ ٠١ ـ ١٩٩٨م.

استمرت رحلة الكتابة ثماني سنوات أخرى، كان المحرِّر يقرأ فيها كلَّ ما يكتبه على الأستاذ علي علوي حين يزور إستانبول صيفًا، واستمر العمل حتى خرجت المذكرات في خمس مجلدات، وظهرت للنور عام ٢٠٠٦م بعد وفاة الأستاذ علي علوي رحمه الله.

عملي في الكتاب

بدايةً لا بد من إزجاء الشكر للدكتور إياد الغوج؛ إذ إنه هو مَن بادَرَ إلى فكرة الكتاب، وسعى حثيثًا في إصداره على صورته التي نقدِّمها للقُرّاء اليوم، وقد اتبَعنا في خدمة الكتاب الخطوات الآتية:

أولًا: ترجمتُ القسمَين المخصصَين لذكريات علي علوي كورجو مع أستاذَيه شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي، والعلامة زاهد الكوثري.

ثانيًا: استقصيتُ كلَّ المواضع التي ورد فيها ذِكر الشيخَين في المذكرات خارج القسم المخصَّص لهما.

ثالثًا: ترجمتُ ما رأيت فيه إضافةً حقيقية لم تَرِد في المذكرات من هذه المواضع المتفرقة، وأدرجتها في سياقها المناسب من الذكريات.

رابعًا: عرَّفت بالأعلام الأتراك الذين ورد ذِكرهم في متن المذكرات، معتمِدًا في ذلك غالبًا على موسوعة «شؤون الديانة التركية»، واقتصرت على الأعلام الأتراك؛ إذ إن القارئ العربي يستطيع الوصول بيسر وسهولة لتراجم الأعلام العرب الذين أتى ذكرهم في ثنايا الذكريات؛ لشيوع ذِكر الأعلام العرب بين القُرّاء العرب، وقدرة القارئ العربي على الوصول بيُسر لتراجمهم في مَظانِّها، ولذلك لا يعجبنَّ القارئ إن لم يجد ترجمة محمد عبده، أو حسن البنا، أو عباس محمود العقاد، وأمثالهم.

خامسًا: اجتهدت في إرفاق صور لكل من استطعت الحصول على صورة له من الأعلام، أو الأماكن التي جاء ذكرها في الكتاب.

سادسًا: عرَّفت بصاحب الذكريات علي عُلوي كورجو، والشيخَين مصطفى صبري أفندي، وزاهد الكوثري أفندي، قبل بداية القسم المخصَّص لكل منهما، معتمِدًا على موسوعة «شؤون الديانة التركية».

سابعًا: ختمت الكتاب بفهرس تفصيلي لكل الأعلام والأماكن التي ذُكرت في طَيّات الكتاب، حتى يَسهُل على القارئ الرجوع إلى مكان الحديث عنها.

ثامنًا: قد يصادف القارئُ الكريم في ثنايا الذكريات مِن آراء شخصياتِها ما يراه مُجانِبًا للصَّواب، فآثرتُ ـ التزامًا بالأمانة العلمية ـ أن أُثبت كل كلمة كما ذكرها الأستاذ علي علوي، ورأيت أن يقتصر دوري على خدمة النص دونَ محاكمة أفكاره، فتركت التعليق عليها إيجابًا أو سلبًا، مع يقيني أنها ستثير همة الباحثين لتجلية وجه الحقيقة فيها.

شيخ الإسلام في الدولة العثمانية
مصطفى صبري أفندي التوقادي
(١٨٦٩ - ١٩٥٤)(١)

وُلد شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي التوقادي في مدينة توقاد بتاريخ ١٢ ربيع الأول عام ١٢٨٦هـ، الموافق ٢٢ ـ ٠٦ ـ ١٨٦٩م، وبدأ تحصيل العلم في مدينته، فحفظ القرآن الكريم وهو ما زال في العاشرة من عمره، وحصل على الإجازة في العلوم الشرعية من أستاذه أحمد أفندي زونيه زاده، ثم انتقل إلى مدينة قيصري، وطلب العلم فيها على محمد أمين أفندي الديفريكلي، ثم انتقل إلى إستانبول، وتتلمذ على وكيل درس شيخ الإسلام الشيخ أحمد عاصم الكومولجينيلي، ومحمد عاطف أفندي، وتزوج ابنة أستاذه أحمد عاصم؛ السيدة علوية هانم، واستقر في إستانبول.

وبعد اجتيازه الامتحان العلمي في سن مبكرة عُيِّن مدرسًا في جامع الفاتح عام ١٨٩٠م، ثم عُيِّن إمامًا في جامع أعصارية في منطقة بيشكطاش، وبعد ذلك بعامَين اشترك في إلقاء الدروس السلطانية التي كان يلقيها كبار العلماء في حضرة السلطان عبد الحميد الثاني، وكان أصغر العلماء المشاركين في هذه الدروس سِنًّا، وبين عامَي ١٨٩٩ ـ ١٩٠٤م عُيِّن مديرًا (محافظ كتب) في مكتبة قصر يلدز، وفي هذه الفترة تلقَّى علم القراءات على نيازي كوسه أفندي، وكان يُقرئ التفسير في مدرسة الواعظين، والحديث في مدرسة

(١) انظر: يوسف شوقي يافوز، مادة مصطفى صبري، موسوعة شؤون الديانة التركية (٣١: ٣٥٠).

السليمانية ومدرسة المتخصِّصين، وكان من ضمن الأعضاء المؤسِّسين للجنة مراجعة المصنَّفات الشرعية، ثم انتُخِب رئيسًا للجمعية العلمية الإسلامية، وكان الكاتب الرئيس في مجلتها «بيان الحق»، وشغل منصب مفتي مدينة سيلسترة، وكتب مقالات في مجلات عديدة مثل «بيامي صباح»، و«إقدام»، و«يارن/ الغد»، و«علمدار».

وبعد إعلان المشروطية الثانية (الملكية الدستورية) عام ١٩٠٨ دخل مجلس المبعوثان نائبًا عن مدينة توقاد، وانضم لجمعية الاتحاد والترقي، ثم انقلب عليها، وكان من ضمن المؤسِّسين لحزب الأهالي المعارض عام ١٩١٠م، وتولى فيه منصبًا إداريًّا، وبعد أن نجحت حكومة الاتحاد والترقي في التفرد بالسلطة وتشكيل حكومتها شنَّت حملة اعتقالات واسعة في صفوف المعارضين، فهرب مصطفى صبري أفندي إلى رومانيا، ولكنه اعتُقل وسِيق إلى إستانبول للمحاكمة، وحُكِم عليه بالنفي إلى مدينة بيلاجيك.

وبعد خسارة الحرب العالمية الأولى، وخروج جمعية الاتحاد والترقي من الحكم، أُلغي قرار النفي، ورجع مصطفى صبري أفندي إلى إستانبول، فانضم عام ١٩١٩م لحزب الحرية والائتلاف المعارض للاتحاديِّين، وانتُخب مرة ثانية نائبًا عن توقاد، وتولى رئاسة جمعية المدرِّسين التي تحوَّلَت لاحقًا إلى جمعية الطلائع الإسلامية، وعمل فيها مع نائبَيه بديع الزمان سعيد النورسي، وعاطف إسكليبلي أفندي، ثم عُيِّن شيخًا للإسلام في حكومة الصدر الأعظم فريد باشا في ٠٤ ـ ٠٣ ـ ١٩١٩م، وتولى مقام الصدر الأعظم بالنيابة مدة، وعارَضَ السلطان في إرساله مصطفى كمال لإشعال حرب الاستقلال في الأناضول، وبعد سقوط حكومة فريد باشا عُيِّن في مجلس الأعيان، وعُيِّن عضوًا في جمعية الحكمة الإسلامية، ثم عُيِّن عام ١٩٢٠م مرة ثانية شيخًا للإسلام ووكيلًا لرئيس مجلس شورى الدولة، وكان من الأعضاء

الذين دعاهم السلطان لمناقشة بنود معاهدة (سيفر)، وكان يؤيد التوقيع عليها، واتخذ موقفًا معارضًا لحركة التحرير التي أعلنها مصطفى كمال في الأناضول، وعند رفض السلطان اقتراحاتِه ضد مصطفى كمال أعلن الشيخ استقالته من منصبه في شهر أيلول من عام ١٩٢٠م.

وبعد إعلان الجمهورية أُدرج اسمه مع ابنه إبراهيم ضمن قائمة المئة والخمسين التي اتهمتها حكومة مصطفى كمال في أنقرة بالخيانة؛ لوقوفها ضد حركتهم، فخرج بصحبة السلطان وحيد الدين من إستانبول، ونزل في الإسكندرية، ولكنه لَقِي فيها من بعض أنصار مصطفى كمال إساءات كثيرة، وفي ٠٦ ـ ٠٢ ـ ١٩٢٤م ألغت حكومة أنقرة معاشه، وفي ٠١ ـ ٠٦ ـ ١٩٢٤م نزعت منه الجنسية التركية، ثم ذهب بصحبة السلطان إلى الحجاز بدعوة من الشريف حسين ملك الحجاز آنذاك، وبقي فيها حوالي خمسة أشهر.

ثم انتقل إلى رومانيا، ومنها انتقل إلى اليونان، وفي عام ١٩٢٧م استقر في مدينة كومولجينه ذات الجالية التركية الكبيرة، ومسقط رأس أستاذه وحَمِيه، وبقي فيها خمس سنوات، أصدر فيها مجلة «يارن/الغد»، وصوَّب سهام انتقاده لحكومة أنقرة، وفضح ما تقوم به من حملات تغريب للمجتمع التركي المسلم، وسلخِه عن دينه وثقافته ولغته العثمانية، ولكن مع عودة العلاقات بين تركيا واليونان اشترط مصطفى كمال على اليونان لتوقيع اتفاقية الهدنة أن تُغلق الحكومة اليونانية مجلة مصطفى صبري أفندي، وأن تطرده من اليونان، فأصدرَت الحكومة قرارًا بإغلاق المجلة، وأجبرت مصطفى صبري على الانتقال للإقامة في أثينا.

وفي هذه الأثناء راسل صبري أفندي كثيرًا من حكومات البلاد الإسلامية لاستقباله، والسماح له بالإقامة في أي بلد مسلم، لكن لم تستجب له أيٌّ

منها بسبب وقوعها تحت الاحتلال الأوروبي، إلى أن خاطر القنصل المصري في أثينا بمساعدته على الانتقال للإقامة في القاهرة؛ احترامًا لمقامه شيخًا سابقًا للإسلام، وعانى الشيخ في بداية إقامته بالقاهرة ظروفًا قاسية، حتى انتبه بعض رجال الدولة المصرية إلى إقامته في القاهرة، فبادَروا لتقديم يد العون له.

نشط شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي خلال إقامته بالقاهرة في الرد على دعاة التغريب والتحديث المصريين، مثل قاسم أمين، ومحمد فريد وجدي، وعلي عبد الرازق، وحسين هيكل، وغيرهم، وكتب في المجلات الكبرى مدافعًا عن قيم الإسلام الأصيلة ضد مَن يحاول تحويرها للتوافق مع قيم الغرب وأفكاره، وأصدرَ كُتبًا كان لها صدى واسع في العالم الإسلامي والعربي حتى الآن، وتُوفي رحمه الله في القاهرة في ١٢ ـ ٠٣ ـ ١٩٥٤م، ودُفن في مقابر العباسية.

❁ من آثاره العلمية:

ـ «القيمة العلمية للمجتهدين الجدد في الإسلام» (Yeni İslâm Müctehidlerinin Kıymet-i İlmiyyesi.)، كتبه باللغة التركية ردًّا على كتاب «براهين الرحمة الإلهية» لموسى جار الله، طُبع في إستانبول عام ١٣٣٥ هجرية، ثم عام ١٩٩٨م، ثم أعاد عمر أوزألب نشر العمَلَين بعد نقلهما إلى اللغة التركية الحديثة في إستانبول عام ١٩٩٦.

ـ «المجدِّدون الدينيون» أو «دليل تركيا في درب النجاة والفلاح»، كتبه باللغة التركية ردًّا على كتاب «المسلمون الجدد» لهاشم نهاد وأصدقائه المنادِين بضرورة تجديد الدين ليتوافق مع الحضارة الغربية الحديثة، وطُبع في إستانبول عام ١٣٤١هـ، ثم أُعيد طبعه ١٩٦٩، ١٩٨٧، ١٩٩٤م.

ـ «النكير على منكري النعمة من الديـن والخلافة والأمة»، كتبه باللغة العربية، مبيِّنًا ما آل إليه حال المسلمين بعد سقوط الخلافة، وتخاذُل العلماء عن الصدع بالحق في وجه أهل التغريب والحداثة، وطُبع في بيروت عام ١٩٢٤م، وتُرجم إلى اللغة التركية تحت عنوان «إلغاء الخلافة»، وطُبع في إستانبول عام ١٩٩٦م.

ـ «مسألة ترجمة القرآن»، والذي ردَّ فيه على مَن يُشَرِّع محاولة حكومة مصطفى كمال حَمْل الناس على قراءة القرآن باللغة التركية في الصلاة وخارجها، ونُشر الكتاب في القاهرة عام ١٩٣٢م، ثم تُرجم إلى التركية، وطُبع في إستانبول عام ١٩٩٣م.

ـ «موقف البشر تحت سلطان القدر»، ويتناول فيه مسألة القضاء والقدر، وجنح فيه للقول بالجبر المتوسط، كتبه بالعربية، ونشره في القاهرة.

ـ «القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون»، كتبه بالعربية، وردَّ فيه على منكِري المعجزات والنبوة وعلامات القيامة في مصر، مثل حسين هيكل.

ـ «موقف العقل والعلم والعالِم من رب العالمين وعباده المرسلين»، كتبه بالعربية، ويُعَدُّ أكبر كتبه التي جمع فيها ردوده على دعاوى وشبهات دعاة التغريب.



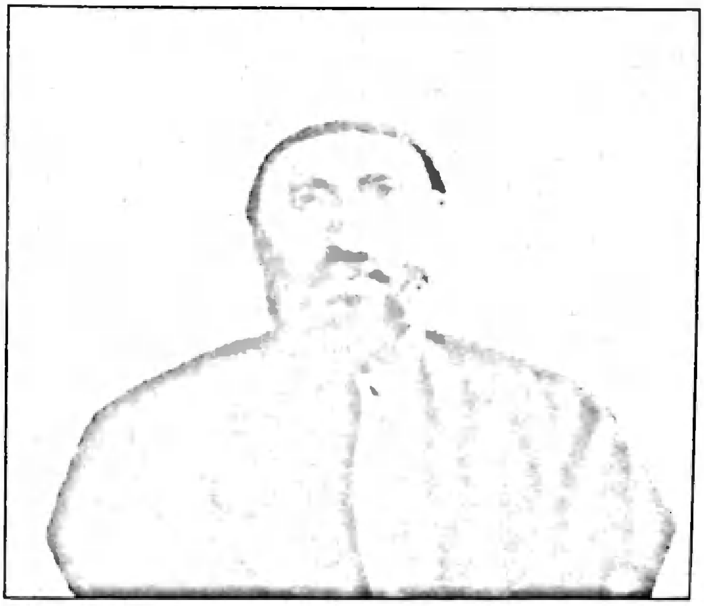
القسم الأول

مذكرات علي علوي مع شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي



شَيخ الإسلامِ مُصطَفى صَبري

(١٨٦٩هـ - ١٩٥٤م)



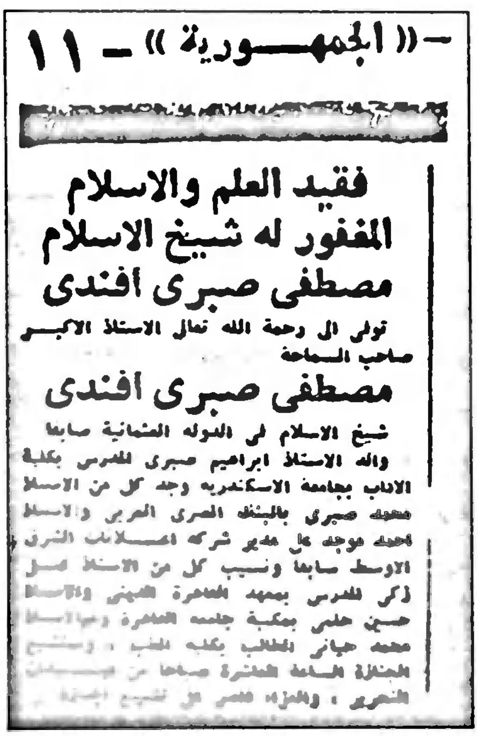
▲ مصطفى صبري أفندي في مجلس المبعوثان



▲ مصطفى صبري أفندي مع علي يعقوب
(علي الكبير) في أزقة القاهرة



▲ مصطفى صبري أفندي في آخر حياته



- « الجمهورية » - ١١

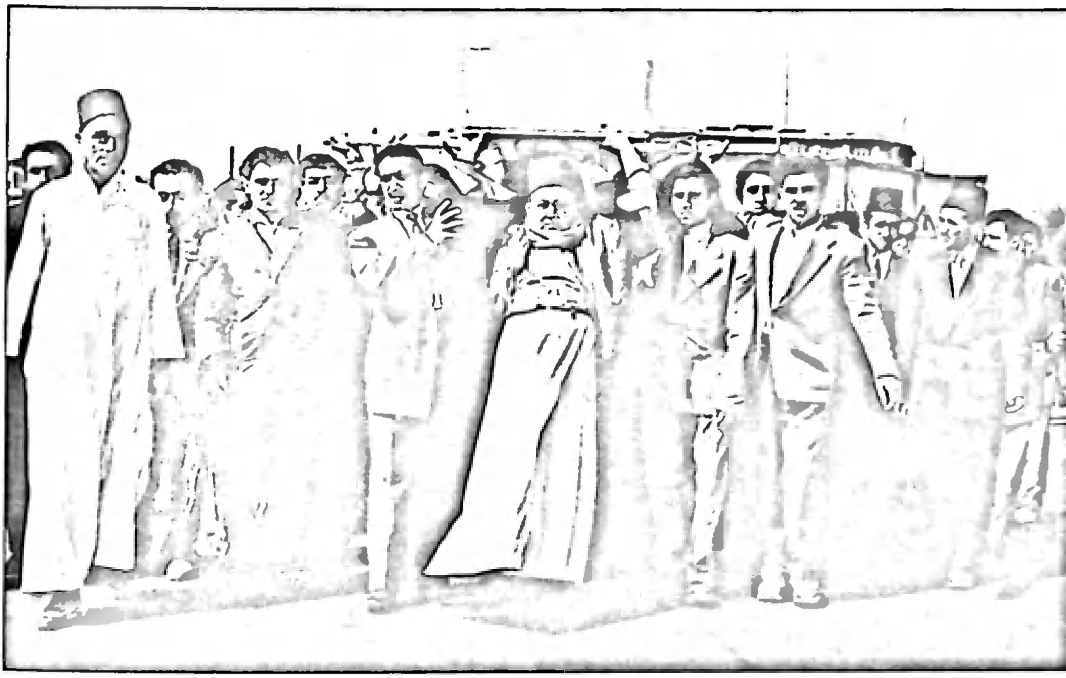
فقيد العلم والاسلام
المغفور له شيخ الاسلام
مصطفى صبرى افندى

توفي الى رحمة الله تعالى الاستاذ الاكبر صاحب السماحة

مصطفى صبرى افندى

شيخ الاسلام في الدولة العثمانية سابقا والد الاستاذ ابراهيم صبرى المدرس بكلية الاداب بجامعة الاسكندرية وجد كل من الاستاذ محمد صبرى بالبنك المصرى العربى والاستاذ احمد موجه على مدير شركة اعلانات الشرق الاوسط سابقا ونسيب كل من الاستاذ عادل زكي المدرس بمعهد القاهرة الفني والاستاذ حسين حلمى بمكتبة جامعة القاهرة والاستاذ محمد حجازى الطالب بكلية الطب . وستشيع الجنازة الساعة العاشرة صباحا من ميدان التحرير . والعزاء قاصر على تشييع الجنازة .

◄ خبر وفاة شيخ الإسلام في جريدة الجمهورية



▲ جنازة الشيخ مصطفى صبري أفندي



▲ قبر مصطفى صبري أفندي في القاهرة

في حضرة شيخ الإسلام

كانت الأيام الأولى من وصولي إلى مصر، وكان السيد أحمد حمدي طُوبّاش[1] ـ في طريق عودته من الحج ـ قد نزل بفندق كونتيننتال ليمكث فيه أيامًا، ثم يسافر بعدها إلى تركيا، وكان السيد أحمد قد التقى مع والدي ووالد مصطفى رُنيون أثناء أدائه مناسك الحج؛ لما كان بينهم من معرفة ومودة سابقة، حيث ينتسبون إلى الشيخ نفسه زين العابدين أفندي[2]، وترجع أصول عائلة طُوبّاش إلى بلدة قادين خان في قونية.

(١) أحمد حمدي بن خلوصي بن قدسي بن مصطفى طُوبّاش (١٨٨٢ ـ ١٩٤٤)، أحد أعيان إستانبول وتُجّارها، وُلد في قضاء قادين خان في مدينة قونية، وكان جده من كبار علمائها وشيوخ الطريقة النقشبندية فيها، وفي شبابه وفد إلى إستانبول، وانعقدت بينه وبين علمائها وشيوخها صِلاتُ مَودة وصداقة، مثل محمد حمدي إلماليلي، وشيخ الإسلام مصطفى صبري، وإحسان أفندي، اشتهر هو وأولاده من بعده بخدمة العلماء وطلبة العلم، فتكفّلوا برعاية كثير من العلماء الذين انقطعت بهم السبل بعد إغلاق المدارس الدينية في عصر الجمهورية، وبسبب مضايقات الاتحاديين له هاجر إلى ألمانيا، وبقي فيها فترة من الزمن، ثم عاد إلى إستانبول، وتابع مسيرته في خدمة الدين والعلم، بمعية أولاده الذين ساروا على نهج والدهم، فأنشؤوا من بعده جمعية عزيز محمود هدائي لهذه الغاية، وما زالت حتى اليوم تقوم على خدمة طلبة العلم في أماكن كثيرة. أدم أركول، موسى طوباش صاحب الوفا، ص٣٥.

(٢) محمد زين العابدين بن بهاء الدين أفندي بن مَميش أفندي (١٨٦٦ ـ ١٩٤٠)، وُلد في مدينة قونية، وكان الابن الأكبر لأبيه، وتلقّى فيها تعليمه الديني الأساسي، ثم انتقل للدراسة في مدارس إستانبول العالية، وبعد أن حصل على الإجازات العلمية رجع إلى قونية، فأسّس مدرسة إصلاح المدارس في قونية، حيث كانت تجمع بين العلوم الدينية واللغات العربية والأوروبية، إضافة لبعض العلوم الحديثة، وتولّى بعد والده مشيخة الطريقة النقشبندية الخالدية في قونية، وكان له مشاركة قوية في الحياة السياسية، فانتسب إلى جمعية الاتحاد الترقي، وانتُخب نائبًا في مجلس المبعوثان عن مدينة قونية عام ١٩٠٨، ثم عُيِّن عضوًا في مجلس الأعيان، ثم انقلب على جمعية الاتحاد والترقي، وعارض حكم الحزب الواحد، =



▲ الجالس على الكرسي مصطفى رُنيون، والواقف في الوسط علي علوي كورجو صاحب المذكرات أثناء وجودهم في القاهرة

أرسل السيد حمدي إلى مقر إقامتنا رجلًا في استدعائنا، فذهبنا مع مصطفى رُنيون[1] إلى الفندق، وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث قليلًا قال:

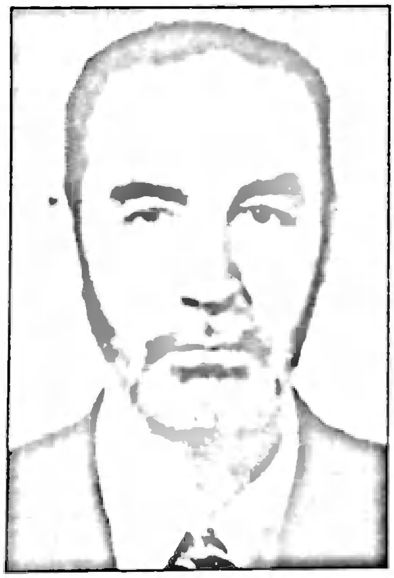
ـ يا شباب، أيامي في مصر معدودة، فلنذهب معًا لزيارة مصطفى صبري أفندي، وزاهد الكوثري أفندي.

فأجبناه: على الرأس والعين يا سيدنا.

وذهبنا بمعيته إلى شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي، فكانت هذه الزيارة سببًا شرُفت فيها برؤية فضيلة شيخ الإسلام لأول مرة.

= فسُجن، ثم عارض مصطفى كمال، فنُفي من البلاد، وتنقَّل بين دمشق وبيروت وغيرهما من المدن، إلى أن استقر به المقام في المدينة المنورة، وتوفِّي فيها، ودُفن بجنة البقيع، وصفه مصطفى صبري أفندي بقوله: كان بعيد النظر، صادق الحَدْس، حادَّ الذكاء، وكان قوي البنية ضخم الجثة، وكنا معًا في جمعية الاتحاد والترقي، ولكنه كان أول من كشف اللثام عن خبيئة نفوس الاتحاديين، ونبَّهَنا إلى خطرهم، ورفع راية النضال ضدهم. انظر: علي أوز، مختصر موسوعة قونية (٢: ٤٥٠).

(١) مصطفى بن علي رضا رُنيون (١٩١٧ ـ ١٩٨٨)، وُلد في مدينة قونية، لأبٍ كان من أعيانها، غادَرَ تركيا مع عائلته عام ١٩٣٥، فأقاموا في دمشق سنة، ثم انتقلت العائلة للإقامة في المدينة المنورة، وانتقل هو للدراسة في الأزهر، وحضر مجالس العلماء الأتراك الذين كانوا في القاهرة وقتها، ثم رجع إلى تركيا ١٩٥٠، وعمل في رئاسة الشؤون الدينية، وكان خطيبًا ومدرسًا في جامع حجي بيرم في أنقرة، وفي عام ١٩٥٧ دخل نائبًا إلى البرلمان التركي، وسُجِن بعد انقلاب ١٩٦٠ على حكومة عدنان مندريس، ثم خرج واستمر في الخطابة والإمامة، وعُين في المعهد العالي للعلوم الإسلامية في إستانبول عام ١٩٧٠، فدرَّس فيه إلى أن تقاعد، وتوفي في مدينة إستانبول. انظر: سداد شن صوي، موسوعة شؤون الديانة التركية (٣٥: ٢٤٥).



▲ مصطفى رُنيون



▲ محمد زين العابدين أفندي



▲ أحمد حمدي طُوبَاش

❁ إنسان مُنَوَّر الشيبة، حسَن الثغر، رقيق العود:

وكنت أتخيل الشيخ ـ قبل لقائه ـ رجلًا جسيمًا مهيبًا تكسوه الجلالة، حيث إنّ صِيتَ سِجالاته العلمية والسياسية، وصَولاته الفكرية والثقافية التي خاضها سواء في تركيا أم في مصر، قد بعثت في نفسي هذه الصورة، فقد كان رجلًا صَدّاعًا بالحق، لا يخشى في الله لومة لائم، يجاهد في سبيل الحق الذي تَبيَّنه، ويُحاجج كلَّ مَن يعترضه.

ولكني لما شرُفتُ بالمثول بين يديه رأيته ـ على عكس ما رَسَمَتْه مخيلتي ـ رجلًا رَبْعَ القامة، أبيض الوجه، مُنوَّر الشيبة، طَلْق المُحَيّا، لطيف المعشر، رقيق العود، ليِّنَ العريكة، لا ضخم الجثة مَهُول الجَسد كما نسَجتُ صورته في خيالي، فحدثتُ نفسي مُتحيِّرًا:

ـ عجبًا! كيف للشيخِ ـ في رِقّة جسده ولِين طبعه ـ أن يُجابِه الدنيا كلها؟!

وفي مَعرِض حديثنا ذاك اليوم سأل الشيخُ عني:

ـ من هذا المُلّا (الأستاذ)؟

فعرَّفوه بالعبد الفقير، ثم عقَّب بقوله وقد تهلَّل وجهه:

ـ أتقصد أنّ الحوارِيَّين اللذَين رأيناهما في مدرسة (إصلاح المدارس)[1] هما أبَواه؟

---

(١) كانت مدرسة دينية أُسِّست في قونية بهدف تخريج علماء متخصصين في العلوم الشرعية لمستوى الجامعة وما قبلها، واهتمت بتعليم اللغة العربية مدخلًا للتمكُّن في العلوم الشرعية، إضافة للتمكن في دراسة لغة أوروبية، بحيث يستطيع المتخرج الاطلاع على ما يُكتَب في العالم الغربي، وترجمة ما يراه مفيدًا إلى اللغة التركية. انظر: إسماعيل بيلجيلي، مدرسة إصلاح المدارس الإسلامية نموذجًا للمدارس الإسلامية في العصر العثماني الأخير، مجلة الأبحاث الدينية (١: ٦٥).

وكان الشيخ مصطفى صبري أفندي مُعجَبًا بهذه المدرسة ونظامها كثيرًا، حتى إنه أرسل ابنه من إستانبول إلى قونية ليُحصِّل العلم فيها[(١)]، وكذلك كان السيد أحمد حمدي طوبّاش قد أرسل ابنَيه السيد نوري (١٩٠١ ـ ١٩٦٣)، والسيد خلوصي (١٩٠٨ ـ ١٩٦٣) إلى تلك المدرسة، فأجاب حمدي بك قائلًا:

ـ نعم يا سيدي، كان أبوه[(٢)] وجدُّه[(٣)] من أساتذة تلك المدرسة.

فردَّ مصطفى صبري أفندي:

ـ فلتَقُل هذا يا رجل، قُل: إنه من حوزة العلم ودَوْحة القرآن، أهلًا وسهلًا يا ولدي.

وقبَّلْنا يدَه.

۞ كان حولك سَحابة دخان:

كان بين الشيخ مصطفى صبري أفندي والسيد حمدي ذكرياتٌ خاصة، فاستعاداها وتجاذَبا أطراف الحديث حولها، وكان زين العابدين أفندي قد تُوفِّي في تلك السنة، فذكراه بخير، وآنَسا روحه بقراءة الفاتحة عليها، وبعد مُضِيِّ نصف ساعة من الوقت توجَّه المرحوم طوبّاش بالخطاب نحونا:

ـ فلْنَستأذن، أليس كذلك؟

---

(١) ورد هذا الخبر في موضع آخر من مذكرات علي علوي (١: ١٧٠).

(٢) والده إبراهيم بن أويس أفندي (١٨٩٢ ـ ١٩٤٥).

(٣) الحاج أويس أفندي (١٨٥٨ ـ ١٩٣٥)، تولَّى تدريس القرآن الكريم مع ولدَيه مصطفى وإبراهيم أفندي في مدرسة إصلاح المدارس بمدينة قونية.

وعندها سأله شيخ الإسلام:

ـ حاج بك، كان حولك سحابة دخان فيما مضى[١]، فماذا جرى؟

ـ يا سيدي، سأُقلِع بدعواتكم إن شاء الله.

ـ إذن فاشرب إلى أن أدعو لك، دقيقة حتى آتيك بمنفضة السجائر.

وأتى بها، ثم طلب القهوة فحضرت، وأخرج طوبّـاش علبة التبغ نزولًا عند أمر شيخ الإسلام، وأخذ ينفث دخان سيجارته.

ـ حسنًا، ما دمنا سنتكلم فلا مَفرَّ من التدخين، اشرب الآن، وندعو لكم.

* * *

(١) استخدم شيخ الإسلام هذا التعبير غير المباشر تلطُّفًا مع مخاطبه، ولم يقل له: كنتَ مدخنًا، صراحةً.

أيام الحزبية

يبدو أنّ الشيخَ فهم بألمعيته حاجةَ حمدي طوبَّاش التي دعته للاستعجال في القيام، فقضاها، ثم غابوا في سراديب الماضي، وفتحوا كتاب الذكريات، وامتدَّ حديثهم بعد ذلك خمسَ ساعات.

صلَّينا المغرب ثم العشـاء، وأخيرًا قال مصطفى رُونيـون مخاطِبًا أحمد حمدي بك:

ـ سيدي، أزِفَ موعد آخِرِ رحلات القطار، وما زال أمامنا ثلاثون كيلومترًا، لذلك سنستقِلُّ قطارَين.

فلَملَمْنا أطراف الحديث واستأذنّا للخروج.

وفي لقائنا الأول ذلك اليوم لمسـت في مصطفـى صبري أفندي خَفْض جناحه ولِينَ جانبه، وشـفقة فؤاده، وحينما كان أحمد حمدي بك يسـتدعي ذكرياتهما أيام نضالهما معًا في حزب الحرية والائتلاف(١) ضد الاتحاديين(٢)،

---

(١) حزب الحرية والائتلاف: أول حزب سياسـي معارض في تركيا، أسَّسه بعضُ المعارضين لجمعية الاتحاد والترقي حين اسـتبدَّت بالحكـم في تركيا بعد الانقلاب على السـلطان عبد الحميد الثاني في فترة المشـروطية الثانية ١٩٠٨، حيث لم يدخل مجلس المبعوثان إلا الاتحاديون، وبعد تصفية الاتحاد والترقي لبعض الصحفيين المعارضين في سابقة لم يفعلها عبد الحميد نفسـه الذي قاموا ضده، اجتمعت عدة جمعيات معارضة وشـكَّلَت عام ١٩١١ ما عُرف بفرقة الحرية والائتلاف، وانتقل إليها كثيرون من أعضاء الاتحاد والترقي، ودخل البرلمان بقوة، واهتم به المثقفون العرب كثيرًا، وانتسـبوا إليه نقمةً على سياسـة الاتحاد والترقي. انظر: علي برنجي، موسوعة شؤون الديانة التركية (١٨: ٥٠٧).

(٢) جمعية الاتحاد والترقي: حزب سياسي، أنشأه بعض الطلاب خريجي المدارس الحديثة في =

رأيت في مصطفى صبري أفندي ذلك الإنســان الذي لا يتحرَّج من نقد ذاته والمكاشفة بعيوبه والاعتراف بأخطائه حين يجيب:

ـ آه يا سيدي الحاج، ما استطعنا أن نستجلِيَ الحقيقة، عجبًا! كم كنا غُفلًا إلى حدِّ الســذاجة، في حين لم يكن يصلح لمثل هذه الأحــداث إلا الرجل المجرَّب الجَلْد، فيا لســهولة ما انطلَت علينا حِيَلُهم! لقد أُتِينا من حُسن ظنِّنا بالناس، وتحرُّجنا من اتهام أحد بسوء.

❁ الباب السري في المشيخة:

ومما أفاضت به الذاكرة على السيد حمدي طوبّاش من جعبة تلك الأيام:

ـ ســيدي، أتتذكرون، في أحد أيامِ تَولِّيكم مقام مشيخة الإسلام كانوا يلاحقونني حَذْو النعل بالنعل، وأوشــكوا على الإمساك بي أو استهدافي، فدخلت المشيخة لا ألوي على شــيء، أحُثُّ الخُطى لبلوغ باب غرفتكم، حتى إني لم ألحَظ أحدًا أو أُلقي عليه السلام أثناء صعودي إليكم، فقلتُ: مولانا الجليل، أخْفِني.

فأجبتني: عليك بتلك الستارة، قف خلفها.

وإذ بطريق سِرِّيٍّ يصل إلى مقام مشيخة الإسلام، حيث كان من أصول الدولة المقرَّرة منذ عهد السلطان سليمان القانوني أن يسلك شيخ الإسلام

= الدولة العثمانية، والعائدين من الدراسة في جامعات أوروبا، قادت الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٨، وحكمت البلاد حتى عام ١٩١٨، وقد حاربت جميع معارِضيها في فترة حكمها، وأدخلت البلاد في الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، فجَرَّت على تركيا ويلات الحرب والدمار، فهرب كثير من قياداتها إلى خارج تركيا خوفًا من المحاكمات على ســوء إدارتهم. انظر: محمد شــكري خاني أوغلو، موســوعة شــؤون الديانة التركية (٢٣: ٤٧٦).

هذا الطريـق لبلــوغ مقـامه دون الحاجـة لمروره بين موظّفي المشـيخـة وزُوّارها.

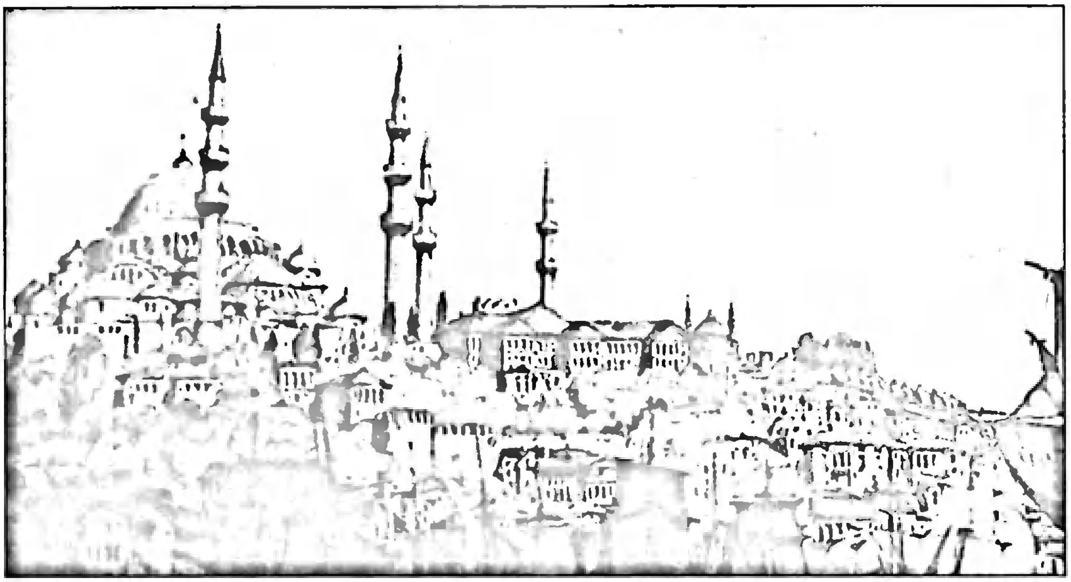
وما لبث مصطفى صبري أفندي أن أخفى حمدي بك في الباب السري وراء الستارة، ولما وصل الجواسـيس في ثوب زُوّار لشيخ الإسلام، وَلَجوا مقام المشـيخة وعيونُهم تتطلّع يَمنةً ويَسـرةً، ولكنها لا تقع على حاجتهم، فلما قضى عليهم العجز بحُكمه انكفؤوا خائبين لا يدرون من دهشـتهم أين اختفى الرجل، ولم يدروا أنّ الشـيخ مصطفى صبـري أفندي هو مَن أخفى حمدي بك ذلك اليوم.

بعدما قصّ حمدي طوبّاش بك ذكراه هذه منوّهًا بفضل شـيخ الإسـلام ومعروفِه عليه ذلك اليوم إذ بشيخ الإسلام يحفظ لحمدي بك معروفًا كان قد أسداه قديمًا، ويُذكِّره به، فيقول:

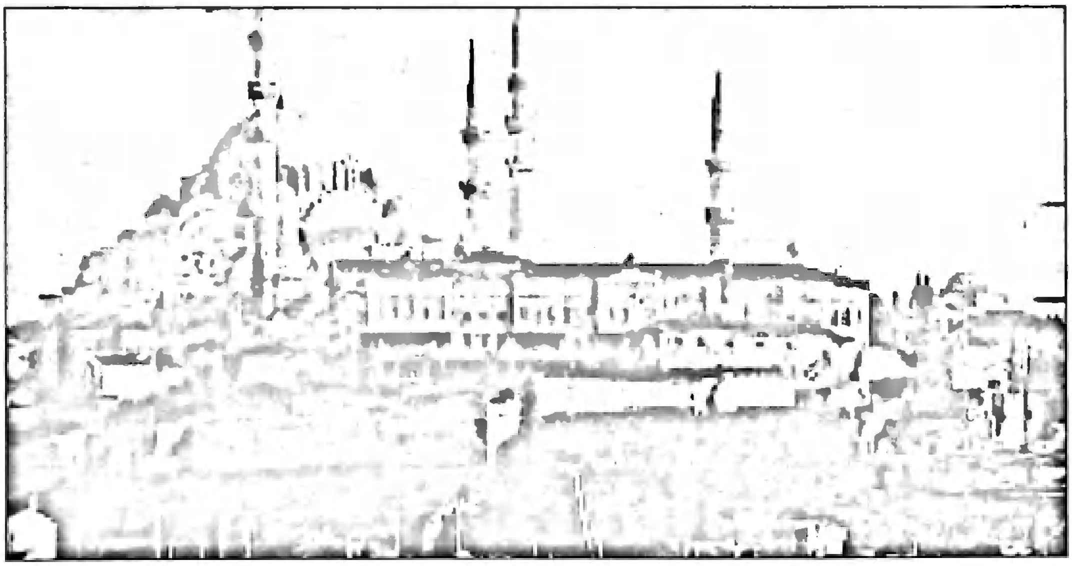
ـ حاج حمدي، وأنت أيضًـا صاحب أيادٍ بيضاء، ومَبَـرّات وتضحيات كثيرة، إلا أنّ حادثةً واحدة لكم لا أنسـاها ما حييـتُ، ولا أزال مُمتنًّا لكم بسببها العمرَ كلَّه، ألا وهي خدمتكم للسلطان وحيد الدين[1].

---

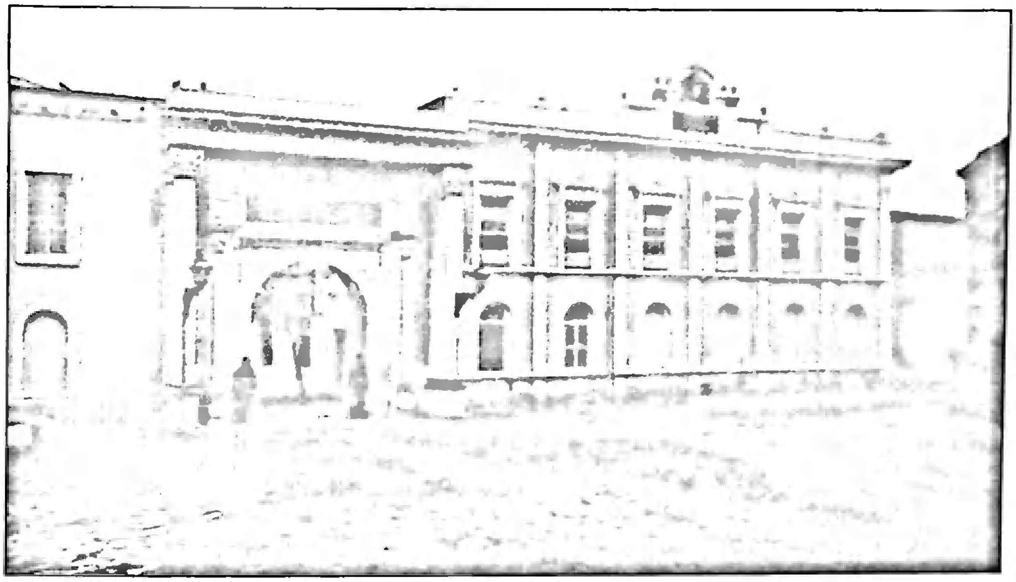
(١) السلطان محمد السـادس (١٨٦١ ـ ١٩٢٦) السلطان العثماني السـادس والثلاثون، تولى الخلافة بين عامَـي (١٩١٨ ـ ١٩٢٢)، وكان آخر من حمل لقب السـلطان والخليفة من السـلاطين العثمانيين، خرج من تركيا في ٠٣ ـ ١١ ـ ١٩٢٢، وتوفي فـي منفاه، ثم نُقل جثمانه ودُفن في دمشـق. انظر: جودت كجك، موسوعة شـؤون الديانة التركية، مادة محمد السادس (٢٨: ٤٢٢).



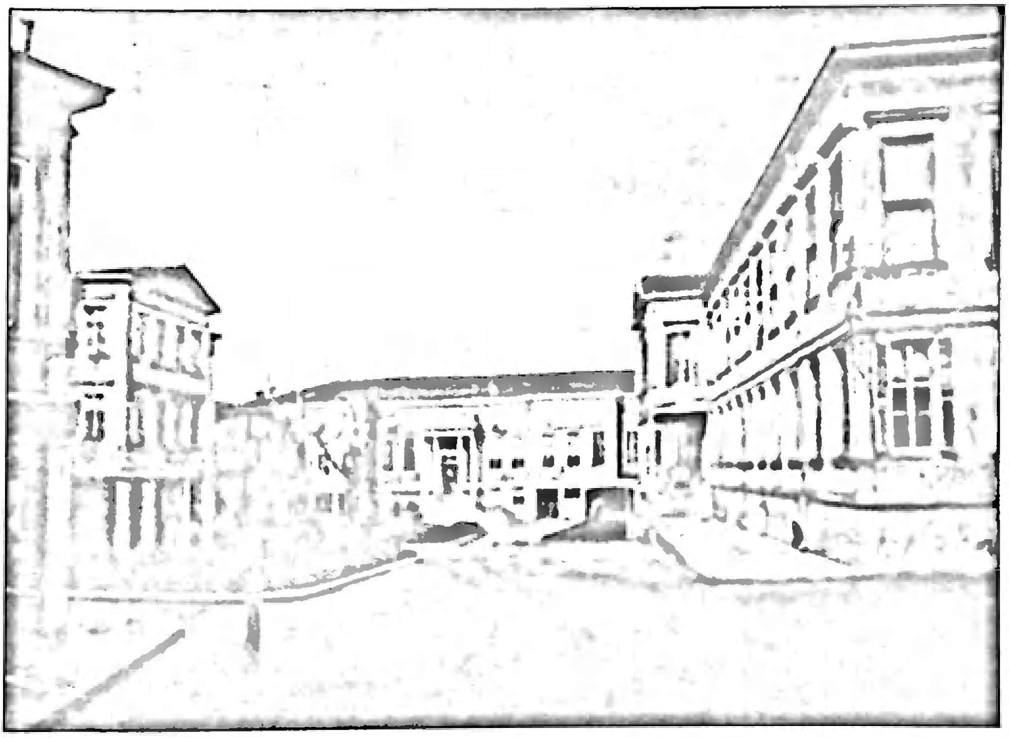
▲ جامع السليمانية وبجانبه دائرة مشيخة الإسلام



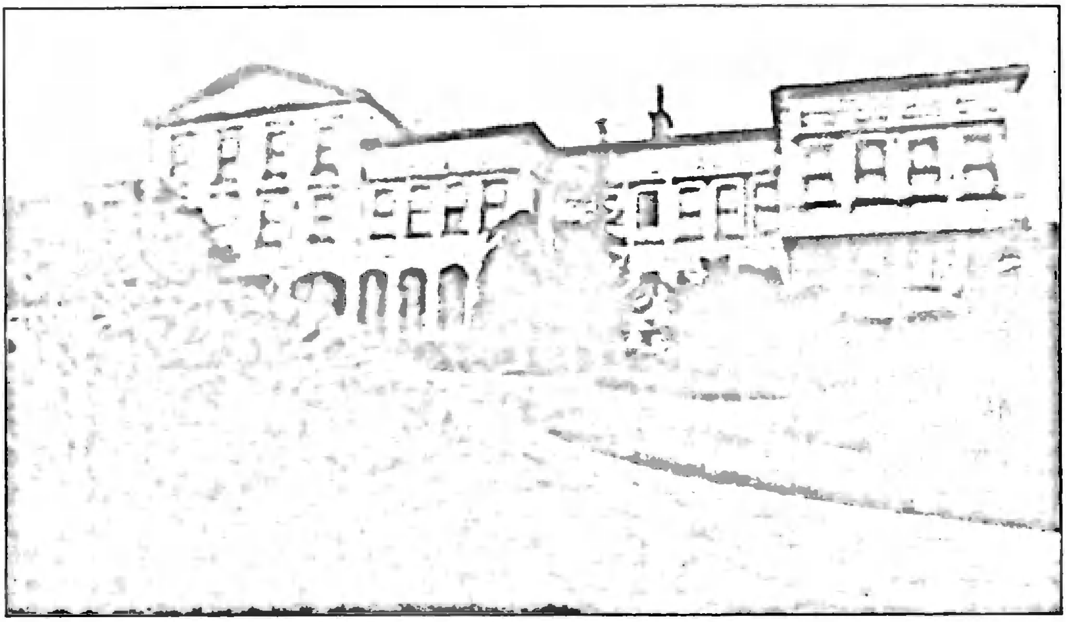
▲ صورة لجامع السليمانية ومقابله أبنية مشيخة الإسلام



▲ باب مشيخة الإسلام المقابل لجامع السليمانية



▲ أبنية دائرة مشيخة الإسلام



▲ بناء مشيخة الإسلام



▲ بناء هيئة الفتوى في مشيخة الإسلام (مقر مفتي إستانبول اليوم)

❀ سارِق السلطان:

كان المعروف الذي حفظه شيخ الإسلام لحمدي بك يتمثل في حادثةٍ قد جرت أيام استقرار السلطان وحيد الدين في فيينا، حيث قصده صبري أفندي بالزيارة قادمًا من رومانيا، وأثناء إقامة صبري أفندي في فيينا التقى بالسيد حمدي طوبّاش ـ وكان في زيارة لفيينا آنذاك ـ ودار بينهما حديث طويل، قال فيه صبري أفندي:

ـ حمدي بك، تقع على عاتقك هنا مهمة عظيمة.

ـ خيرًا إن شاء الله يا سيدي؟

ـ تشرَّفت قبل قليل بزيارة مولانا السلطان، وتنامَى إلى سمعي أن إسماعيل كومولجينَلي كان هنا، وقد زار السلطان قبل بضعة أيام، عرفت ذلك عندما سألت السلطان:

ـ سيدي، من يأتي لزيارتكم في هذه الأيام؟

فأخبرني بأن إسماعيل كومولجينلي[1] زاره، وأنت تعلم دهاء الرجل ومهارته في التصنُّع وخداع الناس، حيث قال للسطان:



▲ إسماعيل كومولجينَلي

(١) إسماعيل كومولجينَلي (١٨٨٥ ـ ١٩٤٥) سياسي تركي، وُلد في كومولجينه في اليونان، تخرَّج في مدرسة الحقوق عام ١٩٠٤، كان سياسيًا نشيطًا، عُيِّن نائبًا في مجلس المبعوثان العثماني، ثم انتسب إلى حزب الاتحاد والترقي، ثم انشق عنه، وانتسب إلى حزب الحرية والائتلاف المعارض، توفي في باريس. انظر: أوزلم أرسلان، إسماعيل حقي كومولجينلي ونشاطه السياسي.

ـ سيدي، أحوال رُفَقاء دَربِنا في الكفاح والنضال هنا مُزرِية جدًّا، حتى إنّ أحدهم لا يجد ما يُقِيم به أَوَدَه.

وأخذ في التحايل والتمثيل والتباكي أمام السلطان، فأشفق عليه وتألَّم لمقاله، وقد أفضى إليّ السلطان بدخيلة نفسه، فقال:

ـ أتى إليّ كومولجينَلي وتحرَّق حسرةً وتلوَّى ألمًا أمامي، فتفتَّت كبدي؛ لِـما أطلعني عليه من سوء أحوال بعض إخواننا هنا، فنسيت هَمِّي وقِلَّةَ ذات يدي، وأعطيته ٥٠٠ قطعة ذهبية كانت كلَّ ما لديَّ.

فقلت للسلطان: عفا الله عنكم يا سيدي، ماذا فعلتم؟!

فأجابني: ماذا عساي أن أفعل يا شيخ الإسلام؟ والله قد أطلَعَني على أحوال لم أُطِق إزاءها صبرًا.

عزيزي حمدي بك، من المعلوم لديكم قلة ذات يد السلطان، فلا مال لديه، بل هو في أمَسِّ الحاجة الآن، فلا تألُ جهدًا في بَذْلِ كلِّ ما تستطيع لاسترداد هذا المال من إسماعيل كومولجينَلي.

الصديق وقت الضيق:

وقد حمل حمدي بك هذه المهمة على كاهله محمل الجد دون تفريط، وبدأ البحث عن كومولجينَلي في فيينا، فالتقيا ـ وقد كانا سابقًا صديقَين حميمَين في الحزب ـ وبعد التحية والعِناق بَثَّه كومولجينلي أشواقه قائلًا:

ـ أين رَمَت بك الأيام يا أحمد حمدي بك؟ اجلس بنا نتحدث يا صديق الأيام السوداء.

فقال حمدي بك:

ـ والله قد دارت الدنيا، وصار دورك الآن لتكون صديقي في هذه الأيام

السـوداء، فليس لدي ما أسـتعين به على النزول في فندق، بل وليس لديَّ ما أقتات به حتى.

ـ لا تقلق يا رجل، تنام في غرفتي.

ـ هل لديك مكان؟

ـ يا رجل، في غرفتي سريران.

ثم تابع حمدي بك قصَّ الحادثة:

ـ ذهبنا إلى الفندق معًا، فإذا به مكانٌ فاخر... وتناولنا الطعام في مطعم الفندق بين عِلية القوم، ثم صعدنا إلى الغرفة.

۞ والله لأُطلِقَنّ عليك الرصاص:

يتابع حمدي بك حديثه، فيقول: وأخذت أتنقَّل في الحديث بُغية أن ألِج في الموضوع حتى أستَشِفَّ من ردّة فعلِه إن كان سيُقِرُّ بالمال أم لا، فصارحني قائلًا:

ـ تشرَّفْت قبل أيّام بزيارة مولانا السلطان المعظَّم، وأفضَيتُ له بهموم وآلام كثيرة، يا له من رجل نبيل أصيل! لم يَقوَ على التحمُّل، ففاض بخيره عليَّ.

ـ يا رجل، وكيف لك أن تفعل هذا؟ ما أعرفه أنّ السلطان في حاجة ماسّة.

ـ لا تقلق يا عزيزي، هذا السلطان لا بد أنه سـيجد مخرجًا مما ألَمَّ به، وهل تظنُّ أنّ الخليفة بجلالته وعظمته سـيموت جوعًا أو يظل عاريًا؟ ثم إنّ حولَنا كثيرًا من أصدقائنا قعدَت بهم الحاجة واستبَدَّت بهم الفاقة.

يقول حمدي بك: جُلتُ ببصري في المـكان، فكأنما وقعت على المال في زاوية من زوايا الغرفة، وأدركت أنه لم يكن يحمل سلاحًا، وحتى لو كان يحمل فلا بد من استعادة المال، لا حلَّ آخر.

قلت له:

ـ كومولجينلي، وكيف لِجَفْني أن يزوره النوم هذه الليلة؟

ـ ماذا حدث يا رجل؟

ـ ولا تعرف ماذا حدث! ماذا سيحدث أكثر من هذا؟ يا أخي، لقد سرقتَ السلطان، لمن ستعطي كلَّ هذا المال؟

ـ آه! لو تعرف يا حمدي بك! لدينا إخوة لا يجدون ما يقيم صُلبَهم، حتى الخبز صار نعيمًا لا يَحظَون به.

وشعرت أن كومولجينلي بدأ يتلبَّس دور المتباكي ليستدرَّ عطفي على أحوال أصدقائه، فما كان مني إلا أن أخرجت المسدس وسألته عن المال.

فقال مذعورًا:

ـ والله لم أُنفِق منه إلا عشر قطع ذهبية، والبقية ما زالت هنا.

فقلت له:

ـ والله إما أن تُسلِّمني النقود، وإلا نظَّفتُ الدنيا من قذارتك بهذا السلاح.

ـ ماذا أصابك يا رجل؟ هل أنت مجنون!

ـ نعم مجنون، فقرِّر الآن.

فما كان منه إلا أن سلَّمَني المال، فأخذته، وقدَّمته لشيخ الإسلام في تلك الليلة.

وتوجَّها في اليوم التالي لزيارة السلطان معًا، وأعادا إليه المال، وسلَّماهُ إلى مدير نفقاتِ السلطان.

* * *

بعض مَبَرّات حمدي بك

لم يَبقَ أحمد حمدي طوبّاش بعذ هذه الحادثة في فيينا تخوُّفًا مما قد يرتكبه كومولجينلي من حماقات، فعاد سالِكًا سُبلًا غير معتادة.

وقد اقشعرَّت جلودنا في هذه الليلة مما سمِعنا عن تلك الحادثة من أفواه هذَين الرجلَين اللذَين عايشـاها، وذكر مصطفى صبري أفندي طرفًا آخر من فضل حمدي بك، فقال:

- حمدي بك، أسـمع الكثير عن إحسـانكم ومَبَرّاتكم، أنتم أهـل إيثـار وتضحية، وما قدَّمتُمـوه لزين العابدين أفندي في غربته آخِرَ حياته لا يُنسـى، وهنيئًا لكم بما نالكم من دعواته جزاءَ بِرِّكم به، وكذلك لا أنسى إنقاذكم أموال السلطان من يد سارقها وإعادتها إليه.

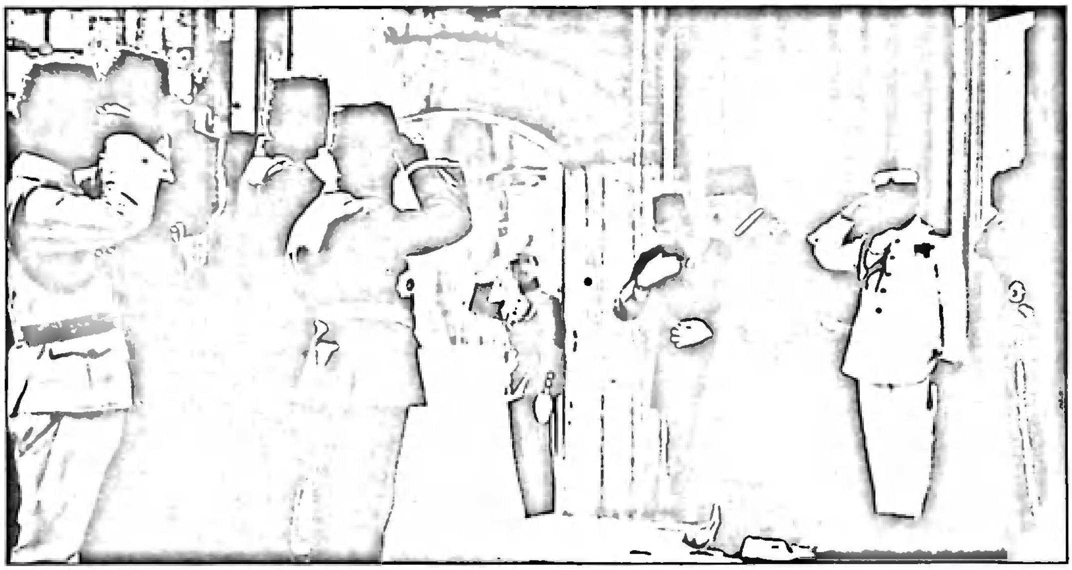
وفوجئنا آنذاك لمـا عرفنا أنّ حمدي طُوبّاش بـك كان يتفقد زيـن العابدين أفندي ويَرعَى أحوالَه لسنوات طويلة بعد نفيه من البلاد.



▲ السلطان وحيد الدين

معاناة السلطان وحيد الدين:

لم يكن يخفى علينا ما كان يطفو على ملامح شيخ الإسـلام وكلماتِه من علائم تأثُّـره وحُزنِه عند ذِكر ما نزل بالسـلطان وحيد الدين من مصائب في أيامه الأخيرة، حيث قال:



▲ السلطان وحيد الدين أثناء مغادرته إستانبول إلى المنفى

- يا بني، لم يكن لدى السلطان مالٌ، فهو لم يأخذ معه شيئًا من خزينة الدولة، بل أعاد ما كان في يده ومضى، وقد عُثِر لاحقًا على إيصالات الإعادة هذه، ولو أنّه أخذ معه بعض المجوهرات التي كانت في حوزته وخرج بها لاستغنى هو وأبناؤه طيلة حياتهم، فهذه هي عظمة الدولة العثمانية وجلالُها كما ترى، ولعل الناظر في سيرة مَن جاء بعدَهم سيدرك جيدًا البَون الشاسع بينهما، بل إن المقايسة بين الجهتَين لا تصح أصلًا، على كل حال.

كانت عائلة السلطان كبيرة، وكان قد هدَّه المرض، وكان عليه أن يدفع مصاريف العلاج والأطباء، ناهيك عمن كان يتطفَّل عليه مثل هذا الظالم الذي سرق أموال السلطان البريء المظلوم وهو في أمَسِّ الحاجة لكل ليرة منها، لهذا السبب أُجِلُّ وأَوَدُّ حمدي طوبّاش بك.

وللأسف الشديد، لم تسعفني الظروف أن أكون إلى جانب السلطان في لحظات وفاته؛ حيث كنت في رومانيا، وما تمكّنوا من دفن جنازته إلا بجمع

مساعدات من بعض المسلمين، حتى كاد الدائنون أن يمنعوا دفن الجنازة، يا لها من حوادث مؤلمة تبعث في النفس الأسى!



▲ إحسان أفندي اليوزغاتي

فضل عائلة طُوبّاش:

كان إحسان أفندي[1] أيضًا يُكِنُّ لعائلة طُوبّاش محبةً ووُدًا عظيمين، وكان كثير الدعاء لهم، فقد قال لنا مرة:

ـ أحمد حمدي طوبّاش وعائلته وأبناؤه السادة نوري وخلوصي ومُعَمَّر وموسى[2]

(١) محمد إحسان بن عبد العزيز أفندي (١٩٠٢ ـ ١٩٦١) عالم دين ومدرسٌ للأدب التركي، وُلد في مدينة يوزغات، تلقَّى تعليمه في مدينته حتى أجازه شيوخه، ثم انتقل إلى إستانبول، وفي عام ١٩٢٤ هاجَر إلى القاهرة، وتابَعَ دراسته في الأزهر، وقرأ على كبار علمائها مثل المفتي الشهير محمد بخيت المطيعي، واللغوي والأديب سيد علي المرصفي وأجازوه، ثم عمل بين عامَي ١٩٣٧ ـ ١٩٥٩ أستاذًا ومديرًا في مدرسة السلطان محمود التي بناها محمود الأول في القاهرة، وبين عامَي ١٩٣٥ ـ ١٩٥٢ عمل مترجمًا للملك وكبير الخبراء في الأرشيف التركي لقصر عابدين، عَرضت عليه الحكومةُ التركية في فترة الحزب الديمقراطي العودة لتركيا وتولِّي رئاسة الشؤون الدينية، ولكنه رفض، وآثر البقاء في مصر التي دُفن فيها، ومن طلابه الوافدين ـ وخاصة الأتراك الذين استفادوا منه في القاهرة ـ إسماعيل الأزهري، وعلي يعقوب جنكجيلر، ومصطفى زُنيون، وعلي علوي كورجو، وأمين سراج، وعلي أوزيك، وغيرهم كثير، وهو والد المؤرخ أكمل الدين إحسان أوغلو. انظر: موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة محمد إحسان أفندي (٢٨: ٤٩٠).

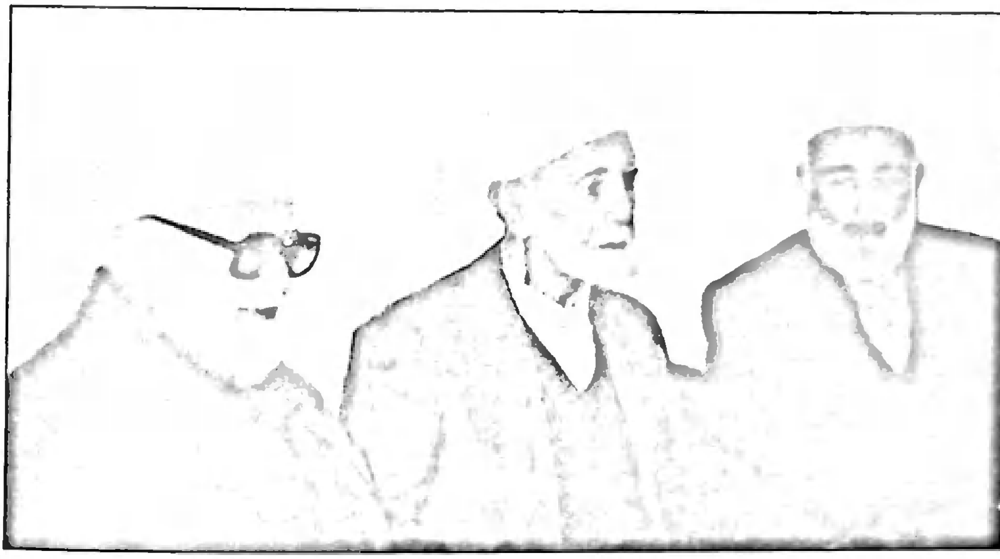
(٢) موسى بن أحمد حمدي طوبّاش (١٩١٧ ـ ١٩٩٩) شيخ الطريقة النقشبندية في أسكودار بإستانبول، ومؤسس وقف عزيز محمود هدائي لرعاية طلبة العلم والفقراء، ولد في قونية لعائلةٍ تشتغل بالتجارة وتنتسب للعلم والتصوف، وانتقل مع عائلته إلى إستانبول في السنة التي ولد فيها، فالتحق بدايةً بالمدرسة الرسمية، ولكنه بحرص من والده تلقى تفسير القرآن =



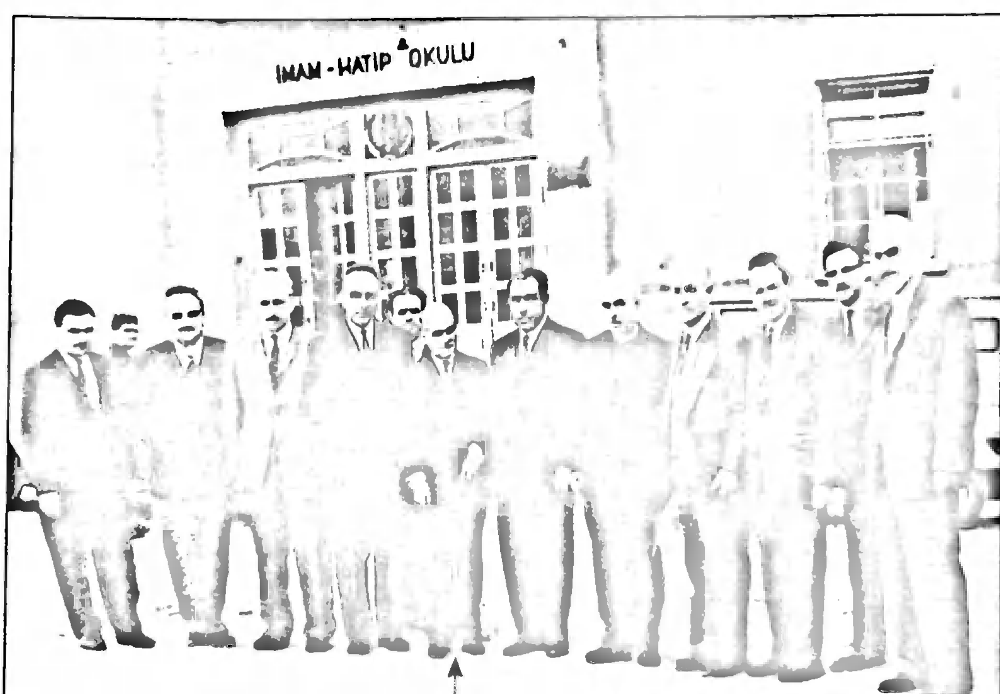
▲ موسى بن أحمد حمدي طوباش
شيخ الطريقة النقشبندية

وعابدين، عائلة أصابت حظًّا وافرًا من دعوات المستضعَفين والصالحين، ومن الصعب أن تقع عينك على عائلة مثلها في فضلها وطُهرها وإنفاقها وصلاحها، عائلةٌ عاشت في سبيل الله رجالًا ونساءً، صغارًا وكبارًا، نعم، هناك العديد من العائلات الأصيلة، لكن قَلَّ أن تستمر عائلةٌ في أعمال البِرِّ وخدمة الدعوة والتربية الإسلامية دون أن يعتريها الفتور والانقطاع، أما عائلة طوبّاش فما زالوا يَغُذُّون السير في هذا الطريق، وهؤلاء أناسٌ - في حين يحرص غيرهم على السفر إلى أوروبا - تراهم يحبون زيارة الحجاز والحرمين الشريفين ويأتونهما سنويًا.

= على المفسر الشهير محمد حمدي إلماليلي، والعربية على أحمد عاصم يوريك، والحديث على طاهر المولوي وأحمد نعيم بابان زادة، ودرس الفقه على عمر نصوحي بيلمان وعلي يكتا سراج وغيرهم من العلماء، ولزم سعيد النورسي في الخمسينيات، إلى جانب اشتغاله مع والده وإخوته بتجارة الأقمشة، وفي عام ١٩٥٦ انتسب إلى الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو شيخ الطريقة النقشبندية ولزمه إلى أن خلفه في مشيخة الطريقة عام ١٩٨٤، وكان له دور مهم مع إخوته وأفراد عائلة طوباش في إنشاء مؤسسات خيرية ترعى طلبة العلم والفقراء، إضافة إلى دورهم في دعم مدارس الأئمة والخطباء عند نشأتها، وأنشأ مع بعضِ أفراد العائلة وقف عزيز محمود هدائي التي توسعت أعماله في قارات العالم وما زال مستمرا إلى الآن، وبعد وفاة الشيخ خلفه في مهامه ابنه شيخ الطريقة النقشبندية عثمان نوري طوباش. انظر: نجدت طوسون، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة موسى طوباش (٤١: ٢٤٨).



▲ موسى طوباش وإلى شماله شيخ قراء إستانبول عبد الرحمن جورسيس، ثم العلامة محمد أمين سراج؛ مدرس جامع الفاتح وأحد طلاب الشيخين الكوثري وصبري أفندي



▲ موسى طوباش مع أعضاء مجلس إدارة مدارس الأئمة والخطباء في بداياتها الأولى

❀ إحسان السيد نوري والسيد خلوصي وعطاؤهما:

في حوالي سنة ١٩٤٤ تقريبًا وفد السيد نوري والسيد خلوصي أبناء أحمد حمدي طوبّاش إلى الحجاز بقصد الحج، وفي طريق عودتهما مرّا بالقاهرة، والتقَيا بإحسان أفندي، ولما رأيا إحسان أفندي يشتغل بتدريس الطلبة فرحا بذلك أيّما فرح، وقالا له:

ـ يا سيدي، لم يبقَ في ديارنا مَن يُعلِّم الطلاب ويعتني بهم، فنرجو من الله أن يرجع هؤلاء الطلبة إلى ديارهم حتى يخدموا أهلها.

ولم نكن نعلم أنهما أبديا لإحسان أفندي حرصهما على مساعدته فيما وقَف نفسَه عليه من خدمة الطلبة وتعليمهم، فأجابهم إحسان أفندي:

ـ رضي الله عنكم يا سادة، وبارك فيكم، الحمد لله، لديَّ معاشٌ يسُدُّ حاجتي، لكن لو كانت لديكم هذه الرغبة في المساعدة فبعض الطلبة ممن أستبشر بهم خيرًا لمستقبل البلاد وخدمة أهلها وإحياء الدين فيها أحوج إلى هذه المساعدة مني، فتستطيعون مدَّ يد العون إليهم. فقالا:

ـ إذن نُعيِّن للشباب معاشات شهرية حتى يتفرَّغوا لتحصيلهم العلمي على أحسن وجه.

وقد فعلا، ورحم الله إحسان أفندي؛ كان أبًا يُؤْثِر طلابَه على نفسه.

❀ ❀ ❀

مصطفى صبري أفندي في اليونان

إبراهيم تيمو يبيع بيت مصطفى صبري أفندي:



▲ إبراهيم تيمو

لقد أصاب مصطفى صبري أفندي وعائلتَه في غربتهم ما يُمزِّق الأكباد ويحرق الفؤاد، وكان من محاسن الأستاذ رَحِمَهُ اللهُ أنه يحكي ما أصابه وألمَّ به من وقائع دون تَشَكٍّ أو تذمُّر، ويقول دائمًا: ما باليد حيلة، هذا قدَر الله.

وكانت زوجة الشيخ مصطفى ابنة وكيل شيخ الإسلام عاصم أفندي[1]، وتنتسب لعائلة ثرية، وقد كان لها حُلِيٌّ وزينة، فباعا قسطًا منها واشتريا بيتًا في رومانيا، ثم يقصُّ الأستاذ الحادثة على النحو الآتي:

(١) أحمد عاصم بن محمد أفندي (١٨٣٦ ـ ١٩١١): وُلد في كومولجينه باليونان لعائلة علمية، فكان والده مدرِّسًا في مدرسة المنطقة، بعد أن تلقى تعليمه الأوَّلي في قريته انتقل إلى إستانبول عام ١٨٤٦، واستمر بالدراسة في مدارسها العالية حتى عُيِّن مدرِّسًا في جامع الفاتح، ثم نجح في امتحان الفتوى، ثم عُيِّن ضمن هيئة المدرسين الذين يُلقون الدروس في حضرة السلطان، فدرَّس في حضرة السلطان عبد العزيز، ثم عُين عضوًا في مجلس التدقيق الشرعي، وترقى في المناصب والوظائف الدينية في إستانبول حتى وصل إلى رتبة قاضي عسكر الروملي عام ١٨٩٤، وبقي في منصبه إلى أن استقال من كل وظائفه عام ١٩٠٦، واعتزل في داره إلى وفاته، تزوج ابنته الكبرى علوية هانم الشيخُ مصطفى صبري أفندي. انظر: نهاد إنجين، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة أحمد عاصم كومولجينلي (٢: ٤٤).

ـ لم يَرُق لنا المقام طويلًا في رومانيا، فلا نعرف فيها أحدًا، ومسلِموها قليلون، فعزمنا على الذهاب إلى اليونان، حيث إن مجتمعها أنسَب لنا، ونستطيع الاشتغال فيها بالتعليم والصحافة وغيرهما من الأعمال، ولعلنا نُفلح في إيصال كلمتنا عبر الصحافة والكتابة إلى داخل تركيا.

ـ فأجَّرنا البيت، وبعث السرور فينا أننا على الأقل نكتسب من هذا الإيجار ما يسدُّ رَمَقنا، ولكن لم يكن هناك من نعرفه في رومانيا، غير الدكتور إبراهيم تيمو[1]، وكان من قدماء الاتحاديين، ثم عارضهم فهرب، وكسب ثقتنا، فوكَّلته، وقلت له: حصِّلوا الإيجار وخُذوا عُشرَه، وأرسِلوا لنا الباقي.

فأرسل لنا النقود مدةً من الزمن، وكنا ننتفع بها غاية الانتفاع، ونستعين على الحياة، وأصدرنا مجلةً نصف شهرية، ولكن بعد فترة انقطعت الأجرة، ولم يَصِلنا شيء، فطلبنا ممن يسافر إلى رومانيا أن ينظر في الأمر، فذهب وتتبَّع حال البيت، حتى قيل له: إنه قد بِيع.

لكن كيف يُباع البيت؟ أيُعقَل مثل هذا؟! وإذ بتيمو هذا قد زوَّر توقيعي، وبالتواطؤ مع القنصل التركي هناك وتصديقه على التوقيع المزوَّر نَفَذ البيعُ، وقد ضاع هذا المبنى الكبير من أيدينا بعد أن كان وسيلَتنا في المعاش.

---

(١) إبراهيم أدهم بن مراد بك تيمو (١٨٦٥ ـ ١٩٤٥): سياسي وطبيب عثماني، من أصل ألباني، وُلد في ولاية مانستر، وتلقى فيها تعليمه الأساسي وتعلَّم اللغات العربية والتركية والفرنسية، ثم سافر إلى إستانبول عام ١٨٨٤، ودرس فيها الطب، وتأثر بالفلسفات الغربية الحديثة، مثل الداروينية، وشارك في الجمعيات السياسية السرية الناشطة في إستانبول، واعتُقل عدة مرات بسبب نشاطه السري، وكان أحد مؤسِّسي جمعية الاتحاد والترقي، ثم عارضهم، وأسَّس الحزب الديمقراطي العثماني، ولكنه لم يلبَث أن هاجر من تركيا واستقر في رومانيا عام ١٩١١، وبقي فيها إلى أن توفي. انظر: محمد شكري خاني أوغلو، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة إبراهيم تيمو (٢١: ٣٥٤).

مفتي كومولجينة نوزاد أفندي:

كان مصطفى صبري أفندي حين يعرض لذكرياته في اليونان يذكر المفتي العام في كومولجينة نوزاد أفندي بثناء عَطِر، وكان يبدأ الكلام عنه بقوله:

ـ قد يعدل رجلٌ أمة.

ثم يقص علينا بعض ذكرياته معه، فمما قاله فيه:

ـ فرض المفتي احترامَه على حكومة اليونان، فما كانت تجرؤ على إجباره أو إلجائه لشيء، وكان له على المسلمين تأثير جليٌّ لا تُخطئه العين، فالتقينا معه، وأخبرناه بعزمنا على إصدار مجلة وفق منهج كذا وكذا، فسارَع للقبول، وبَذَل كلَّ ما بُوسعه لمساعدتنا، فسعى لنا في دارٍ نسكنها، وللمجلة في مكان نؤسِّسها فيه.

ـ فشرعنا بإصدار مجلة يارين (الغد)[1]، وبفضله تمكّنّا من الاستمرار في إخراجها، وكان السيد المفتي يُهرِّب المجلة إلى تركيا بواسطة الفلاحين والقرويين على الحدود، ويرسلها كذلك إلى البوسنة والهرسك، وكان رجلًا غيورًا لا تفتُر له همةٌ، ولا يُفَلُّ له عزم.

وأما الحكومة التركية فقد انزعجت من دخول مجلة الغد وقراءتها، وتلقُّف الأيدي لها، وضاقت ذَرْعًا بانتقاداتنا، فأجرَت في هذا الخصوص محادثات مع الحكومة اليونانية.

---

(١) جريدة إسلامية فكرية مستقلة، نصف شهرية، أسسها مصطفى صبري أفندي بمساعدة ابنه إبراهيم في اليونان، صدر عددها الأول يوم الجمعة ٢٢ ـ ٠٧ ـ ١٩٢٧، اتخذ صبري أفندي الجريدة منبرًا لنقد سياسات حكومة مصطفى كمال العلمانية في تركيا، وكانت تهدف للدفاع عن وجه تركيا الإسلامي، وكانت الجريدة تصدر في أربع صفحات كبيرة، واستمر صدورها إلى العدد ٧٠ الصادر يوم الجمعة ٠٥ ـ ٠٩ ـ ١٩٣٠. انظر: مفرح بن سليمان القوسي، مصطفى صبري أفندي المفكر الإسلامي والعالم العالمي وشيخ الإسلام في الدولة العثمانية سابقًا ص٣٤٩.



صفحة من مجلة الغد التي أصدرها مصطفى صبري أفندي في اليونان

الرقابة في عصر السلطان عبد الحميد الثاني



▲ السلطان عبد الحميد الثاني



▲ السلطان عبد الحميد الثاني عند توليه العرش

كان مصطفى صبري أفندي رجلًا مجبولًا على النضال والكفاح، لا ينام على ضَيم، ولا يرضى بجَور، ولا يخشى في الدفاع عما يعتقده الحقَّ لومةَ لائم، ولا يتردَّد في إظهار فكره أمام أحد.

وكان مما يأخذه على عصر السلطان عبد الحميد ويشتكي منه تضييق الحريات، يقول:

- حتى الحرية العلمية لم نكن نتمتع بها، فمثلًا كتب السيد نعيم مقالة يدافع فيها عن المذهب الشافعي، ويُفضّله على غيره من المذاهب، وزعم فيها أن المذهب الشافعي أقوى في التأصيل العلمي، وأكثر توافُقًا وانسجامًا مع الأحاديث الشريفة.

فسطَّر صبري أفندي بقلمه مقالة يرد فيها على مقالة السيد نعيم، ولكن حالت الرقابة دون السماح بنشرها آنذاك، واعتذروا للمنع بقولهم:

ـ إن مثل هذه النقاشات قد تبثُّ التفرقة، وتزرع بذور الخلافات بين الأمة المحمدية.

وتأسَّف الأستاذ لذلك، ورأى تدخل الدولة في مسألة علمية صِرف كهذه شكلًا صارخًا من أشكال الاستبداد في ذلك الزمان، فقال:

ـ كنت في هذه المقالة أنفض الغبار عن حقيقة مهمة حول نشأة الإمام الأعظم أبي حنيفة وطلابه الإمام محمد والإمام أبي يوسف والإمام زُفَر، وتكوينهم العلمي، ونجاح أبي حنيفة في صياغة طلابه كأكاديمية علمية رصينة، وفي حل مسائل الدولة والمجتمع التي تراكمت إلى عصره، ولكن لم تأذَن الرقابة آنذاك بنشرها!

* * *

الائتلافيون والاتحاديون .. وجهان لعملة واحدة

بعد إجبار السلطان عبد الحميد الثاني على إعلان المشروطية الثانية، وإطلاق الحريات، فرح الجميع وصفَّقوا للعصر الجديد، وبدؤوا ينتظرون تأسيس مجلس الشورى العلمي، وظنوا أن قضايا الدولة سيُرجَع في حلّها إلى العلماء والفضلاء وأهل الخبرة من رجال الدولة والدين، وليس إلى مَن لا حظَّ له من العلم والتجربة، وأن الكلمة الفصل ستكون لأرباب الحلِّ والعقد، وذوي الباع الطويل في تجارب الحياة وتقلُّباتها.

ولكن الأمور خرجت عن السيطرة، وتحوَّلَت الحرية طغيانًا جارفًا، وبعد أن كانت جهود الجميع مُنصَبّةً على البحث عن الحق والخير، وإرساء قواعدهما ونشرهما على كافة الصُّعُد، امتلأت الساحة بالأحزاب والجماعات والفِرَق المنشغلة بحياكة المؤامرات واقتناص المنافع، وانقلب حالها إلى ما يشبه حلبة صراع أعمى بين العوام والجهلة.

وكان الأستاذ مثل كثيرين غيرِه قد انضم إلى الاتحاديين بدايةً، ولكنه لم يلبث ـ بعد أن رأى أخطاءهم، وعايَن خبيئة ضمائرهم ـ أن التحق بحزب الحرية والائتلاف المعارض، ولكنه يقول بعد أن تكشفت له الحُجُبُ عن الحقيقة المرة:

ـ لاحظنا أنه لا فرق أيضًا بين أعضاء حزبنا والاتحاديين، حيث كان معظمهم تقريبًا مدفوعًا بسائق من طموحاته ومنافعه الشخصية، لقد انضممنا إلى حزب الحرية والائتلاف بنية صادقة؛ لحماية الوطن من شرِّ جمعية الاتحاد والترقي وإفسادها، وظننا وقتها أن الائتلافيين يحملون همَّ إنقاذ الوطن وانتشالِه

من بَراثِن الفساد والفوضى التي زَجَّه فيها الاتحاديون، إلا أننا اكتشفنا لاحقًا أن الاتحاديين والائتلافيين وجهان لعملة واحدة، فكلاهما باع نفسه لجهةٍ تهدف إلى تحقيق مصالحها الخاصة على حساب مصالح الوطن والأمة(١).

۞ الهروب من سطح إلى سطح:

على كل حالٍ، قد كان مـا كان مما جرت به الأقدار، وواجه الشـيخُ الاتحاديين كاشفًا سوءاتهم، فأصابته جراء ذلك سياط ظلمهم، ودفع ضريبة معارضته لهم، وخروجه عليهم وانتقاده إياهم، ويصف شـيخ الإسلام هذه المرحلة بقوله:

- في ذات يوم من الأيام تنامَى إليّ خبر عزم الاتحاديين على اقتحام بيتي واعتقالي، فطُرِق الباب بعد العشاء، وكانت ليلةً مطيرة، كنا وقتها نسكن في حي چهارشمبه من منطقة الفاتح، وكنت على أُهبة الاستعداد.

فتحَت ابنتي الصغيرة الباب، فبادرها القادمون بالسؤال عني، فأجابتهم:

- والدي ليس في البيت.

فقالوا:

- يا ابنتي، والدك دخل البيت بعد العصر ولم يخرج أبدًا، فنحن كنا نترصَّد البيت ونعرف الداخل والخارج، لكن ربمـا أنتِ لم تريه، ابحثي في كل زوايا البيت جيدًا.

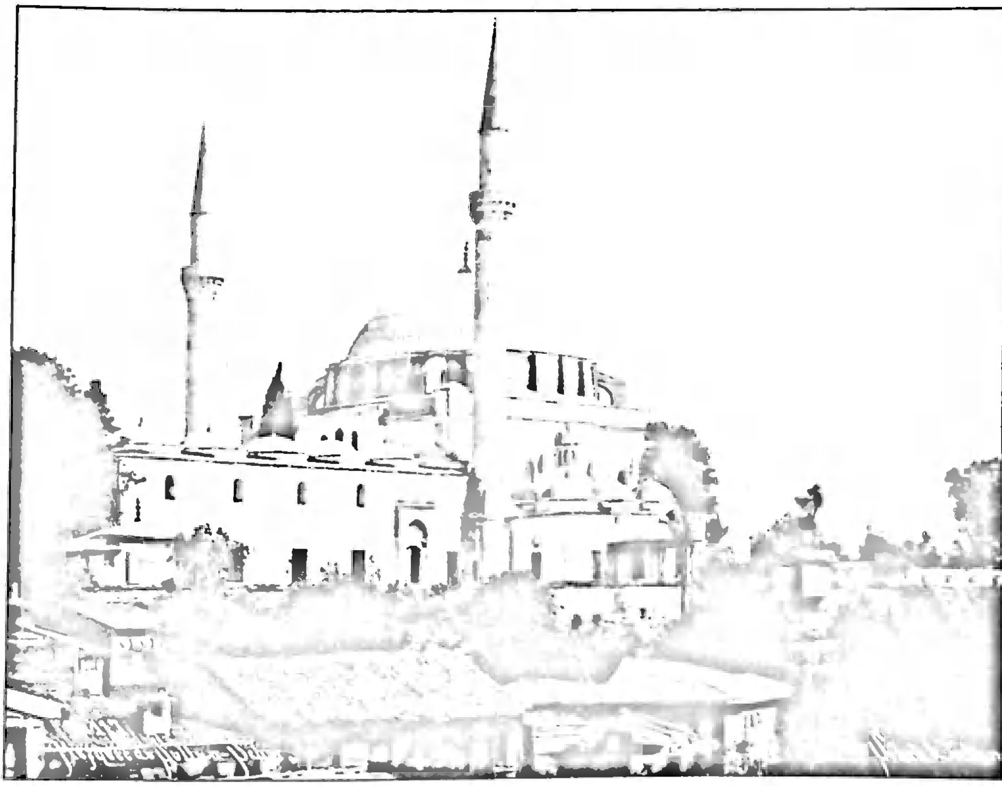
ولم يدخلوا البيت، فصعدت فورًا إلى السـطح بمسـاعدة أهلي وابنتي الكبرى، وكان خلف المنزل مخزنٌ لتاجر أخشـاب قد امتلأ فناؤه بالبضاعة، وكان يقيم فيه عادةً حارس.

---

(١) أورد علي علوي الفقرة الأخيرة في موضع آخر من ذكرياته. انظر: المذكرات (١: ٢٨٩).



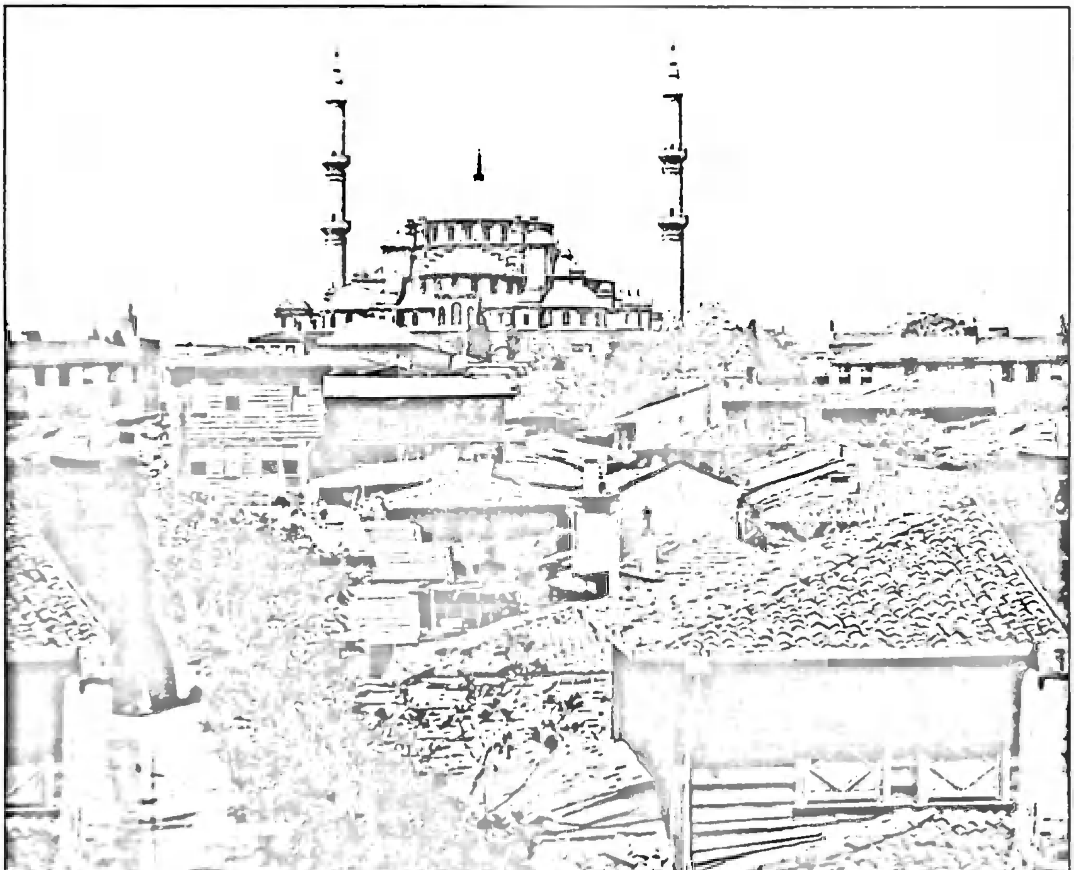
صورة شارع في حي جهارشمبه أمام جامع شيخ الإسلام إسماعيل أفندي



صورة لطرف من حي جهارشمبه ويظهر فيها جامع السلطان سليم الأول

ولما كررَت ابنتي الجواب نفسه للقادمين: والدي ليس في البيت، دخلوا البيت فورًا، وأخذوا يبحثون عني في كل زواياه، لكن لم يخطر في عقلهم أن يُفتِّشــوا الســطح، ورأيتهم يخرجون من البيت، إلا أني لم أرَ من المناسب النزول إلى البيت مباشرة.

فقفزت إلى ســطح البناء المجاور، وكانت فيه مدخنة واسعة لم تَسْوَدَّ بدخان بعدُ، ففتحتها ونزلت فيها، فما كِدت أبلغ منتصفها حتى سقطتُ على الأرض.



▲ صورة لطرف آخر من حي جهارشمبه، ويظهر في نهايتها جامع السلطان محمد الفاتح

۞ كم ساعة في الليل؟

يتابع شيخ الإسـلام حديثه قائلًا: عند سـقوطي من المدخنة على أرض المخزن فزع الحارس الشابُّ من صوت طقطقة الخشب وتكسُّره، فهرع إلى المصباح يشعل فتيله الذي شقَّ الظلام بضوئه الخافت، وأخذ الحارس يتطلَّع يمنة ويسـرة يتعرَّف ماذا جرى حوله، ولما وقعَت عينه عليَّ حَملَق إليَّ فلم يعرفني، وبدأ يصرخ، فقلت له:

ـ لا تخَف يا ولدي، أنا جاركم الشيخ مصطفى، لا تصرخ، ولكن عبثًا حاولت تهدئته، فصرخ قائلًا:

ـ أيًّا تكن، اخرج من الغرفة حالًا، لا بد أنك تهرب من شيء ما، فلا تفتح عليَّ باب المصائب.

وأخرجني الشاب من الغرفة والمطر يهطل، فقلت في نفسي:

ـ يا الله! ماذا فعلت بنفسي، من أين أصابني كل هذا؟

على كل حال وجدت فُرجة بين الأخشاب فتواريت فيها أنتظر أذان الفجر حتى يخرج الناس إلى الشـارع فأخرج وأغيب في زحامهم، فقد كنت أخمِّن أنهم لا بد قد تركوا خلفهم من يتعقَّبني الآن.

يا لطول الليالي! وكم قيل فيها من أدبٍ يفيض عبرة، ولكن المرء لا يفهمها إلا إذا أصيب بها، وكان مما خطر على بالي في تلك الساعات قول أحد الشعراء:

لا يعرف قِصَر الليالي ولا طولها أولئك المنجمون الذين يرقبون النجوم لحساب الأوقات،

هم يكتفون بالقول: عدد الساعات كذا، ثم يذهبون وينامون،

ولكن اسأل عن عدد ساعات الليالي مَن ابتُلي،

أو مرض أو هرب أو اختفى أو حُبس.

فلا يدري بالأهوال إلا من يقاسيها.

❀ الهروب إلى رومانيا:

قضيت تلك الليلة تحت الأخشاب والأشجار، إلى أن شقت خيوط الفجر حُلكة الليل الدّامِس، فأخذ يترامى إلى سمعي وقعُ الأقدام في الزُّقاق، ففتحت باب الفناء الخارجي، واندفعت أمشي في الشارع، وكان طلابي يسكنون في مدرسة قريبة فذهبت إليهم، وبادرت بالوضوء، وأديت الصلاة، وبقيت هناك أسبوعًا.

ثم أرسلت أحدهم إلى البيت يُطمْئِن العائلة عني، وطلبت منهم أن يتركوا عند صديق بَقّال ـ آمَنُه وأثِق به ـ بعض الملابس حتى آخُذها منه.

وبعد مُضِيّ أسبوع استطلعت الأمر، فوجدتُ أنهم ما زالوا يجِدُّون في البحث عني، وقد اعتقلوا الكثير من المعارضين، فاستقرَّ في رأيي أني لن أستطيع البقاء في تركيا.

اشتريت ـ بمساعدة جارٍ لنا تاجرٍ ـ تذكرة سفر على متن إحدى البواخر المبحرة إلى رومانيا، وعندما حان وقت السفر نزلت إلى شاطئ البحر سرًّا، وركبت أحد القوارب الراسية على جانب الشاطئ، فأوصلني إلى الباخرة، وتحسبًا لأي تفتيش مفاجئ قد تتعرض له الباخرة نزلت إلى مخزن الفحم، واختبأت فيه كما كنا اتفقنا مع القبطان من قبلُ.

وبعد أن أبحَرَت السفينة بعيدًا عن الشاطئ، وخرجنا من المياه الإقليمية التركية، لبست ملابسي ووضعت عمامتي، ثم صعدت على سطح الباخرة.



▲ محمود أسعد أفندي

وفي حينها كان ملك رومانيا كارول قد أنشــأ جامعًا في بوخارســت، وكانت على متن الباخرة لجنةٌ تسافر من إستانبول للمشــاركة في افتتاح الجامــع، كان فيها محمود أســعد أفنــدي(1)، والقارئ علي أفندي (١٨٨٥ ـ ١٩٧٦) إمام جامع يَرآلتي، وعلمت أن محمود أفندي سـيُلقي كلمة بالفرنســية فــي الافتتاح، وعلــي أفندي سيتلو القرآن.

وعندما رآياني في الباخرة ظنّا أني من اللجنة أيضًا، وتعجَّبا كيف لم نلتقِ في المرفأ، إلا أني تجاهَلتُ الأمر.

---

(١) محمود أسعد أفندي (١٨٥٦ ـ ١٩١٨) عالم وحقوقي ورجل دولة عثماني، وُلد في قضاء سيد شــهير في مدينة قونية، وتلقى فيها تعليمه الأساســي، ثم انتقل إلى إســتانبول عام ١٨٧٠ لمتابعة تعليمه العالــي، فأخذ عن كبار علمائها، مثل عبد الكريم الباســانلي في مدرســة الفاتح، وبدأ حياته التعليمية في مدرســة جولهانــة عام ١٨٧٩، ثم اجتاز امتحان مشــيخة الإسلام، فعُيِّن مدرِّســا عامًا عام ١٨٨١، والتحق بالمدرسة العســكرية للاطلاع على العلوم العصرية، ثم تابع دراسته في الكلية الحربية، ودخل امتحان الرياضيات العالية ونجح فيها عام ١٨٨٤، وكان في الوقت نفســه قد التحق بكلية الحقوق عــام ١٨٨٠، وتخرج فيها عام ١٨٨٦، ثم مارس المحاماة إلــى أن عُيِّن رئيس محكمة إزمير، ودرَّس فــي ثانويتها العلوم الحديثة، ثم عاد إلى إســتانبول، وعُيِّن مستشــارًا قانونيًا لوزارة المالية عام ١٨٩٦، ودرَّس الاقتصاد والقانون الدولي في المدرسة الملكية وكلية الحقوق في إستانبول، وفي عام ١٩٠٩ عُيِّن مفتشــا لوزارة المالية، ثم وزيرًا للمالية، وكان من اللجنة التي أعــدَّت قانون العائلة العثماني عام ١٩١٧، وأتقن بجهوده الذاتية اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وترجم عنها إلى التركية كتبًا مهمة، وترك آثارًا علمية كثيرة. انظر: علي أردوغدو، موسوعة شؤون الديانة، مادة سيد شهري (٣٧: ٢٥).

❁ ماذا قصد أسعد أفندي؟

بدأنا نتجاذب أطراف الحديث مع الأستاذ أسعد أفندي، وكان رجلًا عالِمًا، قد خَبر العالم، وعرف الدنيا جيدًا، ويُتقِن عدة لغاتٍ، فتوجهت إليه سائلًا:

ـ فضيلة أستاذنا الجليل، لماذا لا تطلبون مقام مشيخة الإسلام؟ فأنتم أهل علم، ومعرفتكم بالعالم من حولنا أكثر منّا، وكما ترون، فمع أني من المشتغلين بالعلم الشرعي اجتهدت في أن أكون نائبًا في البرلمان لأخدم البلاد.

فأجابني بجواب مُبَطَّن، يحتمل معنى إيجابيًا وآخر سلبيًا:

ـ هذه ليست بوظيفة مستقرة.

فهل قصد بجوابه هذا أن الأمور مضطربةٌ الآن بسبب تدخل السياسة في كل شيء، وأن القيام بالخدمة على وجهها الأمثل في هذا المقام العلمي أمر صعب في ظل هذه الظروف؟

أم أنه قصد: أنا رجل أحب الراحة والسكينة، لا أريد أن أعيش في أجواء يسودها القلق والحزن، وإنما أُفضِّل الحياة الرتيبة، فأنام وأستيقظ كلَّ يوم في الوقت نفسه، ولذلك لا أطلب الوظيفة في مثل هذا الزمن المضطرب؟

ولكني في ذلك الوقت تَبادَر إلى فهمي المعنى الثاني، وعاتبت نفسي قائلًا: أيها الأحمق، في الوقت الذي تقول: إنك تريد خدمة وطنك، تجد نفسك بسبب ذلك مُجبَرًا على مقاساة هذه الحياة البائسة، والفرار من وطنك! ولكن لم يسعفني عقلي ـ والبلاد تعيش أسوأ أحوالها ـ أن أفكر في الراحة والسكينة.

❁ المفتي صالح أفندي القِرمي:

يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي: أقمتُ في مدينة بخارست، وكان يعيش فيها التتار المهاجرون من القِرم، وكانوا يعانون الإهمال والحرمان من أيِّ ثقافة دينية في بلادهم، ولكن يرأسهم المفتي العام صالح أفندي، وكان رجلًا حادَّ الذكاء، شديد التَّيقُّظ، صاحب غَيرة دينية، وكنا كثيرًا ما نلتقي، فوجدته شخصية بَزَّت المفتي نوزاد أفندي الذي عرفته في آخر أيام مقامي بكومولجينة.

وبدأت ألقي الدروس على نخبة من الطلاب التتار ممن تتراءى عليهم مخايل النجابة والشغف، فكنا ندرس معهم أصول الفقه والبلاغة، حتى فضيلة المفتي نفسه كان يحضر الدروس معنا، ثم أحضرت أهلي أيضًا، وهكذا بدأت الأمور تسير في مجراها، وكنا في أحسن حال.

ولكن ما لبثت الأحوال أن تغيَّرت بعد احتلال الألمان ـ حليف الأتراك في الحرب العالمية الأولى ـ بخارست، واكتشف الاتحاديون أني هناك، فاعتقلوني، واقتادوني في سيارة عسكرية ليذهبوا بي إلى السجن.

❁ في سجن رومانيا:

ومن فضل الله تعالى أنه بينما كانت السيارة تُقِلُّني إلى المعتقل اتفَق أن التقينا في الطريق بالمفتي صالح أفندي، فجاء مباشرة واستأذن من الجند أن يتكلم معي، قائلًا:

ـ دعوني أتكلم معه بضع كلمات بحق الجوار الذي بيننا.

فشرحت له المسألة، وقلت له أخيرًا:

ـ أستودع الله أولًا، ثم أستودعكم أهلي وعائلتي.



▲ موسى جار الله

واســتطعت بذلك أن أُبلــغ أهلي بما جرى لــي، وأنــي ما زِلــتُ على قيد الحياة، وبالمكان الذي أُقتاد إليه.

وكان صالح أفندي يرجو مني في هذه الأيام أن أكتب نقدًا علميًا حــول الكتاب الذي خَطَّه موســى جار الله أحد علماء قازان[1]، بعنوان «رحمت إلهيــه برهانلــري»: «براهــين الرحمة الإلهية».

وذلك لما أثاره الكتاب من سجالات وصراعات كبيرة بين مسلمي قازان والقرم وروسيا.

---

(١) موســى بن جار الله (١٨٧٥ ـ ١٩٤٩)، شــيخ الإسلام في روســيا قبل الثورة البلشفية، درس العلوم الإسلامية في قازان وبخارى، ثم بدأ بدراسة الهندسة في إستانبول، لكنه لم يلبث أن تركها وتوجَّه للقاهرة، فدرس فيها الفقه والحديث، ثم سافر إلى الحجاز وجاور بمكة ثلاث سنوات، ثم سافر إلى الهند ودمشــق وبيروت، وأتقن العربية والتركية والفارسية، وخلال إقامته في القاهــرة عرف محمد عبده، وأخــذ عنه، وتأثَّر به حتى صار من أعلام مدرســة الإصلاح الحديث، وبعد عودته إلى روسيا عام ١٩٠٤ تولى إمامة الجامع الكبير في لينينغراد، واشتغل بالتدريس والصحافة، وكتب بعض الأفكار التي انتقده فيها شيخ الإسلام مصطفى صبري، مثل: ليس من الصواب الحكــم على دين من الأديان بأنه صــواب أو خطأ، وأن العذاب الدائم في الآخرة ينافي الرحمة الإلهية، وأن مغفرة الله ستشمل الجميع، وغير ذلك من أفكار، وصفه محمد كرد علي في مذكراته بأنه: «من الأفراد الذين لا يُحسِن بهم الدهر على العالم إلا في العصر بعد العصر، وحياتهم من أولها إلى آخرها حافلة بالخير والنفع»، من آثاره باللغة العربية «تاريخ القرآن والمصاحف»، توفي في مصر عام ١٩٤٩. انظر: أحمد قانلي دره، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة موسى جار الله (٣١: ٢١٤).

إلا أنه لم يكن في المدينة مكتبةٌ أرجع إليها لكتابة مثل هذا النقد العلمي، الذي لا يصح أن يُعتَمد فيه على الحفظ والذاكرة فقط، فلا بد من الرجوع إلى كلِّ ما نقله المؤلف في مصادره الأصلية، والتدقيق فيه جملة جملة، فإن وُجِد ما يستدعي التنبيه على مواضع الخطأ والخلل أشرت إليه، أما أن أكتب كتابًا دون مصادر أو مراجع فأمرٌ لا أفعله ولا أحبه، ومع أن صالح أفندي كان يُلِحُّ عليَّ بقولـه: إنّ ما اكتنزتموه مـن العلوم والمعارف فـي ذاكرتكم كافٍ لهذا الأمر، فإني لم أستجب له.

❁ كتاب مَخفِيٌّ في قاع إبريق الوضوء:

بعد دخولي السـجن ألفَيت المكان خاليًا، لا يشغلني فيه أحد، ولم أكن قد عشت مثل هذا الجو من قبل، فوجدته أنسب مكان للتأليف.

ونجح الأستاذ صالح أفندي ـ لأنه مفتي المدينة ـ في استصدار إذن لزيارتي، فكان يزورني ويأتيني بما أحتاجه من ملابس ونحوها، وطلبت منه في هذه الفترة بعض الكتب الضرورية، فبحث عنها هنا وهناك حتى وجدها وأتاني بها.

ومضى عليَّ وقتٌ طويل في السجن، انتهيت فيه من كتابة ردٍّ على موسى جار الله، ولكن كان يشـغلني هاجـس المحافظة على المسـوَّدة، وعند مَن أسـتودعها، فصالح أفندي لن يطول بقـاؤه في هذه الديـار، ولم يكن طَبع الجواب متاحًا حينها.

فطلبت من صالح أفندي أن يُحضر لي إبريق وضوء خاص، وشرحت له كيف يصنعه الحداد، إبريق وضوء في قاعه طبقتان، وكنت قد دوّنت الكتاب على أوراق رقيقة، فوضعتها في الطبقة السفلى من الإبريق، وأحكمت إغلاق الطبقة الثانية عليها بتضبيب معدني، وبهذا الشكل صرت مطمئِنًا أن الكتاب معي أينما أذهب.

على أيِّ حال، لن يأخذ أحدٌ إبريق الوضوء من شـيخ مثلي، وإذا ذهبت إلى سجن آخر أخذتُه معي، وإن حُكم عليَّ بالإعدام خرجَت الأوراق من قاع الإبريق.

وبعد فتـرة أخذوني وانطلقنـا في طريقنا إلـى إسـتانبول؛ للمثول أمام المحكمة، وكان يصحَبني في الطريق ضابطان لم يَدُر في خلدي يومًا أنّ رجلًا عسكريًّا يمكن أن يتَّسِم بمثل لُطفهما ولباقتهما وسموِّ أخلاقهما.

التهديد بالإعدام في إستانبول:

ما لبثنا أن وصلنا إلى إستانبول، فسألني الضابط:

ـ سيدي، هل نأخذكم إلى البرلمان أم إلى وزارة الحربية؟ القرار قراركم، سنأخذكم إلى أيِّ مكان تريدونه.

فكَّرتُ قليلًا، لو أخذوني إلى البرلمان، فسيكون طلعت باشا[1] هناك، وسيسخر مني ويهزأ بي قائلًا:

---

(١) طلعت باشا بن أحمد واصف أفندي (١٨٧٤ ـ ١٩٢١) الصدر الأعظم العثماني، وأحد قادة جمعية الاتحاد والترقي، وُلد في أدرنة، وتلقَّى تعليمه الأساسي فيها، وتأثَّر بفكر جمعية تركيا الفتاة، وسُجن بسبب ذلك، ثم نُفي إلى سالونيك، وانتسـب إلى الماسونية عام ١٩٠٣، ثم أسَّس مع بعض أصدقائه جمعيةَ الحرية العثمانية بدعمٍ بريطاني، التي تحوَّلت لاحقًا إلى جمعية الاتحاد والترقي، وكان أحد قادة انقلابها على السلطان عبد الحميد الثاني، وصار من صانعي السياسية العثمانية بين عامَي ١٩٠٨ ـ ١٩١٨، فتولى عدة وزارات، وكان من المؤيدين للمشاركة في الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء، فتولى عام ١٩١٧ منصب الصدر الأعظم إضافةً لوزارتَي الداخلية والمالية، وبعد تولِّي السلطان وحيد الدين الخلافة قدَّم استقالة حكومته عام ١٩١٩، وهرَب مع بعض أصدقائه إلى ألمانيا، وتواصل سرًّا مع مصطفى كمال، وقُتل في برلين على يد شابٍّ أرمني عام ١٩٢١، ودُفن في برلين، ثم نُقل جثمانه إلى إستانبول عام ١٩٤٣. انظر: محمد شكري خانجي أوغلو، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة طلعت باشا (٣٩: ٥٠٢).



▲ الصدر الأعظم طلعت باشا



▲ أنور باشا

ـ ما هذه الحال التي أوقَعتَ نفسك فيها أيها الأستاذ؟ هل كانت تستحق مواقفُك وتعنُّتك كلَّ ما أنت فيه الآن؟ كنا نَودُّ أن نـراك عالِمًا فقيهًا، ما لك أنت وللسياسة، ما شأنك بهذه الأحوال؟

وبقدر ما كان أنور باشا[1] سليم الصدر، كان طلعت حادَّ الذكاء، لكنه شيطان، إلا أن سخرية طلعت كانت أشدَّ وقعًا فيَّ من حُكم أنور عليَّ بالإعدام.

---

(١) إسماعيل أنور باشا (١٨٨١ ـ ١٩٢٢) وزير الحربية العثماني، وأحد قادة جمعية الاتحاد والترقي، وُلد في إستانبول، ودرس فيها العلوم العسكرية حتى تخرج في الكلية العسكرية السُلطانية، لاحقَ أثناء عمله العسكري العصابات البلغارية الانفصالية، وتأثَّر بالفكر القومي، فضمَّته جمعية الاتحاد والترقي لصفوفها، وشارك في الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد الثاني، فترقَّى سريعًا في الرُّتب العسكرية حتى صار وزير الحربية في سنٍّ مبكرة، وفي ٤ أغسطس ١٩٢٢، أثناء احتفاله بعيد الأضحى مع الجند المرافقين له تعرض لهجومٍ روسي مفاجئ؛ فقُتل هو وثلاثون من جنده معه. انظر: محمد شكري خانجي أوغلو، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة أنور باشا (١١: ٢٦١).

فقلت لهم: خُذوني إلى الحربية يا ولدي.

فوصلنا إلى وزارة الحربية، وبينما بقي أحد الضابطَين معي دخل الثاني إلى المبنى، فانتظرناه حتى مرَّت خمس ساعات ولم يرجع.

وكان الإبريق بيدي، كلما دخل وقت صلاة أتوضأ منه وأصلي.

وبعد مرور كلِّ هذا الوقت وصلت إلى قناعة أنهم يُنشئون محكمة عسكرية لتُصدِر حُكمها عليَّ بالإعدام.

❁ صلاة الوداع لهذه الدنيا:

لقد رأيت الموت بعينيَّ في هذه الساعات الخمس يا عزيزي، لو أن الإنسان عبد الله وتفكَّر فيه متلبِّسًا بحال الإحسان، مستحضِرًا «أن تعبد الله كأنك تراه»، فكيف له أن يقترف ذنبًا أو يَهوِي في قاع غفلة؟

وكم وكم مَـرَّ على خاطري ـ في هذه الساعات الخمس ـ من حوادث وأحوالٍ كان يجب أن أفعلها في هذه الدنيا فما فعلتها، أو سنحت لي الفرصة للقيام بها فأهملتها.

كان سيدنا أبو أيوب الأنصاري ﵁ قد رفع شكواه إلى النبي ﷺ قائلًا: يا رسول الله، لا أجد الخشوع في صلواتي، تقولون بأن الصلاة معراج المؤمن، ولكنها لا تَعرُج بي، فأوصِني، فيجيبه النبيُّ عظيم الشأن ﷺ: «يا أبا أيوب، صلِّ صلاةَ مُودِّع»[1]، فمن قام يصلي صلاة حياته الأخيرة علم أنه سيقف بعدها بين يدي الله ﷻ، فيسأله ويحاسبه، ويؤتيه كتابه.

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه رقم ٤١٧١، ونص الحديث، عن أبي أيوب الأنصاري ﵁ قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، علِّمني وأوْجِز، قال: «إذا قمتَ في صلاتكَ فصَلِّ صلاةَ مُوَدِّع، ولا تَكَلَّمْ بكلامٍ تعتذرُ منه، وأجمِعِ اليأسَ عما في أيدي الناسِ».

ففي تلك اللحظة ـ بينما أنتظر حكم الإعــدام ـ خطرت ببالي وصية النبــي ﷺ لأبي أيوب الأنصــاري ﵁، فصلَّيت صلاتَــيِ الظهر والعصر مستشعِرًا بها، آهٍ! كم تمنيت لو أني صليت كل صلواتي بهذه الحال!

۞ النفي إلى جيمليك:

وكلما طالت فترة الانتظــار ـ وقد بلغت خمس ســاعات ـ وترجَّح لديَّ صدور حكم الإعدام، وتوارَدَت على النفس مثل هذه الخواطر، شعر الإنسان بحال تشبه الإغماء تَجثُم على روحه، فحياتك تتغير... وتخطو بعد الآن لتقف بين يدي الحق ﷻ، وتستقبلك الملائكة بالسؤال.

وبينما أنا ذاهِلٌ عن كل ما حولي، غارقٌ في أفكاري هذه، وبعد مرور أكثر من خمس ساعات، رجع الضابط الشاب، وبادرني بالسؤال:

ـ أستاذي، هل تفضلون الذهاب إلى سينوب أم إلى جيمليك؟

فاتضح لي أن نقاشًا وجِدالًا طويلًا كان يدور بينهم في حقي، وأن أنور قال:

ـ لا أستطيع أن أتحمَّل تَبِعة إعدام هذا الرجل، فهو رجلٌ يجاهد في سبيل إيمانه وفكره، يكفينا أن نُبعِدَه في هذه الفترة عن المدينة، فلْنَنفِه إلى مكان ما، اسألوه: هل يرغب بالذهاب إلى سينوب أم إلى جيمليك؟

فاخترت جيمليك، وعندما وصلتُها إذ بي أرى حسين عوني أفندي وكثيرًا من الأصدقاء فيها أيضًا.

۞ ۞ ۞

رجل الدعوة

كانت زيارتي الأولى لشيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي عام ١٩٤٠، واستمرت زياراتي المتتابعة إليه حتى نهاية عام ١٩٤٥، وخلال هذه السنوات الخمس أو الست لم يتغير من مجلسنا معه شيء، فقد كنا نجلس دائمًا على الكراسي نفسها، وكانت بسيطة مصنوعة من القشّ، وفي وسط الغرفة سجادة صلاة، ولم تكن تشغله الدنيا أو تهمه، بل كل همه وفكره وحديثه دائمًا عن العلم والعرفان والدعوة وهموم المسلمين، ولا أذكر ـ ولو لمرة واحدة ـ أنه تكلّم عن مشاكله وهمومه الشخصية.

ولم يكن صبري أفندي كغيره من العلماء الذين يتكلم أكثرهم حول العلوم الدينية فقط، بل كان يخوض في كل علم وفنٍّ، ويتكلم فيه بمعرفة واطّلاع.

* * *

حمدي أفندي إلماليلي



▲ محمد حمدي يازر إلماليلي

ذات مرة قال وهو يصف إيمان وذكاء واجتهاد حمدي أفندي إلماليلي(١):

لم تكن تعجزه مسألة، أيًا كانت القضية التي تعرضها على حمدي أفندي إلماليلي، فكن على يقين أنه سيحل معاقدها، ويقف فيها على جواب، وقد كنا معه في مجلس ذات مرة، فقلنا له:

ـ حمدي أفندي، أنت تجيد الفرنسية، فهلّا طوَّرتَها حتى لا نحتاج فيها إلى مترجم؟

---

(١) محمد حمدي بن نعمان يازِر الإلماليلي (١٨٧٨ ـ ١٩٤٢)، وُلِد في منطقة إلمالي في أنطاليا لأسرة علمية، وبعد تَلقِّيه التعليم الأساسي في منطقته سافر إلى إستانبول، وتابع دراسته الشرعية في مدرسة آيا صوفيا الصغرى عام ١٨٩٥، ثم لزم أستاذه حمدي أفندي القيصرلي حتى أجازه، درس الخط والموسيقى والفلسفة والأدب، وعارض السلطان عبد الحميد، وأيَّد إعلان الدستور، وانتسب لجمعية الاتحاد والترقي، ودخل مجلس المبعوثان نائبًا عن أنطاليا، اشتغل بالتدريس والقضاء، وترقَّى في الوظائف العلمية الرسمية، وبعد إسقاط الخلافة حُكم عليه غيابيًا في أنقرة، ثم أُطلق سراحه، وعاد إلى إستانبول، فلَزِم بيته لا يخرج منه إلا إلى الصلاة في المسجد، وتفرَّغ لإنهاء تفسيره المشهور الذي صار يُعَدُّ أهم تفسير تركي في القرن الأخير، ويهتم بالجوانب اللغوية والفلسفية والعلمية والصوفية. انظر: يوسف شوقي يافوز، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة إلماليلي محمد حمدي (١١: ٥٧).

واجتهد مدة ستة أشهر حتى تميَّز فيها، وترجم عن الفرنسية كتاب «مطالب ومذاهب»: «المطالب والمذاهب.. ما بعد الطبيعة والفلسفة الإلهية» الذي يتناول تاريخ الفلسفة، ومع أنّ هناك الكثير ممن يترجم الكتب، فإن بعضهم فقط مَن يترجم عن فَهمٍ ودراية، وأما بعضهم الآخر فلا يكاد يفهم ما يترجم.

وقد رأيت مثالًا على هذا فريد بك، فقد ألَّف كتابًا سمّاه «وِحدَت وجود»: «وحدة الوجود»، ولكنه لم يَفهَم وحدة الوجود، مع أن فريد بك هو ذلك الرجل الشاعر الأديب، واللَّسِن الخطيب.

أما حمدي أفندي فكان إذا كتب أو ترجم شيئًا غاصَ في أعماقه، ومَخَض كلَّ جوانبه حتى يجمع شتاته، ثم يُحلِّله وينتقده.

ومسألة وحدة الوجود في الأصل من المسائل التي يصعُب على الإنسان إدراك أغوارها؛ لما فيها من غرابة وعجائبية، وأما الطرف الذي يخالف الشرع منها فهو (panteizm) الفلسفة الحلولية، التي تقول: إن كل موجود هو الله، وهناك خلطٌ يقع بين وحدة الشهود ووحدة الوجود، ولكن الخلاصة التي على كل مسلم أن يؤمن بها أن كل شيء هالك إلا وجهه.

❁ قد يكون الإنسان ربانيًّا:

كان إحسان أفندي يقول بقول مصطفى أفندي هذا أيضًا:

قد ابتدأ حمدي أفندي كتاب «مذاهب ومطالب» بمقدمة صاغها بعميق فكره، فجاءت تعكس رسوخه في العلوم، وأما ديباجة الكتاب فخطَّها بخَلَجات روحه، فجاءت تَشِفُّ عن مقامه في العرفان، ففي الأولى علم، وفي الثانية عرفان وتصوُّف.

التصوف هو فناء العبد في رضا الله، وبقاؤه بمحبته، لا أن يكون العبد إلهًا، فلا يكون العبد خالِقًا، ولا يقوم مقامه.

وهذا ما يقصده علماء الكلام بقولهم: لا حلول ولا اتحاد، فالله تعالى ذاتٌ بائنةٌ عن خلقه، ومُنزَّه عن مشابهتهم، أما الناس فيكونون ربانيِّين لا أربابًا، وإلهيِّين لا آلهة.

ويقال للرجل الرباني والإلهي في اللغة التركية: (شلبي)، من أين جاءت هذه الكلمة؟ جاءت من (شلب)، وكانت في التركية القديمة تعني: الله، فعندما نَصِف إنسانًا أنه شلبي أو رباني أو إلهي فنقصد أنه جار الله، رجل الله، خليل الله، لا أنه الله.

ومعنى «لا إله إلا الله»: أن الأبدي والباقي هو الله فقط، وكل شيء غير الله هالكٌ وفانٍ.

❊ ❊ ❊

الهجرة جهاد

كنا نحب حديث صبري أفندي والجلوس إليه كثيرًا، فالأستاذ غرس بذور محبّته في قلوبنا، وكان محور هذا الحب يتجلّى في قوله:

ـ يا أولادي، ليست الهجرة أن تهرب وترتاح، ولكن أن تقول ما قاله ورقة بن نوفل للنبيِّ المعظَّم ﷺ حين نزل عليه الوحي أول مرة:

يا ليتني أكون حيًّا إذ يُخرِجك قومك من مكة وتهاجر منها، فأنصرك يومئذ.

وحينها سأله النبيُّ المكرَّم ﷺ وقد أخذت الحيرة منه كلَّ مأخذ: أوَمُخرِجِيَّ هم؟

وكم وكم في طيّات هذا السؤال من معانٍ؛ كيف ذلك وأنا محمد الأمين، منذ أربعين سنة وأهل مكة لا يحبون ولا يُجِلُّون أحدًا مثلي، حتى جعلوني الأمين، يأمنوني جميعًا على أثمن ما يملكون لأحفظه لهم!

فأجابه ابن نوفل:

نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت بـه إلّا عُودِي، ولذلك ما من نبيٍّ استطاع أن يستمر في دعوته وهو في بلده، فكان لا بد أن يهاجر حتى ينصر دعوته بعد ذلك.

فالهجرة لا تعني الهروب أو الراحة، بل تعني الثبات على طريق الجهاد، وإعداد العدة، واستجماع أسباب القوة لخوض المعركة القادمة، والظفر بالنصر فيها، ولو أنّ النبي ﷺ آثَرَ البقاء في مكة على الهجرة لما كان الفتح العظيم، فالفتح إنما تحقّق بعد الهجرة.

لوحة الجدار:

هكذا كان يغرس فينا أستاذُنا صبري أفندي دائمًا هذه الروح، ويبُثُّ في عروقنا العزيمة والحميّة الدينية، لقد كنا شبابًا غرباء ضعفاء، ندرس الدين هناك في وقت كانت الحركات المناهضة للدين في بلدنا تَصُول وتَجُول، وتأمر وتنهى.

ومع كل ما عاناه هذا الرجل الجليل ومرَّ به من متاعب في حياته، وبعد أن رأى مآلَ دعوته واضطراره للهجرة من وطنه في سبيلها، فإنه كان لا يفتأ يُلقِّح أرواحنا بالأمل في المستقبل والعزيمة على الجهاد، فكان لنا بحاله هذه خير قدوة وأبلغ أُسوة.

كان دائمًا ينفخ هذه الروح فينا، يشجِّعنا ويشدُّ من أَزْرِنا، ويأسِر قلوبَنا، فأحبَبناه حتى أخذ علينا بمجامع أفئدتنا.

وفي اليوم الأول الذي ذهبتُ فيه لزيارة مصطفى صبري أفندي، ما إن وطِئَت قدماي عتبة الغرفة التي كان يجلس فيها حتى خطفت بصري لوحةُ خطٍّ معلقةٌ على الجدار، كتبها صِهره المرحوم الخطاط محمد علي بك، وظلّت هذه اللوحة تروق لي مدة تردُّدي على الأستاذ طيلة خمس أو ست سنوات، وقد كتبها بخط النستعليق وفق أسلوب الخطاط يساري[1].

---

(١) هو الخطاط محمد أسعد يساري (ت ١٧٩٨) الذي أدخل خط النستعليق إلى تركيا أواخر القرن الثامن عشر، وُلد في إستانبول مشلول اليد اليمنى، ولما أقبل يريد طلب العلم على شيخ الإسلام في عصره ولي الدين أفندي اعتذر من قبوله لإعاقته الجسدية، فأقبل على تعلُّم الخط على الخطاط دده زاده محمد سعيد أفندي، الذي توسَّم فيه خيرًا منذ أول لوحة خطٍّ كَتَبَها، واستمر في تعليمه إلى أن أجازه بكتابة الخط العربي، وتلقب بـ«يساري»؛ لشلل يمينه، ولما أقيمت مسابقة بين الخطاطين في الدولة العثمانية فاز بها، ولما كان الخطاطون يتأملون لوحاته وصل الدور على شيخ الإسلام ولي الدين، فتحسَّر على خسارة مثل هذا الشاب عندما رَدَّه عن طلب العلم في حلقته، واستمر في تطوير خطه، وتأثر =

وكان محمد علي بك قد تلقَّى إجازة الخط من الخطاط خلوصي بك؛ آخِر ممثِّلي مدرس الأسلوب اليساري في الخط، وكان خطاطًا يجيد خط النستعليق.

وكان نَصُّ اللوحة المعلَّقة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

فأول ما يتبادر إلى ذهني ـ عندما يُذكر صبري أفندي ـ تلك الغرفة، وإذا قيل: غرفة الأستاذ مصطفى صبري، فأول ما يرتَسِم في مخيلتي هذه الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

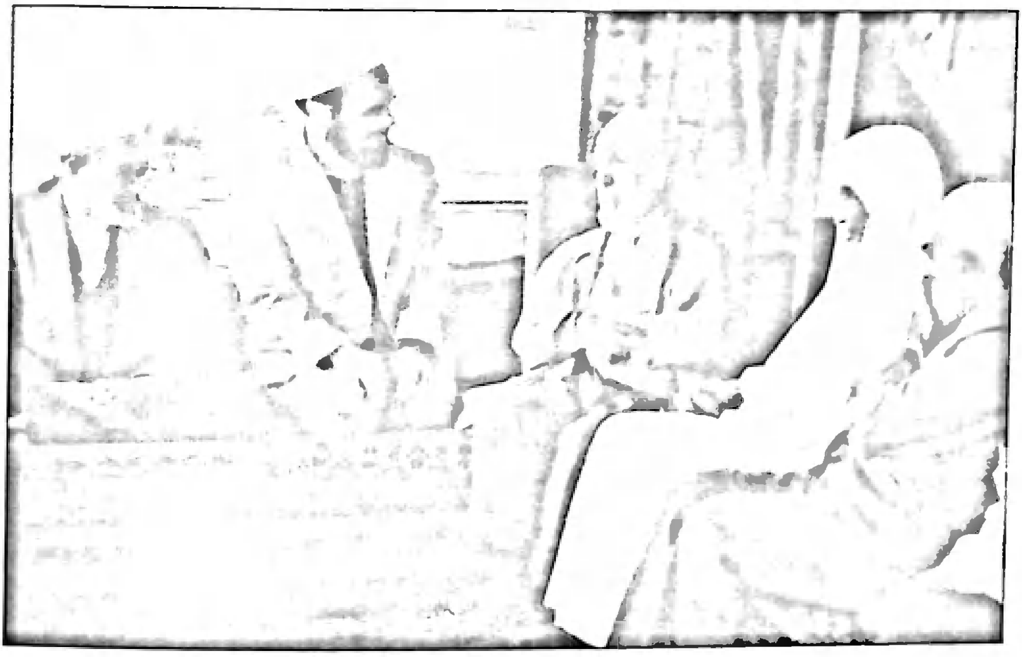
وفي الحقيقة، كانت تنعكس فيوضات هذه الآية الكريمة على أرواحنا، فما إن تَضُمّنا هذه الغرفة بين أحضانها حتى تمتلئ قلوبنا بأنوار ذِكر الله تعالى.

طعام البندورة:

كان الأستاذ يحبنا كثيرًا، وكنا ندعوه فيأتينا في سكن محمد بك أبي الذهب[1] الذي نقيم فيه، وكنا ـ لفقرنا وانشغالنا بطلب العلم ـ نصنع طعامنا بأيدينا، ولا نستطيع شراء طعام جاهز من السوق، حتى الأستاذ ما كان يرضى أن نشتري طعامًا من الخارج.

= بالخطاطين الإيرانيين، ثم استقل بنمط جديد في الخط جمع بين النسخ والتعليق، فيما صار يُعرف لاحقًا: نستعليق، وعمل على ضبط الخط بأسلوب يعبِّر عن السكون والتوازن، فصارت الحروف تُكتَب بشكل موزون، مما أدَّى لاستقرار رسم الحروف فوق السطر، فانضبط بذلك الخط عنده على قواعد محدَّدة يسهل معها تمييزه عن أساليب بقية الخطاطين، وسار على أسلوبه كثيرون عُرفوا لاحقًا بالمدرسة اليسارية. انظر: محمد أوغور درمان، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة محمد أسعد يساري (٤٢: ٤٨٦).

(١) مجمع يضم مسجدًا ومدرسة وتكية بناها الأمير محمد أبو الذهب سنة ١١٨٧هـ ـ ١٧٠٣م مقابل الجامع الأزهر؛ ليساعد في استيعاب الطلاب الوافدين للدراسة في الأزهر الشريف، وما زال قائمًا حتى اليوم.



▲ من يسار الصورة الشيخ أمين سراج، أحد كبار علماء تركيا،
ومن طلاب الشيخين مصطفى صبري وزاهد الكوثري، ثم الشيخ عبد الفتاح أبو غدة،
ثم علي يعقوب (علي الكبير) تلميذ الشيخ مصطفى صبري، ثم د. أسعد جوشان،
أستاذ التصوف في جامعة أنقرة وشيخ الطريقة النقشبندية في تكية إسكندر باشا

وذات يوم كان الدور عندي في إعداد الطعام، فطبَخت كوسا، وكنا مجموعةً من الطلبة، منهم علي يعقوب بك، ومصطفى رُنيون بك، وبعض الطلبة من يوغسلافيا.



▲ علي يعقوب (علي الكبير)

وجاءنا الأستاذ، فكان يقول أثناء حديثه:

ـ نحن نتكلم بصوت خفيض بينما أنت تطبخ الطعام وتجتهد في الإنصات إلينا، هذا ليس عدلًا، ما أنصفناك يا بُني!

وذات مرة وصف لنا مازحًا طريقة إعداد طعام البندورة، فقال:

ـ تعلَّمتُ طريقة إعداد طبق من الأطباق، لـن تحتاجوا بعده إلى أيٍّ من هذه الأطعمة التي تُتعِبون أنفسكم بتحضيرها، الأمر في غاية البساطة، تضعون قِدرًا على موقد الغاز، وتُسقطون فيها البندورة وتنتظرون حتى تُطبَخ، فإن شئتم سمَّيتُموها سلطة، وإن شئتم سميتموها طعامًا.

وعندما كنت في زيارته ذات مرة كان يكرِّر القول لي متلطفًا معي:

ـ كم كان طعام الكوسا لذيذًا! هل تكون الأطعمة عندكم لذيذة على هذا النحو دائمًا أم لأنه طعامٌ طُبِخ في المدرسة؟

فكانت كلماته هذه تبعث السرور في قلوبنا.

❁ عبق الروح:

في إحدى زيارات الشيخ مصطفى صبري أفندي إلى سكننا كنا في استقباله أسفل السكن، فقال وهو يصعد إلى الأعلى:

ـ يا أبنائي، أقسم بالله أني تنسَّمت عبق روحانية هذا السكن من على بُعدِ خطوات، فسكنكم هذا مدرسة، ولكلِّ مدرسة دينية روحانيتُها، فدينُنا يُولِي العلم أهمية عظيمة، هنيئًا لكم أن أقامكم الله في أجَلِّ مقام، وسلك بكم خير سبيل.

وقال لنا في زيارة أخرى:

ـ ما إن أقترب من مكانكم هذا حتى تَسرِي في أوصالي حالٌ روحانيةٌ عجيبة، وتنبعث السكينة والطمأنينة في روحي، فأنتم في هذا المكان مشغولون بطلب العلم، آهِ لو عاد بي الزمن إلى مثل سِنِّكم، ورجعت

طالبًا مثلكم[1]، فإننا نرى الله تعالى في الآية الكريمة: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١] قد أمر الأمة كلَّها رجالًا ونساءً، صغارًا وكبارًا بالنفير العام استجابةً لنداءِ الجهاد، والدفاع عن الوطن والدين والإيمان والعِرض والشَّرف في وجه أعداء الدين والأمة، ولكن ما تلبث أن تأتي في السورة نفسها آية أخرى تقيِّد الأمر المطلق الصريح الوارد في الآية السابقة، وتقرِّر استثناءً يخصِّص العموم السابق قائلة: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

القيم التي تصُوغ هُويّة الأمة:

لكلِّ أمة ظاهر وباطن، جسمٌ وروح، مادة ومعنًى، فلها أرضٌ تقوم عليها، ولها أيضًا دِين وإيمان وشرف وعِرض وحُرمات تصوغها.

فظاهِر الأمة وجسمُها ومادتها وأرضُها يتولَّى الجيشُ حمايتها، وإن دعت الحاجة نفرت الأمة بقَضِّها وقَضِيضها ـ كما أمرت الآية الكريمة ـ لتقف صفًّا واحدًا تجاهد إلى جانب جيشها وجُندِها.

وأمّا مَن يَذُود عن حِياض القيم الحقيقية التي تصوغ الأمة روحًا ومعنًى، ودينًا وإيمانًا، وأخلاقًا وشرفًا، إنما هو الجيش المعنوي الذي يُصنَع على أعين العلماء وفي رعايتهم، فالأمة الحقيقية لا تنسجها إلا هذه المبادئ

(١) أورد علي علوي كورجو هذه المقولة في موضع آخر من ذكرياته. انظر: ذكريات علي علوي (٤: ١٧٦).

والقيم، وإذا نجحت أمةٌ فـــي صيانة مبادئها والحفاظ عليها اســتطاعت أن تنبعث من رمادها، وتنهض من أجداثها في أي زمان ومكان.

وها أنتم يا أولادي جند هذا الجيش المعنوي ونُواه، فأهل العلم هم مَن يحمل أمانة الدفاع عن أخلاق الأمة وصَون مبادئهـــا، وأنتم قادة هذا الجيش المعنوي الذي سيؤدي أمانة هذا الواجب المقدس.

أصدُقكم القول، وأبُثُّكم دَخِيلة نفسي، آهِ لو كنت ما زلت طالب علم مثلكم!

الديـن والعلـم

كنت كثيرًا ما أتحدث مع أستاذنا مصطفى صبري أفندي عما أصاب أمتَنا وبلادَنا، وأطرح الأسـئلة، وأعبِّر له عن آرائنا، وقـد كان يتجاذبه إزاء ذلك شعوران اثنان، شعور الدهشة مما يسمع، وشـعور الإعجاب بما يسمع منا نحن الشباب، فيقول:

ـ عجبًا لكم! كيف عرفتم كلَّ هذا؟ لقد غادرتم تركيا في سنٍّ مبكرة، ولم يتسنَّ لكم أن تروا أشياء كثيرة، فهل تعلَّمتُم هذا كله من أحد، أم قرأتموه في كتاب؟ فأجبته:

ـ سـيدي، كانت مجالس جدي وأبي وعمي[1] تدور حول هذه المسائل، وتحفَل بها دائمًا، فتعوَّدنا على سماع مثل هذه القضايا.

وعندما كنت آتي ـ العبد الفقير ـ على ذِكر كبار عائلتي، يتذكر صبري أفندي مدرسة «إصلاح المدارس» فيقول:

ـ يا عزيزي، إن أعضاء هيئة «إصلاح المدارس» لم يكونوا مجرد أساتذة فحسـب، بل كانوا حَوارِيِّين يحملون هَمَّ الدعوة بيـن جوانحهم، وما زالت تَلُوح أمام ناظري ملامح وجوههم المنيرة.

---

(١) مصطفى بن الحاج أويـس (١٨٨٧ ـ ١٩٦٠) وُلد في مدينة قونية، وتلقَّـى تعليمه فيها على كبار علمائها، حتى صار من أهم الشخصيات الدينية المؤثرة في المدينة، خطب في مساجد المدينة الكبرى، ودرَّس اللغة العربية والعلوم الشـرعية في المدارس والمساجد، وتبنَّى كثيرًا من طلبة العلم الشـرعي، وأسَّـس جمعيات خيرية ترعى شـؤون طلبة العلم المحتاجيـن، إلى جانب المشاريع الخيرية الكثيرة التي أنشأها لخدمة الفقراء والمحتاجين في المدينة. انظر: علي عثمان كجك أوزو، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة مصطفى بن حاج أويس (١٤: ٥٠٦).

يا أولادي، العلم مسلك مُبارَك، وإذا نظرنا إلى فاتحة هذا الأمر فسنرى أن الإسلام دينٌ انبعثَت خيوط نوره الأولى مع العلم.

ومما يجب علينا التوقف عنده والتأمل فيه طويلًا أنّ أول آية نزلت على النبي ﷺ عندما كان في غار حراء بجبل النور ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: ١]، فكيف لأمة أن تهوي في مستنقع الجهل، أو ترضى به وأول خطاب يطرق سمعَها أمر «اقْرَأ»؟!

منذ أن بلغتُ الثانية والعشرين من عمري وأنا أشتغل بالتدريس، إلا أني حتى هذه اللحظة لم تنقضِ نَهمَتي من العلم، في ذلك الوقت، جاء أبي من مدينتي توقاد يزورني، ورآني مدرسًا في جامع الفاتح أُلقي فيه على نحوٍ من ستين طالبًا دروسًا تخصصية عالية، ولكنه مع ذلك قال وقتها لبعض أصدقائه:

«كنت أتمنّى أن يستمر في الدراسة أكثر؛ لسرعان ما صار مدرسًا...».

❁ مدرسة إصلاح المدارس(١):

عندما كنت في القاهرة استمعت إلى الأستاذ مصطفى صبري أفندي يتحدث بكل حماسة عن مدرسة إصلاح المدارس، وكان مما قاله:

ـ عندما رأيت مدرسة إصلاح المدارس نَبضَت روحي بالأمل من جديد؛ فالمدرسة التي طالما حلمت بإنشائها، وتصوَّرتُ أدَقَّ تفاصيلها في مخيلتي منذ سنوات طويلة أراها قائمة أمامي رأي العين، امتحنّا الطلاب، وكانوا ممتازين جدًّا، لم يقتصر فهمهم على ما يقرؤه الطلاب في المدارس القديمة فحسب؛ كانوا يَفِيضون بروح فريدة تمامًا، وإضافة إلى ذلك، يُتقِنون

---

(١) أورد علي علوي كلام الشيخ مصطفى صبري عن مدرسة إصلاح المدارس في موضع آخر من ذكرياته. انظر (١: ١٧٢ ـ ١٧٤).

الرياضيات والهندسة والتاريخ والجغرافيا وغيرها من العلوم الحديثة، كان من بين الطلاب الذين امتحنّاهم ذلك اليوم الساعاتي عثمان أفندي، الذي انتقل للإقامة في المدينة المنورة، والآخر الذي ما زلت أتذكره إلى الآن كان إبراهيم حقي من قونية، وكان موظف مكتبة.

أعجبتني المدرسة إلى درجة أنني ما إن وطئت قَدَماي إستانبول عائدًا من قونية حتى قلت لزوجتي:

ـ سيدتي، جهِّزي ابنَنا إبراهيم ولْنرسِلْه غدًا ليبدأ الدراسة في قونية. فقالت:

ـ خيرًا إن شاء الله، هل نرسل ابننا الوحيد إلى قونية للدراسة؟ في الوقت الذي يحلم الجميع بإرسال أبنائهم إلى إستانبول لتحصيل أفضل تعليم نرسل نحن ابننا الوحيد إلى قونية؟

كان لدينا ابن وابنتان فقط، فأجبت زوجتي:

ـ يا سيدتي، أنت على حق، لإستانبول شهرتها وألَقُها الذي لا تشاركها فيه أيُّ مدينة أخرى، ولكن ضياء أفندي أسَّس المدرسة التي كنت طالما حلمت بها منذ سنوات طويلة.

وهكذا أرسلنا ابننا إبراهيم إلى قونية.

❁ نور الإخلاص:

كنت قد سألت مصطفى صبري أفندي مرارًا حول هذا المدرسة، واستمعت إلى انطباعاته وأخباره عنها، وفي إحدى المرات سألته:

ـ سيدي، كأن مدرسة إصلاح المدارس قد حازت على إعجابكم، فكثيرًا ما أسمعكم تُثنُون عليها، ما السبب وراء ذلك؟ فأجابني:

ـ عزيزي، عندما دخلت إلى إصلاح المدارس شعرت وكأن نُورًا عُلويًا قد غمرني، حتى غابت ذرّاتي فيه، فهي لم تكن مدرسة فحسب، بل كانت تكية ذِكر ومَحضِن تربيــة وروضة تزكية، ورِباطًا لتربيــة المجاهدين، نظرت إليها بهذه العين.

همَستُ مرة بسؤال لضياء أفندي سرًّا بيني وبينه:

ـ ضياء أفندي، ماذا تقدمون لهؤلاء المعلمين ليخدموا بكل هذه الحماسة والغيرة؟

أجاب ضياء أفندي قائلًا:

ـ يا سيدي، ماذا سنقدم؟ نحن أنفسنا نعيش كفافًا.. نحن لا نأخذ من أحد شيئًا حتى نقدِّم لهم، كلهم يأتون هنا لوجه الله، إنّ ما يدفعهم لما تراه إنما هو غيرتهم على تربية أبناء هذه الأمة.

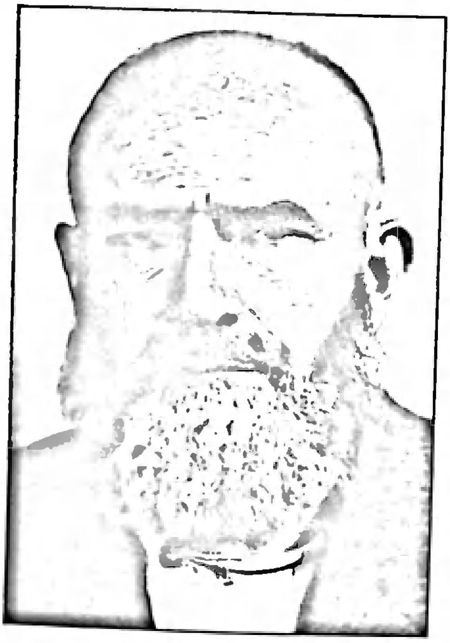
عندها فهمت سِرَّ هذا النور الذي يتلألأ في وجوه المعلمين، هذا النور هو نور الإخلاص، نور إلهي.

ثم تابَع ضياء أفندي كلامه مشيرًا إلى جدكم[1] الحاج أويس:

ـ انظروا سيدي إلى هذا الأستاذ، إنه يقيم في منطقة تسمى دولاو، وهو إمام مسجد هناك، ووالد هذَين الأستاذين، رجَوناه أن يأتي ويدرِّس الطلاب التلاوة والتجويد، وقَبِل مســرورًا، فهو يأتي مــن «دولاو» وهي على بُعد كيلومترَين ماشيًا، فيُدرِّس ويرجع.

---

(١) يقصد جد علي علوي كورجو.



▲ مصطفى حاج ويسي زاده عم كاتب الذكريات علي علوي كورجو

❁ زين العابدين أفندي:

وتابع مصطفى صبري أفندي قوله:

ـ لم يكن زين العابدين أفندي عالمًا مثل أخيه ضياء أفنـدي، لكنه كان ألمعيًا بعيد النظـر سـديد الرؤيـة، كان جريئًا جَسُورًا، قوي البنية.

في البداية كنا جميعًا من المؤيدين لجمعية الاتحاد والترقـي، ولكن زين العابديـن أفنـدي كان أول مَن لاحظ خُبث طَوِيَّتهم، وفساد مقاصدهم، فنبَّهَنا على الجوانب السـلبية لهذه الجمعية، وشـجب ممارسـاتها، فرفع راية النضال ضدهم، وأيقظ فينا الحماسـة لمقاومة مخططاتهم.

قال لنا وقتها:

ـ هذه الجمعية أداة في أيدي الماسـونيين واليهود ومَن لفَّ لَفَّهم من أعداء الإسـلام والدولة العثمانيـة، وإن لم نقف في وجـه هذه الجمعية فسـتجُرُّ علينا وعلى البلاد كوارث وبلايا لا تنتهي، فعلينا جميعًا الابتعاد عن هؤلاء.

وقد ظلَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى آخر حياته على موقفه هذا، لم يُسـلِّم راية النضال والمقاومة أبدًا، وكان من ضمن قائمة المئة والخمسين التي أعلنتها حكومة أنقرة لمن وصفتهم بالخونة الذين يجب نفيهم خـارج البلاد، فذهب إلى القاهرة، ثم في عام ١٩٣٥ جاور في المدينة المنورة إلى وفاته عام ١٩٣٩.

وكما ذكرنا سابقًا، فإن الذي دفع وشجَّع ضياء أفندي على افتتاح مدرسة إصلاح المدارس هو زين العابدين أفندي؛ لأنه كان يرى وجوب إصلاح المدارس الدينية حتى تستطيع مقاومة مثل هذه الجمعيات المتغربة.

❀ مَن ضَعُف إيمانُه انحرف عن الجادة:

بعد أن اتخذ مصطفى صبري أفندي موقفًا معارِضًا لإدارة حزب الاتحاد والترقي، ووصل معهم إلى طريق مسدود، انضم إلى حزب الحرية والائتلاف الذي أسَّسه ميرآلاي صادق بك[1] وأصدقاؤه.

ولم يرغب في تأسيس حزب جديد حتى لا يزيد من الفُرقة والانقسام في الساحة السياسية.



▲ ميرالاي صادق بك

(١) صادق بك (١٨٦٠ ـ ١٩٤١) عسكري وسياسي عثماني، كان أحد مؤسِّسي حزب الحرية والائتلاف، تخرج في الكلية الحربية عام ١٨٨٢، خدم في سوريا وطرابلس ومقدونيا، انضم عام ١٩٠٦ إلى جمعية الاتحاد والترقي، ثم انقلب عليها عام ١٩١١، وأسَّس حزب الحرية والائتلاف المعارض، وحاول الانقلاب على حكم الاتحاديين ولكنه فشل، فهرب إلى باريس ثم إلى مصر، ثم عاد إلى إستانبول، وصار رئيس حزب الحرية والائتلاف عام ١٩٢٠، ثم بعد تولِّي مصطفى كمال ورفاقه الحكم في تركيا هاجر إلى رومانيا، وبقي فيها يعاني من حياة البؤس والشقاء إلى أن أصدرت الحكومة قرارًا بالعفو عنه، وفي طريق العودة أُصيب بنوبة ربو قاسية أدَّت إلى وفاته في مساء اليوم الذي وصل فيه إلى إستانبول ٠٤ ـ ٠٢ ـ ١٩٤١. انظر: أحمد علي غزل، موسوعة أتاتورك، مادة ميرالاي صادق بك.

إلا أن الأستاذ ندم لاحقًا على انتمائه للحزب أشدَّ الندم، ولما لم يجد ضالَّته في الحزب استقال منه أيضًا، وعندما سألناه عن هذه المسألة، أجاب:

ـ يا عزيزي، ظننّا وقتها أن أولئك ـ الذين اختلفوا مع الاتحاديين في سياستهم، وأكثروا الشكوى منها فانفصلوا عنهم وشكّلوا حزبًا معارضًا لهم ـ أفضلُ حالًا وأعدل منهجًا، فانضمَمنا إليهم، إلا أننا اكتشفنا لاحقًا أنهما وجهان لعملة واحدة، فكلاهما أنصار فِكر واحد، ويحملون العقلية نفسَها، فعلى بُغضِهم وعدائهم للاتحاديين فإن أفكارهم وأخلاقهم واحدة.

لقد رأيت يا أولادي في هذه الآية الكريمة مثالًا يصف لنا منبع كل هذه المصائب: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ۝ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٤، ٧٥].

فالذين لا يؤمنون بيوم الجزاء، ولا يخشون عقاب الله تعالى الذي يُخوِّف به عبادَه، يتنكَّبون عن صراط الحق سعيًا وراء منافعهم، واستجابةً لأهوائهم، ومَن رجا مِن مثل هؤلاء صدقًا في اتباع الحق وثباتًا عليه فعَبَثًا يحاول، فدون ذلك خَرطُ القَتاد.

ففي البيان الإلهي الذي تضمَّنَته هذه الآية الكريمة بيانٌ لعلة كل ما ابتُلينا به.

فالأشخاص الذين يتظاهرون بالصلاح وقلوبهم خاوية من الإيمان، ويتشبّهون بأهل الخير حين يكونون بين ظهرانيهم، ما يلبثون حين تفجؤهم أيام الشدة وتتعرَّض مصالحُهم للخطر أن ينحرفوا عن الجادة ويتصرَّفوا بمقتضى منفعتهم.

مـثـــلًا: رضـــا تـــوفـــيـــق[1]،

(١) علي رضا توفيق بلوك باشي (١٨٦٩ ـ ١٩٤٩) اشتهر بلقب الفيلسوف، شاعر وكاتب وفيلسوف وسياسي، درس الطب في إستانبول، وتعرَّض للملاحقة والسجن عدة مرّات؛ لمشاركته في النشاطات الطلابية السياسية، انضم إلى جمعية الاتحاد والترقي عام ١٩٠٧، وشارك في الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني، وله خطبٌ مشهورة في هذه الأحداث، ثم لم يلبث أن انقلب على الاتحاديين، وانضم إلى حزب الحرية والائتلاف، ثم اعتزل السياسة بعد عام ١٩١٣، وتفرَّغ لتدريس الفلسفة، ثم عاد وزيرًا للمعارف عام ١٩١٨ إلى جانب تدريسه في دار الفنون، وتولّى مناصب عالية في الدولة، وبعد خطف صديقه علي كمال وإعدامه دون محاكمة إثر انتقاده لحركة الاستقلال التي قادها مصطفى كمال في الأناضول، هاجر رضا إلى مصر خوفًا من أن يلقى المصير نفسه، وأدرجته حكومة أنقرة ضمن قائمة المئة والخمسين التي اتهمتها بالخيانة، ثم انتقل إلى الأردن، وصار مترجمًا في بلاط الملك عبد الله، ثم استقال عام ١٩٣٤، وانتقل للعيش في مدينة جونية بلبنان، وبعد صدور العفو عن قائمة المئة والخمسين من حكومة أنقرة عاد إلى إستانبول وأقام فيها إلى وفاته، ترجم له إبراهيم بن مصطفى صبري أفندي كتابه باسم «الملحمة الشعرية الكبرى» إلى العربية، وطُبع في الإسكندرية عام ١٩٧٩. انظر: عبد الله أوجمان، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة رضا توفيق (٣٥: ٦٨).





△ رضا توفيق



▲ سليمان شفيق باشا باللباس العربي أثناء إقامته في مكة المكرمة



▲ رفيق خالد كراي

ورفيق خالد[١]، وسليمان شفيق[٢]، كانوا من هؤلاء الناس، ففي القضايا السياسية يتظاهرون أنهم في صفِّنا بأقوالهم وألسنتهم، ولكنهم في القضايا الإيمانية والإسلامية ما كانوا يختلفون عن الاتحاديين في شيء.

---

(١) رفيق خالد كراي (١٨٨٨ ـ ١٩٦٥) روائي وقصصي تركي، وُلد في إستانبول لعائلة غنية معروفة، فتلقى تعليمه في أشهر مدارس إستانبول، ثم التحق بكلية الحقوق، وعمل في وزارة المالية كأبيه، لكنه لم يلبث أن ترك الوظيفة ليتفرغ للكتابة في الجرائد والمجلات، نفاه الاتحاديون عن إستانبول بسبب انتقاداته لهم في الصحف، ثم التحق بحزب الحرية والائتلاف بعد عودته لإستانبول، وتولّى بعض الوظائف الحكومية، وعندما بدأ مصطفى كمال بحرب الاستقلال في الأناضول انتقده، ووقف ضد حركته، فأعلنته حكومة أنقرة ضمن قائمة المئة والخمسين الخونة، فهرب إلى حلب، ثم استقر به المقام في جونية بلبنان، إلى أن عاد إلى تركيا بعد صدور العفو العام، وأقام في إستانبول يكتب المقالات والروايات والقصص إلى وفاته. انظر: محمد أورهان أوكاي، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة رفيق كراي (٢٤: ٤٨٠).

(٢) سليمان شفيق باشا (١٨٦٠ ـ ١٩٤٦)، عسكري تركي ووزير الحربية، وُلد في مدينة أرضروم، وتخرج في الكلية الحربية، وترقّى في الوظائف الحكومية، فتولى قيادة بعض الجيوش، وكان واليًا على البصرة، ثم تولّى وزارة الحربية، وعارض حركة مصطفى كمال التي أعلنها لتحرير الأناضول، وتولّى قيادة القوات النظامية التي أنشأتها حكومة إستانبول ضد حركة =



▲ سليمان شفيق باشا

والأمر كما أشار الأستاذ مصطفى صبري، فحتى رضا توفيق، بعدما نُفِي لاحقًا مع «مئة وخمسين» معارضًا(١) أدلى بتصريحات ساخرة بحق مصطفى صبري أفندي.

وكانت هذه التصريحات تفضح ما أكَنَّه في نفسه عن نفوره وانزعاجه من الانتماء إلى الحزب نفسه الذي انتمى إليه المحافظون والعلماء.

❀ اختطاف علي كمال:

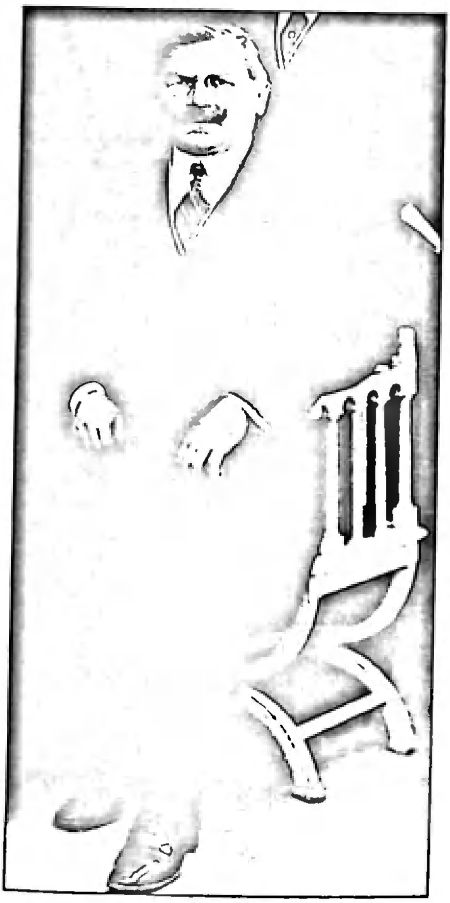
كان صبري أفندي يروي ذكرى أيامه النهائية قبل مغادرته الأخيرة لإستانبول فيقول:

كنا مجموعة من الأشخاص قد اجتمعنا في منزل علي كمال بك(٢)، للحديث والنقاش حول الأوضاع التي تمرُّ بها البلاد، فقال علي كمال:

= مصطفى كمال، فأعلنته حكومة أنقرة ضمن قائمة المئة والخمسين الخونة، فهاجر من تركيا، وبقي في منفاه إلى إعلان العفو العام، فعاد إلى تركيا عام ١٩٣٩، وأقام في إستانبول إلى وفاته.

(١) يطلق هذا الاسم على قائمة أعلنتها حكومة أنقرة بقيادة مصطفى كمال بعد انتصاره في حرب الاستقلال، وتضم القائمة ١٥٠ اسمًا من مواطني الجمهورية التركية المقرَّبين من السلطان وحيد الدين، أو من الذين يشغلون مناصب رفيعة في الدولة، واتهمتهم حكومة أنقرة بالتعاون مع أعداء تركيا ووقوفهم في وجه حرب الاستقلال، ونفتهم خارج البلاد، وكان من هذه القائمة مصطفى صبري أفندي شيخ الإسلام في الدولة العثمانية. انظر: شادومان خليجي، موسوعة أتاتورك، مادة قائمة المئة والخمسين.

(٢) علي رضا بن أحمد كمال (١٨٦٧ ـ ١٩٢٢) كاتب وصحفي وأديب وسياسي تركي، تنقَّل في فترة تعليمه الأساسي بين المدارس الحكومية والمساجد، وبدأ كتابة الشعر والأدب في سن =





▲ علي كمال بك

ـ أشعر بقلق يستولي على كياني وضِيق في صدري، سأخرج لدقائق أجُمُّ نفسي وأعود، وخرج، ومرَّ وقتٌ ليس بالقصير، ولكنه لم يَعُد، فتسرَّب القلق إلى نفس زوجه، وبدأت تضطرب وتتساءل بنبرة يهزُّها الخوف:

= صغيرة، واهتم مع مجموعة من أصدقائه بالقضايا السياسية والاجتماعية، وسافر إلى فرنسا فتعلَّم الفرنسية، والتقى بالأتراك المنفيين إليها، ثم عاد إلى إستانبول، وحاول إنشاء جمعية سرية فاعتُقل، ثم خرج وهرب إلى باريس، وانضم إلى جمعية تركيا الفتاة، ثم انقلب عليهم، وعمل في السفارة التركية في بروكسل، ثم هاجر إلى مصر وعمل فيها، وأصدر بعض الأعمال الفكرية، مثل كتابه «المسألة الشرقية»، ثم عاد إلى إستانبول عام ١٩٠٨ مُنهِيًا بذلك منفاه الذي استمر لعشرين سنة، وبدأ يدرِّس في دار الفنون، ويكتب في الصحافة، وانتسب إلى حزب الحرية والائتلاف المعارض لجمعية الاتحاد والترقي، وتقلَّبت به الأحوال في هذه الفترة، ونُفي عدة مرات من قِبَل الاتحاديين، ثم تولى عدة مناصب وزارية في حكومات فريد باشا المتعاقبة، وواجه حركة مصطفى كمال، وانتقد حكومة أنقرة التي اختطفته من بيته وأعدمته دون محاكمة في ٠٦ ـ ١١ ـ ١٩٢٢. انظر: مصطفى عصمت أوزون، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة علي كمال (٢: ٤٠٥).



▲ رفعت بيلي باشا
أثناء حرب الاستقلال

ـ لم يَعُد علي كمال بك حتى الآن، ماذا حدث؟

ونحن تعجبنا أيضًا، وأخذنا نتساءل: هل أصابه مكروه؟ إلى أين سيذهب هذه الساعة؟

ثم تبيَّن لاحقًا أنهم ألقوا القبض عليه واختطفوه، ومضوا به إلى إزميت، ومن ثَمَّ ـ بدعوى نقله إلى المحكمة ـ دفعوا الناس لمهاجمته والاعتداء عليه في الطريق، وطبعًا لم نعرف كل هذه التفاصيل إلا لاحقًا.

في تلك الأيام أيضًا جاء رفعت باشا[1] إلى إستانبول ممثِّلًا عن حكومة أنقرة، وأساء الأدب في تصريحاته، وخرج عن حدود اللباقة في حديثه، حتى صرخ وصاح في أحد اللقاءات قائلًا:

---

(١) إبراهيم رفعت بيلي (١٨٨١ ـ ١٩٦٣) سياسي وعسكري تركي، وُلد في سالونيك، وكان أحد الجنرالات الخمسة الذين أعلنوا حرب الاستقلال التركية إلى جانب مصطفى كمال، شغل عدة مناصب وزارية في حكومة أنقرة، وصار ممثل حكومة أنقرة في إستانبول، وكان الشخص الذي أبلغ السلطان وحيد الدين بإلغاء السلطنة، والتقى بالسلطان عبد المجيد وفرض عليه شروطًا لقبولهم بتعيينه خليفة، إلا أنه ما لبث أن اختلف مع مصطفى كمال، وأسس أول حزب معارض في فترة الجمهورية التركية باسم الحزب الجمهوري التقدُّمي، فاتُّهم بالتخطيط لاغتيال مصطفى كمال مع عدد من رفاقه القدامى، لكنه بعد تبرئته من التهمة، أُقيل من مناصبه في السياسة والجيش، واعتزل الحياة السياسية، إلى أن عاد إليها مرة ثانية في فترة حكم عصمت إينينو خليفة مصطفى كمال، وتولى بعض المناصب في الدولة إلى وفاته. انظر: ديرياه جينش أجار، موسوعة أتاتورك، مادة رفعت باشا بيلي.



صورة لرفعت باشا
إلى جانب مصطفى كمال
في حرب الاستقلال

- من آل عثمان هؤلاء؟ أنا لا أعرفهم حتى، ولا أقيم لهم وزنًا.

وقد انتهت هذه الأحداث كلُّها بطلب السلطان وحيد الدين من قوات الاحتلال الإنجليزية سفينةً تُقِلُّه إلى خارج تركيا، ويبدو أنّ هذا ما كان يسعى إليه هؤلاء من كل هذه الفوضى والاضطرابات التي أثاروها.



رفعت باشا في آخر حياته

تظاهرة مُسيئة في الإسكندرية

وكان مصطفى صبري أفندي بصحبة السلطان وحيد الدين عندما غادر إستانبول على متن السفينة الحربية الإنجليزية، واصطحب معه ابنه إبراهيم صبري وكلَّ أفراد أسرته، إضافة إلى آخرين أيضًا كانوا على متن السفينة، نزل بعضهم في بيرا، وبعضهم في أثينا.

وكان كُلٌّ من مصطفى صبري أفندي وزين العابدين أفندي والفيلسوف رضا توفيق، وغالبًا رفيق خالد أيضًا، على متن السفينة مع عائلاتهم، وكان هناك آخرون أيضًا.

ولما وصل هؤلاء جميعًا بصحبة السلطان إلى الإسكندرية كانت تنتظرهم مراسم استقبال شنيعة، حيث إن القنصل التركي هناك ـ ربما بأمر من حكومة أنقرة، أو ربما بدافع شخصي حرصًا على منصبه، وتأكيدًا للحكومة الجديدة على ولائه لها، وأنه ليس من داعمي السلطنة العثمانية، لا نعرف بالضبط ـ جمع بعض السِّفْلة والغوغاء، وأتى بهم إلى رصيف الميناء، وبينما كان المسافرون بصحبة السلطان ينزلون مع عائلاتهم من السفينة أخذ هؤلاء الغوغاء يرمونهم بالبيض الفاسد والطماطم.

۞ مراسم استقبال حافلة في جدة:

وهكذا كان أول ما قابلهم عند وصولهم الإسكندرية تلك الصورة المقيتة، فأقاموا فيها على مضض، إلى أن جاءهم رسولٌ من أمير مكة المتمرِّد حسين، الذي صار يُعرف آنذاك بملك الحجاز، يدعو السلطان ومرافقيه لزيارة الحرمين.



▲ الشريف حسين

قال في رسالته إليهم:

- بدل مقامكم في الإسكندرية غرباء معزولين تفضَّلوا إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وأرسل إليهم قاربًا خاصًا يحملهم إلى جدة، فقبِل السلطان هذا العرض، واستقلَّ - بصحبه الوفد المرافق له - القارب حتى بلغوا جدة.

وقد كان الشريف حسين رجلًا مخادعًا، له أفكاره ومخططاته السرية، فأرسل على الفور رسالة إلى تجار جدة: «يَقدَم عليكم الخليفة، وبصُحبته شيخ الإسلام»، وجمعَهم وحثَّهم على إكرام وفادة السلطان وضيوفه، مذكِّرًا بحديث: «ارحموا عزيز قوم ذَلّ، وغنيًا افتقر، وعالِمًا ضاع بين الجُهّال...»[1].

وما إن وطئت أقدام الوفد ميناء جدة حتى كان جميع أهلها في استقبالهم، وقد فرشوا البُسُط، وبثُّوا الزَّرابيّ على طول الشاطئ.

❁ خطاب الشريف حسين:

تقدَّم الشريف حسين من السلطان، وقبَّل يده، ثم عانق شيخ الإسلام، وبعد السلام والتحية الرسمية، أضاف كلمات للتاريخ:

---

(١) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات وقال: إنما يعرف من كلام الفضيل بن عياض، وساقه الحاكم عن الفضيل بن عياض، ورواه البيهقي في مدخل السنن الكبرى (١: ١٧٢).

ـ سيدي السلطان، لم أشُقّ عصا الطاعة يومًا، ولم أتمرَّد على الأتراك والعثمانيين، ثورتي كانت ضد الظلم، وخروجي كان في وجه عصابة من الأشرار ضيَّقوا عليكم وطنكم الفسيح حتى ألجؤوكم للهجرة منه والرحيل عنه، وضيَّقوا علينا كذلك العالم الإسلامي على رَحابته.

استُقبل جميع القادمين ببالغ الحفاوة والتكريم، وأدَّوا مناسك العمرة في مكة المكرمة، وفي هذه الأيام كان الفيلسوف رضا توفيق مشغولًا بقياس مساحة الحرم الشريف وقُدرته الاستيعابية، وما إلى ذلك من أمور تتعلق بالحرم المكي.

وأثناء إقامة السلطان ومرافقيه في مكة المكرمة حلَّ فصل الصيف، وارتفعت درجات الحرارة كثيرًا، حيث عادةً ما تصل درجة الحرارة في أشهر الصيف في الظل إلى ٤٧ ـ ٤٨ درجة مئوية، ولما اشتدت الحرارة على الوفد دعاهم الشريف حسين للنزول في مدينة الطائف، حيث تقع على ارتفاع ٢٦٠٠ متر، وتتميز بدرجات حرارة معتدلة، تترواح بين ٢٦ و٣٠ درجة.

❁ مؤامرة إنجليزية:

ذهب الوفد إلى الطائف، وهناك زاد احتفاء الشريف حسين بأعضاء الوفد زيادةً ملحوظة، وكان شيخ الإسلام يقول:

كان أحد أغوات الحرم، ويُدعى شعبان آغا، رجلًا حادَّ الذكاء متوقِّد الذهن، وقد لاحظت أن شعبان آغا يُكثر اللقاء ببعض الأتباع المقرَّبين من الشريف حسين، فأخذَتْ تُساورني الشكوك، ولكن من الصعوبة بمكان تَقصِّي الخبر على وجه الدقة، فقد كان شعبان آغا خفيف

الحركة سريع التنقل، لا يستقر في مكان، ويَعسُر الإمساك به كصابونة في يد نَدِيّة.

وزادت شكوكي أكثر، وأخذ ينتابني الخوف من أنّ مخطَّطًا ما يُحاك في الخفاء، وحيلةً تُعَدُّ للإيقاع بنا، فتذرَّعتُ بمرضي لأجتمع بأطباء الشريف حسين، وكانوا من بقايا الأتراك الذين لم يخرجوا من الحجاز بعد خروج الجيش العثماني منها، فتحدثت معهم، وكانوا في قمة اللباقة واللطف، وحاولت استنطاقهم لأستشف ما يعرفون، وبعد البحث والتحري اتضح الأمر إلى حدٍّ ما.

فيبدو أن الإنجليز كانوا يستعِدُّون لتوجيه ضربة ثانية لنا، حيث يخطِّطون لإعلان الشريف حسين خليفة في الحجاز، وقد استضافنا باعتبارنا الخليفة وشيخ الإسلام السابقَين، وبالَغ في إكرامنا لنلتزم مُرغَمين بإعلانه الخلافة، ونبايعه امتنانًا له على حُسن ضيافته لنا في غربتنا وانتشالنا من عزلتنا.

فتُطِلُّ إثر ذلك فتنةٌ جديدة برأسها على العالم الإسلامي، حيث سيكون في إستانبول خليفةٌ هو عبد المجيد أفندي، وفي الحجاز خليفةٌ هو الشريف حسين، وستتوالى المصائب واحدة بعد أخرى.

فمن المعلوم أنه لا يجتمع خليفتان في وقت واحد، والحديث الصحيح ينص على ذلك صراحة[1]؛ لما ينتج عن ذلك من شِقاق وفتن وقتال بين المسلمين، إنها مؤامرة أخرى حاكها الإنجليز بدهاء وخُبث لإثارة الفتن مجددًا.

---

(١) يشير إلى حديث صحيح مسلم: «إذا بُويِعَ لخَليفَتَينِ فاقتُلوا الآخِرَ منهما» برقم (١٨٥٣).

❁ الرحيل عن الحجاز:

حين وقفت على الأمر وأدركت مراميه هدأت نفسي وسكنَت، وحمدت الله، فعلى الأقل نستطيع الآن اتخاذ التدابير اللازمة في الوقت المناسب، فذكرت لأعضاء الوفد ـ متذرعًا بمرضي ـ أنني أودُّ الرحيل، وكان صِهري الصغير زكي بك قد حاك في نفسه شيءٌ مما وقفت عليه، ولكن اعترض بعض الأصدقاء، وقالوا:

ـ يا فضيلة الشيخ، موسم الحج على الأبواب، فهل يُعقَل أن نرحل قبل أداء مناسك الحج؟

إلى غير ذلك من الاعتراضات، فقلت لهم:

ـ وهل الحج فرضٌ في حقّ أحد منكم الآن؟ ثم إنّ الحجَّ واجب فردي، ولكن إذا بَقِينا جميعًا هنا فإن مخاطر كبيرةً تلوح في الأفق، وستُثار مسألة الخلافة على الملأ، فإذا حدث ذلك فلن نستطيع تقديم البيعة، وإن اعتذرنا عن البيعة فسيرمون بنا إلى الشارع، أما اليوم فالشريف حسين يخطب وُدَّنا، ويسعى فيما يرضينا، ولن يتردَّد في تقديم سفينة تُبحِر بنا إلى أي مكان نريده، لكن ماذا سيحدث إذا طُرِدنا إلى الشارع غدًا؟ أنا شيخ إسلام تقدَّمَت به السنُّ، وجميعنا ليس لدينا في جيوبنا قرشٌ واحد، فعلينا أن نستفيد من هذه اللحظة التي ما زلنا نُعامَل فيها باحترام وإكرام، ونبتعد عن هذا المكان.

نما إلى سمع السلطان كلامي، فدعاني ليستطلع جَلِيّة الأمر، فخاطبت حضرته:

ـ أعرض بين أيديكم الأمر شريطةَ أن نكون وحدنا.

ـ تفضل، ليس ثمة أحد.

وأمر ألّا يُسمَح لأحد بالدخول، فعرضت الحال بين يدَيه.

وعندما قال: هل حقًّا ثمة شيء من هذا القَبِيل؟ لم أستطع إخباره بتخوُّفي من شعبان أغا، فهو رجل سوء قد يُلقي الفرية عليّ ويتهمني بما أتهمه، فقلت:

ـ سيدي، هذا ما يبدو لي، أشعر بشيء من ذلك، فأجاب السلطان:

ـ يا فضيلة الشيخ، والله لقد سئِمتُ من هذه الحيل والدسائس التي تُحاك في الخفاء، فإذا كنت ترى الرحيل فلنرحل.

وهكذا غادَرنا الحجاز، فنزلنا في اليونان، ثم مضينا بَرًّا إلى رومانيا، وأما السلطان فذهب إلى إيطاليا.

❊ ❊ ❊

مُعارضة صبري أفندي للسلطان وحيد الدين

يروي شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي ذكرياته حول معارضته السلطان في حادثة إرساله مصطفى كمال باشا إلى الأناضول[١] على النحو الآتي:

عندما ترجَّح لدى السلطان إرسال مصطفى كمال باشا إلى الأناضول أردت لقاءه لأمنع وقوع ذلك، أداءً لواجبي شيخًا للإسلام، حيث كانت تُساورني مخاوف من مصطفى كمال، بعثها في نفسي ما اجتمع لديَّ حتى ذلك الوقت من معلومات وإشارات، عزَّزَتها التحريات التي أجراها ميرآلاي صادق صبري بك[٢] ورفاقُه، وكانت تصُبُّ في الاتجاه نفسه، وقد حذَّروني من مصطفى كمال.

وكنت أريد أن أقول للسلطان وقتها: «جلالة السلطان، إن كنت قد عزمت لا محالة على إرسال أحد قادة الجيش لبدء حرب الاستقلال في الأناضول فليكن قائدًا آخر غير مصطفى كمال».

---

(١) بعد استيلاء الحلفاء على معظم مدن الدولة العثمانية، وإجبارهم حكومة السلطان على توقيع اتفاقية الصلح، لم يَجِد السلطان وحيد الدين بُدًّا من العمل سرًّا على إشعال حرب استقلال شعبية في وسط الأناضول، فكان الخلاف فيمن يتولى قيادة هذه الحرب.

(٢) هو شخص آخر غير الميرآلاي محمد صادق مؤسس حزب الحرية والائتلاف، أما هذا فهو صبري صادق بك، تخرج في الكلية الحربية في عصر السلطان عبد الحميد، وكان زميل دراسة مع القائد العسكري المشهور فوزي جكمك، ثم في أعقاب اشتعال حرب الاستقلال في الأناضول استقال من الجيش التركي برتبة أميرآلاي إثر معارضته لمصطفى كمال، وهاجر إلى مصر وأقام في الإسكندرية، وكان من أهل العلم والتصوف، سلك في الطريقة النقشبندية على الشيخ عبد الحكيم الأرواسي، وكان يعرف اللغة الفرنسية والعربية والفارسية والألمانية والإنجليزية، كان يأتي في الأسبوع يومًا واحدًا من الإسكندرية إلى القاهرة ليدرس الطلاب الأتراك في سكنهم بجانب الأزهر اللغة الفرنسية. انظر: مذكرات علي علوي كورجو (٢: ١٨٩).

❁ تبجيل ولد جلبي للسلطان:

لم يكن الصدر الأعظم فريد باشا[١] في إستانبول وقتئذ، وكانت صلاحياته وختم السلطنة السري معي، حيث إنني وكيله في غيابه[٢]، فاستأذنت السلطان في المثول بين يديه.



▲ ولد جلبي باللباس المدني قبل توليه مشيخة الطريقة المولوية

وعندما حضرت بين يدي السلطان فوجئت بولد جلبي في الحضرة السلطانية، ويبدو أنه كان يعرض أمرًا ما بين يدي السلطان، فلما رآني قطع

---

(١) محمد فريد باشا بن حسن عزت أفندي (١٨٥٣ ـ ١٩٢٣) الصدر الأعظم، وُلد في إستانبول، لأب كان من أعضاء مجلس شورى الدولة، ترقَّى في وزارة الخارجية وتزوَّج بأخت السلطان عبد الحميد الثاني الأميرة مديحة، فصار يُطلق عليه لقب الصهر فريد، وعُيِّن في مجلس شورى الدولة، إلا أنه اختلف مع السلطان عبد الحميد فانتقده وانتقد عصره بعد إعلان المشروطية الثانية، وانضم إلى جمعية الاتحاد والترقي، ثم انقلب عليهم، وانتقد سياستهم، فانتخب رئيسًا لحزب الحرية والائتلاف، وبعد تولِّي السلطان وحيد الدين الحكم عينه صدرًا أعظم عام ١٩١٩، وأوكل إليه مهمة تطهير الدولة من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، فشكَّل حكومته من أعضاء حزب الحرية والائتلاف وتولَّى هو وزارة الخارجية، خاض مفاوضات طويلة ومريرة مع الحلفاء والإنجليز خاصة بعد خروج تركيا من الحرب العالمية الأولى، ولكنه خرج منها خالي الوفاض، فاتهمه مصطفى كمال بالخيانة، وألحَّ البريطانيون والفرنسيون على السلطان لإقالة فريد باشا من منصب الصدر الأعظم؛ لأنه صار عقبة في وجه الاتفاق بين حكومة إستانبول وأنقرة التي لا بد منها للتصديق على معاهدة سيفر، فاستقال في ١٧ ـ ١٠ ـ ١٩٢٠، ثم انتقل إلى فرنسا وأقام في نيس إلى وفاته عام ١٩٢٣. انظر: جودت كجك، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة الصهر فريد باشا (٨: ٤٣٦).

(٢) تولَّى شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي مقام الصدر الأعظم وكالة في ٠٩ ـ ٠٦ ـ ١٩١٩ أثناء غياب فريد باشا للمفاوضات مع الدول الأوروبية في باريس. انظر: يوسف شوقي يافوز، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة مصطفى صبري (٣١: ٣٥١).



▲ ولد جلبي، شيخ الطريقة المولوية

حديثَه فورًا، ثم لم يَعُد إليه مرة أخرى، يبدو أنه لم يكن على علم بقدومي، ولم يخبره السلطان بذلك، فبقي الحديث معلَّقًا بينهما.

كنت قد رأيت ولد جلبي عدة مرات سابقًا، ولكن لم يحدث أن التقينا وجهًا لوجه على هذا النحو من قبل، هو من أهل قونية، ويُلقَّب بـ ابن الشيخ «مُلا أغلو»، حيث إنه ورث: مشيخة تكية المولوية في قونية عن عائلته(١).

(١) ولد جلبي إزبوداق (١٨٦٩ ـ ١٩٥٣) عالمٌ لغويٌّ وأديبٌ، وأحد شيوخ التكية المولوية المركزية في قونية، وُلد في مدينة قونية لأسرة تنتمي إلى مولانا جلال الدين الرومي من جهة الأم، ولذلك يلقَّب بجلبي، تلقَّى تعليمه الرسمي في المكاتب الرشدية، ثم انتسب إلى مدرسة سلطان ولد، وبدأ يظهر اهتمامه بالشعر والأدب في سن مبكرة، فدرس العربية والفارسية، وسلك في الطريقة المولوية كأجداده، وعمل معلمًا وصحفيًا، ثم انتقل إلى إستانبول عام ١٨٨٨، وأقام في تكية بَحارِيّة المولوية، فتعرَّف على أعلام إستانبول وشيوخ الطرق فيها، وكذلك ربطته بمثقفيها ومتنوِّريها علاقاتُ صداقة، وتقلَّد في إستانبول بعض الوظائف التعليمية والصحفية، ثم انتسب إلى جمعية الاتحاد والترقي في عصر السلطان عبد الحميد الثاني، وأنشأ جمعية الثقافة التركية، وفي عام ١٩١٠ عيَّنه السلطان رشاد شيخًا للطريقة المولوية في التكية المركزية بقونية، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى قاد فيلق مجاهدي المولوية للمشاركة في حرب القناة، وقضى ثلاث سنوات مع الفيلق في بلاد الشام ومصر والحجاز، وحصل على إجازة في الحديث من مُحدِّث دمشق بدر الدين الحسني، ومن الشيخ الكتاني في مكة المكرمة، وبعد وفاة السلطان رشاد وحلِّ حكومة الاتحاد والترقي عُزِل من منصب شيخ التكية المولوية باقتراح من شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي، حيث إن تعيينه في المنصب كان مخالِفًا لتقاليد الطريقة المولوية، ويرجع لنشاطه السياسي وليس لأهليته، ولكنه لم يلبث أن انضم إلى مصطفى كمال في حركة =

وقبل انصرافه أدّى فروض التبجيل والتعظيم للسلطان، وحيّاه تحيةً لم أشهد مثلها من قبل في حياتي، ولا أُقدِّمها لأحد ما حييت، حيث إنه بالغ في تبجيل السلطان والانحناء له حتى كاد أن يلثم الأرض بين يدَيه، عجبًا له! كم تدرَّب على مثل هذه الحركات!

وقد كان الشيخ زين العابدين أفندي نائب قونية في البرلمان، والرجل الذي أيقظَنا من غفلتنا، وكشف الغشاوة عن أبصارنا، ورفع راية النضال (في وجه الاتحاديين)، ودعانا للانضمام إليها، كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرًا ما يتذمَّر من ولد جلبي، ويحذِّرنا منه:

«كونوا منه على حذر، واتقُوا شَرَّه ما استطعتم؛ فإنه متلوِّن كالحِرباء، ومتقلِّب الودِّ لا يُؤتمن، يلبس لكل حال لَبوسًا، فإن كان بين الصالحين صار إمام المتقين، وإن كان بين الفجار تربَّع على عرش الضلال، فإنه رجل بلاء وفتن».

كان ولد جلبي يتواطأ مع الاتحاديين، ويتعاون معهم دائمًا، ويبدو أنه جاء موفَدًا من مصطفى كمال ليشُدَّ على يد السلطان فيما عزم عليه.

ولكن عندما فوجئ ولد جلبي بدخولي استاءَ وامتعَض، ولما علم أنه لن يستطيع إتمام حديثه بحضوري لم يُطِل المقام فاستأذنَ وانصرف، وحيّا السلطان بطريقة تفيض تزلُّفًا وتملُّقًا ثم خرج، وبعد انصرافه قال السلطان:

= التحرير التي أعلنها في الأناضول، وتولى عدة وظائف رسمية في حكومة أنقرة، وكان يفتخر أنه من أوائل من نادى بالنزعة القومية التركية، ولذلك اهتم بإنشاء مجمع اللغة التركية، وكتب دراسات كثيرة حولها، وبقي يمارس نشاطاته الثقافية والعلمية في أنقرة إلى وفاته. انظر: مصطفى كارا، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة ولد جلبي إزبوداق (٢٣: ٥٠٣).

ـ يا له من رجل لَبِق وعَذْب، إنه لطيــف جدًّا، أليس كذلك يا فضيلة شيخ الإسلام؟

فاهتبَلتُ الفرصة لأُبلغ السلطان رسالتي، وأدفعه لفتح باب الحديث فيما أتيتُ لأجله، وقلت:

ـ إنه ممثِّل محترف يا سيدي، يتقمَّص الدور جيدًا.

❁ ثقة السلطان المطلقة بمصطفى كمال:

ثم شــرعت في عرض المسألة بين يدي الســلطان، وأخذنا في الحديث الذي طال كثيرًا، فلما حان وقت الطعام تناولنا الطعام وفقًا لعادات القصر، ثم قُدِّم إلينا الشــاي فشــربناه، ثم دخل وقت العِشــاء فأدَّينا الصلاة معًا، وطيلة الحديث كان السلطان يكرِّر قوله:

ـ يا فضيلة شيخ الإسلام، المسألة في غاية الوضوح؛ كل ما أريده أن أُنقِذ وطني بأي ثمن كان، أنا أريد أن أنقذ وطنــي فقط، أما فضيلتكم فيبدو أنكم تخشَون ضياع ملكي، وانفلات زمام الســلطنة من يدي، ولذلك تسعون في حمايتها.

فعقَّبتُ على هذا الكلام بقولي:

ـ يا مولانا الســلطان، لا تحوم مخاوفي حول ســلطتك وحُكمك، وإنما تتعلق بديننا، فأخشى ما أخشــاه أن يكون قراركم هذا ســببًا في ضياع دين البلاد؛ فإن الســلطة إذا ولَّت خلفَتها ســلطةٌ أخرى، ولكن إذا خسِرنا الدين فكيف نستعيده؟ وإن ضاع الدين من أيدينا فلا يرجع إلى سالف عهده ثانية، هذا هو ما أخشاه.

ومما قلته أيضًا:

ـ إن كنا لا بد فاعلين فلنُرسِل شـخصًا آخر، فلنبحَث عن قائد نثِق به لأداء هذه المهمة، وليكن لكلامي أثر في اتخاذكم القرار الأخير، فلئن كنتم ترون أنفسكم خليفة لهذا الأمة، فأنا شيخ الإسلام، وصاحب القول الفصل في بيان حكم الدين بين أيديكم، وأتحمَّل من المسـؤولية إزاء هذا القرار بقدر ما تتحمَّلون.

ولكني رأيت أن ثقة السلطان بمصطفى كمال كانت ثقة مُطلَقة، حتى إنه قال لي:

ـ أنت تفهم الأمور على غير وجهها، وتسـيء به الظن، لقد ربطتني بمصطفى كمال صلاتٌ وعلاقاتٌ جعلتني أثق في فكره وعقله وذكائه.

يا فضيلة شيخ الإسلام، مصطفى كمال قائدٌ في الجيش، يدرك غايتنا، ويُحِسُّ بآلامنا، ويحمل هَمَّ البلاد في نفسه... إنه شُعلة ذكاء متَّقِدة، شعلة ذكاء متَّقِدة.

۞ واجب البلاغ:

يتابع شيخ الإسـلام مصطفى صبري أفندي حديثه قائلًا: رأيت السلطان لا يفتأ يكرِّر مقولته: «إنه شعلة ذكاء متَّقِدة»، فأدرَكت أن لا فائدة، وآثَرت أن أختم الحديث بالكلمة الأخيرة، فقلت:

ـ سيدي، كما تعلمون، أن النبي ﷺ...

وعندما أخذت في الكلام على هذا النحو، وما إن أتيت على ذِكر اسـم النبي ﷺ حتى اغرورَقَت عينا الرجل المسكين بالدموع، فمضيت في حديثي:

ـ ... فإنكم تعرفــون جيدًا آخــر كلماته فــي خطبة الوداع، وهــا أنا ذا أخاطبكم اقتداءً به: ألا هل بلغت، اللهم فاشهد، أبلِّغُكم صرخةَ رُوحِي ونداء إيماني، وأبلِّغ الإنسانية كلها، أداءً لأمانة مقام شيخ الإسلام.

مولاي السلطان، أرجو لآخر كلماتي أن تطرق شَغاف قلبكم، إن القوة أو السلطة التي لا تســتطيع الدفاع عن الإســلام وتعجز عن حمايته إذا رحلت ستحل مكانها سلطة أخرى، وتعتلي العرش حكومةٌ جديدة، ولكن إذا تقوَّض الدين، فلن يقوم مقامه دينٌ جديد، سيدي السلطان، كلُّ هَمِّي هو الدين...».

وعقب هذه الكلمات ظهر على السلطان التأثُّر، فقال:

ـ نعم، هدفنا واحد، ولكن وجهات نظرنا متباينة.

ثم أنشد بيتًا من شعر ضياء باشا: «مقصدنا جميعًا واحد، وأما رؤانا إليه فشتى».

وفي هذه الأثناء ترامى إلى مسامعي صياح الديكة مُؤْذِنًا باقتراب الفجر، فافترقنا.

❁ قد أصابنا ما أصابنا:

ومرَّت الأيام تباعًا حُبلى بالأحداث العِظام، فاضطررنا للهجرة من وطننا، أبحرنا بمعية السلطان إلى الإسكندرية، ثم يمَّمنا نحو مكة والطائف، ثم أقام السلطان ومرافِقوه في إيطاليا، واستقر بي المقام في رومانيا، وافترقت طرقنا.

وفي ذات يوم، عندما سمعت بمَرض السلطان عزمت على زيارته، فركبت القطار من رومانيا، وقد كان ـ بعد أن وقــع ما وقع، وتحقَّقت مخاوفي التي حذرته منها ـ يظن أني ما زِلت غاضبًا أو ســاخِطًا على سياسته، ولكنه ما إن رآني حتى تهلَّلَت أساريره واستبشر قائلًا:

ـ جزاك الله خيرًا يا فضيلة شيخ الإسلام، تحمَّلتَ كل هذا العناء في سبيل زيارتي، لقد شرَّفتَني، هكذا الصديق وإلا فلا.

وسألني: كم ستبقى؟

فأجبته:

ـ سيدي، لو أذِنتم لي فَلأُقِم ثلاثة أيام على الأقل، حتى أستريح من وعثاء السفر، ومشقة الطريق الذي يرهقني بحِرماني من النوم فيه، فقال السلطان:

ـ فضيلة شيخ الإسلام، أنت رجل لا تُطِيق الفراغ أبدًا، لا بد أنك تشغل نفسَك بعملٍ ما، هل كتبت مذكرات أو شيئًا كهذا؟ لقد قعد بي ضعفي ومرضي عن الإمساك بالقلم، أمّا أنت فرَبُّ قلم وفارس مِحبَرة، لا يَقَرُّ لك قرارٌ ما لم تُفضِ للأوراق بكلِّ ما في نفسك.

وقد كنت سابقًا سوَّدت ما يقرب من ثمانين صحيفة، أودعتها بعض ذكرياتي، وسميتها «قد أصابنا ما أصابنا»، وكانت إلى جانبي، فقلت للسلطان:

ـ مولاي، لقد كتبت شيئًا قليلًا.

ـ لو أني قرأتُها؟

فوضعتها في ظرف، وتركتها بين يدَيه.

❁ هل كان السلطان غبيًّا؟

مما كنت قد كتبته في المذكرات بعد أن سردت ما دار بيني وبين السلطان من حوار طويل:

في ذلك اليوم، وبينما كان السلطان يُنَقِّل الخُطا جِيئةً وذهابًا دون أن يُعِيرَني أذن قلبه، أو يسمعني كما سمع صوت الدِّيكَة التي تُؤذِن بانبلاج الصباح، كان كلما عرضتُ له حجة التفَّ عليها بقوله: خلافٌ في وجهات النظر، ولم تسعفني كل محاولاتي في إقناعه.

وفي زيارتي هذه رأيت السلطان في حال يُرثَى لها من البؤس والشقاء، وقد بدَت معالم الحزن جليّةً عليه، أما أنا فابنُ قرية من قرى الأناضول، ترعرعت في المدارس الدينية، وخَبَرت السجون، وعاركت الحياة حتى أنضجَتنِي تجاربُها، فما عُدت أُلقي بالًا لتقلُّباتها، ولكن ماذا عن السلطان؟

في هذه الزيارة، اكتشفت أيضًا أن السلطان قد خسر خمسمئة قطعة ذهبية، نجح إسماعيل كومولجينلي في اقتناصها منه بالحيلة والتصنُّع، وبفضل الله تمكَّنت بمساعدة أحمد حمدي بك طوبّاش من استعادتها بعد أن نقصت عشر قطع، وقد استعانوا بها على الأقل في سدِّ رَمَقِهم لبعض الوقت.

❁ كلمة صديق:

بعد ثلاثة أيام عندما زرت السلطان لوداعه قبل عودتي، رأيته وقد استبَدَّ به الحزن، وأخذ منه كلَّ مأخذ، فأعاد لي مذكراتي، وقد وضعها في ظرف آخر.

فسألت: مولاي، هل سنحَت لكم الفرصة لقراءة شيء من المذكرات؟

فأجابني: لقد قرأتها، إنّ كلمة الصديق تُلامِس شَغاف قلب المرء.

فكان لكلمته هذه وقعٌ شديدٌ على نفسي، كأنها رصاصة أصابتني في مقتل، وتمنَّيت لو لم أُعطِه إياها حتى لا أزيده هَمًّا على هم، وكَمَدًا فوق كمد.

وطبعًا بقي ما دار من حديث بين مصطفى صبري أفندي والسـلطان في تلك السـاعة حبيس جـدران الغرفة، لم يَطَّلـع عليه أحـد، فلا بد أن تلك الصفحات التي أفرغ فيها مصطفى صبري أفندي بعض ذكرياته على قدر كبير من الأهمية.

وقد استمعت ـ العبد الفقير ـ لميرآلاي صادق صبري بك نفسِه عن جوانب أخرى من القصة تؤكد ما حكاه مصطفى صبري أفندي، وخاصة فيما يتعلق بمصطفى كمال، أدرجتها في القسم الخاص بذكرياتي معه رحمه الله تعالى.

اللغة الإنجليزية بديلٌ عن اللغة التركية

كان مصطفى صبري أفندي رجلًا راجح العقل، حادَّ الذكاء، ألمَعِيًّا، بصيرًا بالعواقب، بعيد النظر، يعقِل كل مسألة على وجهها الصحيح، ويُقلِّبها في جميع سياقاتها، وعلى كل زواياها، حتى يَسبُر أغوارها، ويخمِّن عواقبها بمحاكمة صائبة وبصيرة نافذة، وكلماتُه حول اللغة التركية واحدة من هذه الرؤى البعيدة.

كان رَحِمَهُ اللهُ يتوقَّع أن تفقد اللغة التركية مكانتها لغةً للعِلْم بما جَنَوه عليها من استبعاد مفرداتها الأصيلة بجذورها، والغنية بمعانيها، ليستبدلوا بها كلمات حادثة الاستعمال، ضحلة المعاني، بسيطة التعبير، مما سيؤدي لاحقًا لاعتماد اللغة الإنجليزية مكانها لغةً للعلم، ومما يزيد هذا الرأي أهميةً أن الشيخ مصطفى قاله في فترة مبكرة قبل عام ١٩٤٠م.

وعندما استمعت في السنوات الأخيرة إلى إثبات هذه الادِّعاءات بالأدلة والوثائق التي قدَّمها المؤرخ قدير مصر أوغلو[1] زاد عجبي من تنبُّه مصطفى

---

(١) قدير مصر أوغلو (١٩٣٣ ـ ٢٠١٩) وُلد في مدينة طرابزون ليلة ٢٧ من رمضان، فسمَّاه والده على اسم ليلة القدر، تلقَّى تعليمه الأوَّلي في مدينته، ثم انتقل إلى إستانبول ودرس فيها الحقوق، واشتغل بالصحافة والكتابة التاريخية، انتقد مصطفى كمال وحزبه وسياسته في سلخ تركيا عن دينها وحضارتها وتاريخها، وكان من أهم الشخصيات الإسلامية التركية التي فضحت ممارسات الكماليين ضد الشعب التركي وهويته، وأثارت مقولاته وكتاباته وأبحاثه التاريخية الجدل كثيرًا بين مؤيد ومعارض في تركيا، ألَّف كتابه الأول «معاهدة لوزان نصر أم هزيمة» عام ١٩٦٤، وتوالت كتاباته التي لوحق بسببها وتعرَّض للسجن والنفي، كان مشهورًا بخطبه ودروسه المؤثرة التي يلقيها على الشباب التركي في جمعيته التي أنشأها في أسكودر، واستمر على ذلك إلى أن توفي في إستانبول. انظر: ترجمته التي كتبها بنفسه في صفحته الرسمية على الإنترنت (https://kadirmisiroglu.com/tercemei-hal.html).



▲ المؤرخ الإسلامي قدير مصر أوغلي



▲ المؤرخ الإسلامي قدير مصر أوغلي قبيل وفاته

صبري أفندي لهذه الحقائق نفسِها قبل سنوات طويلة بفضل محاكمته وبصيرته ورؤيته.

وقلت في نفسي: ليتَ فضيلة الأستاذ ما زال على قيد الحياة ليستمع إلى قدير بك.



▲ فريد وجدي

❁ كلمة فريد وجدي:

أثناء إقامة مصطفى صبري أفندي في تركيا كانت تدور سجالاتٌ فكرية حامية الوطيس بينه وبين أولئك الذين يتبنّون فكرًا معاديًا للدين، أو الذين ينادون بتجديده متظاهِرين بصدق النوايا وحُسن المقاصد.

وكذلك أثناء إقامته في مصر لم يتوانَ أبدًا عن التصدي لثُلّة من العلماء والمفكرين الذين لجؤوا إلى تحريف أصول الدين؛ عداءً أضمَروه للإسلام، أو استمالةً لجيل الشباب الصاعد، فردَّ افتراءاتهم، وبيَّن ضلالاتهم، وكشف زيف افتراءاتهم.

فكان ـ بما آتاه الله من منطق سليم، وحُجة مُفحِمة ـ يدافع عن أفكاره بأسلوب مُحكَم رصين، ويحجُّ خصومَه فلا يُحِيرون جوابًا، حتى إنّ أحد مشاهير كُتّاب مصر فريد وجدي بك، قال في مصطفى صبري أفندي في معرض ردِّه عليه في أحد مقالاته: «ولقد بثَّ الرعب في نفوس أساتذة الأزهر، وظن أنه سيُخِيفُني أيضًا...».

❊ ❊ ❊

كتاب موقف العقل

«موقف العقل والعلم والعالِم من ربِّ العالمين وعبادِه المرسلين»، هو عنوان الكتاب الضخم الذي كانت نواته الأولى جوابًا كتبه مصطفى صبري أفندي على بعض المفكِّرين، ثم ما زال يتوسَّع في الجواب حتى خرج في أربعة مجلدات كبار، واشتهر هذا العمل باسم «موقف العقل» اختصارًا، وقد نُشر لأول مرة باللغة العربية في القاهرة عام ١٩٥٠.

وترجع قصة الكتاب بدايةً إلى ما تناقَلَته الصحف المصرية من أخبار حول تجاهُل تركيا مدَّ يد العون والمساعدة لبعض البُلدان الإسلامية المنكوبة.

فكتب على إثر ذلك المؤرخ المصري محمد عبد الله عنان مقالًا في جريدة الأهرام اليومية[1]، وختمها بالقول:

«ولن يَضِير الإسلام أن تسقط من عِداده تركيا الكمالية، وإذا كان الإسلام لم يعتزَّ قطُّ بتركيا يوم كانت دولةً قويةً شامخة، فكيف يحاول اليوم أن يعتزَّ بهذه البقية الضئيلة من تركيا القديمة؟».

فأرسل الأميرآلاي صادق صبري بك إلى الشيخ مصطفى صبري أفندي بهذا المقال المُسيء، ملتمسًا منه الرد عليه.

وهكذا بدأت الأفكار التي كُتِبَت ردًّا على تلك المقالة تنمو وتتَّسِع، ففكرةٌ تستدعي أختَها، وبحثٌ يفتح الباب لآخر، وتعاظمت الأفكار والردود، إلى أن نسجت هذا العمل الكبير الذي جاء في أربعة مجلدات.

(١) نُشِر المقال في مجلة الرسالة تحت عنوان «حرب منظمة يُشهرها الكماليون على الإسلام»، في العدد ٨٠ الصادر بتاريخ ١٤ يناير ١٩٣٥.

يُعَدُّ هذا الأثر جهدًا مهمًّا تنـــاول بالتحليل موقف العقل والعلم والعلماء في ظل البيان القرآنـــي والنبوي، ودرَس عقيدة التوحيد في الإســـلام مقارنةً بالعلم والعقل والفلسفة والتصوف والتاريخ، وقيَّم كلَّ ذلك في ضوء الوحي القرآني والحديث النبوي.

وأثناء إقامتي في القاهرة أعَدتُ كتابة أثره السابق «موقف البشر تحت ســـلطان القدر» مرة أخرى قبل تقديمه للمطبعة، حيث إنّ الرّعشـــة التي أصابت يدَي الأســـتاذ مصطفى صبري أفندي أواخر عمره حالت دون أن يتمكَّن مُنَضِّـــد الكتب في المطبعـــة من قراءة النص وتنســـيقه على نحوٍ صحيح.

وكذلك أعاد علي يعقوب بك[1] ـ أثناء غيابي عن القاهرة ـ كتابة العمل الثاني الأكبر «موقف العقل» قبل إرساله إلى المطبعة.

(١) علي يعقوب جنكجيلر (١٩١٣ ـ ١٩٨٨) أحد علماء الدين الأتراك في عصر الجمهورية، وُلد في مدينة جيلان بإقليم كوسوفو، دخل مدرسة النواب في سراييفو، ثم انتقل إلى القاهرة عـــام ١٩٣٦، وتابع تعليمه في كليـــة أصول الدين في الأزهـــر، ولازم مجالس العلماء الأتراك مثل مصطفى صبـــري أفندي وزاهد الكوثري وإحســـان أفندي، عمل موظفًا فـــي مكتبة القاهـــرة المركزية بين عامَـــي ١٩٤٦ ـ ١٩٥٧، ومترجمًا في الســـفارة المصرية بأنقرة بين عامَي ١٩٥٧ ـ ١٩٥٩، ليســـتقيل بعدها، وينتقل للإقامة في إستانبول عام ١٩٦٠، فحصل على الجنســـية التركية، وعمل محاســـبًا في إحدى الشـــركات، إلى جانب تدريســـه كتب العلوم الشـــرعية في مســـاجد حي الفاتح، ودرَّس علمَ التفسير والبلاغة والكلام في مركز إعداد الأئمة بين عامي ١٩٧٦ ـ ١٩٨٠، وترجمَ عدة كتب إلى اللغة التركية، منها «جاهلية القرن العشـــرين» لمحمد قطب، أصيب بالشلل عام ١٩٨٣، وبقي كذلك إلى وفاته. انظر: أكمل الدين إحســـان أوغلو، موســـوعة شـــؤون الديانة التركية، مادة علي يعقوب جنكجيلر (٧: ٣٧٠).

شكوى شيخ الإسلام من علماء مصر:

كان مصطفى صبري أفندي يشكو من علماء مصر، ويقول:

ـ شعورهم بالاستخذاء وعُقدة النقص أمام أوروبا في المجالات المادية انتقلت عدواه إلى موقفهم من القضايا الروحية والفكرية أيضًا، فانعكس ذلك خواءً روحيًا وصل بكثير من علماء مصر ومفكريها إلى حال صاروا يتألّفون فيها قلوب المثقّفين خشيةَ انسلاخهم عن الدين جملةً، حتى وصل بهم الأمر أن أنكَروا في سبيل ذلك أشياء من ثوابت الدين، فتراهم يقولون: إذا كان هؤلاء المثقفون المتنوِّرون لا يؤمنون بالمعجزات، فلْنُضَيِّق من مساحتها في الدين، ولْنؤوِّلها بما يتوافق مع المنطق والعلم الحديث حتى لا نُنفِّرهم من الإسلام، ولنقدِّم لهم النبيَّ كداهيةٍ وعظيمٍ وعبقري...»، وهكذا انحرفوا هم أنفسهم عن الجادة والصراط المستقيم.

وكان كثيرًا ما ينتقد محمد عبده، فقلت له ذات مرة:

ـ أستاذي، وكأني بمحمد عبده في الوقت الذي كان يحاول جاهدًا استقطاب المثقفين التنويريِّين والأوساط الفكرية المتغرِّبة إلى صف الإسلام، نجحوا هم بقوة تأثيرهم عليه في استمالته إلى صفهم.



△ محمد عبده

فأعجبته كلماتي كثيرًا، وقال:

ـ ما شاء الله، بُورِكت يا علي الصغير! ما شاء الله! أثَرُ آبائك وأجدادك ومدرسة إصلاح المدارس يَسري إليك، ما شاء الله يا بني! حقًّا هذا ما حصل، بينما كان عبده يحاول استمالتهم ألحقوه هم بصفوفهم... الرجل المسكين،

لم يذهب في حياته كلها ولو مرة واحدة إلى مكة التي تقع على مرأى منه في الضفة المقابلة، لكنه كان يتكلَّف عناء السفر إلى باريس مرتين في السنة.

❁ القناعات الخفية:

وعندما ساقنا الحديث في ذلك اللقاء إلى فريد وجدي كان الشيخ يقول:

- يا إلهي، ماذا جرى لفريد وجدي، ما هذه الحال التي وصل إليها في الأيام الأخيرة؟ يبدأ مقاله بالرد عليَّ والاستهزاء بي، فيقول عني: «لقد بثَّ الرعب في نفوس أساتذة الأزهر، وظن أنه سيخيفني أيضًا»! ويتلخَّص كلامه في هذه المقالة في النقاط الآتية:

ظهر في الغرب اليوم عِلمٌ حديث، وأحكَمَ سلطته على كل شيء حتى الدين، ولما عجزَت الأديان عن مواجهته والصمود أمامه رمى بها في مزبلة الأوهام والخرافات، وعندما بدأ الشرق يمدُّ جسور التواصل مع الغرب تأثَّر مثقَّفوه بقناعات مفكري الغرب تجاه الدين وتبنَّوها.

هذا ما يخُطُّه فريد وجدي بقلمه صراحةً دون أي مواربة في هذه الفترة، وأنا على علم أن كثيرًا من مثقفينا قد تبنَّوا مثل هذه القناعات تجاه دينهم، وفقدوا اعتقادهم به، ولكنهم يُخفون في أنفسهم ما لا يتجاسَرون على إبدائه وإظهاره أمام الخَلق.

ما كتبته هو في الواقع لكشف القناع عن طوية نفوس هؤلاء وأمثالهم، وفَضحِ خبيئة ضمائرهم، ولذلك يخافونني.

عندما تولى وجدي رئاسة تحرير المجلة التابعة للأزهر غيَّر اسمها من «نور الإسلام» إلى «مجلة الأزهر»، فكان إشارة إلى انطفاء نور الإسلام عن هذه المجلة الوليدة.

❁ عِدّة الأحاديث الشريفة:

وما هـذه إلا علامـات على إلحاد هـذا التيـار الحادث الذي يسـمّى بالوضعيـة، فهم لا يؤمنون إلا بالمحسـوس، وبناءً عليـه ينكرون معجزات الأنبياء، ويلجؤون إلى تفسيرها تفسيرًا ماديًا، وإذا جُوبِهوا بالآيات الواضحات التي تردُّ ما يدَّعونه وتشهد لما ينكرونه من حقائق، تذرَّعوا بأنهم لا يستطيعون فهم معانيها.

وتعامَلوا مع الأحاديث بالمنطق نفسـه، فقلَّلوا عدَدَها شيئًا فشيئًا، حتى أبقوا منها على بضعة أحاديث ليس غير، وبحسب قناعاتهم لا يكون الحديث صحيحًا ما لم يَروِه كل الصحابة.

أما الحديث الذي يرويه آحاد الرواة فلا يُقبَـل البتة في نظرهم، لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أشـخاصًا صادقين أجِلّاء، لـم يَجرِ الكذب على ألسـنتهم طوال حياتهم؛ لأنهم يعرفون وبالَ جريمة الكذب على النبي ﷺ، فقطعًا ما كانوا ليتلبَّسوا بشيء من ذلك.

لكن هـؤلاء ـ الوضعيين ـ همُّهم إبطال العمـل بالحديث، وإلغاء مبادئ الدين وأصولـه ليتحرَّروا من مسـؤوليتهم تجاههـا، وإلا فلا يهتمون بصحة الحديث أو ضعفه، وأصلًا ادِّعاءاتهم لِسُخفها تبعث على السخرية، فهل يُعقل ألّا يقول النبي ﷺ خلال ثلاثة وعشرين عامًا إلّا هذا النزر القليل من الأحاديث التي قَبِلوها، وهو الذي أمضى حياته يُعلِّم آلاف الناس، مبلِّغًا الدين، وشارحًا القرآن الكريم، وأخرس ببلاغته أدباء العرب وفصحاءها، فأين ما يشير إلى كل هذا، ألم يقل شيئًا؟! ما هذه الادِّعاءات السخيفة والمزاعم المضحكة؟!

فهل من المنطق أن النبي الأكرم ﷺ عاش ثلاثة وعشـرين عامًا وقد أمسك لسانه عن التعليم والتبليغ؟ إذن مَن هذا الذي ربّى كلَّ هؤلاء الصحابة وعلَّمهم؟

❁ عندما يغيب الإيمان، يغيب معه العقل والمنطق أيضًا:

نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى، ومن الكفر بعد الإيمان، ونسأله ألّا يسلب أحدًا إيمانه، فالإيمان رأس مال الإنسان، وأُسُّه، وروحه وجذره، وإذا خسر المرء إيمانه فقد خسر عقله ومنطقه أيضًا، وعندئذ يصير كَلأً مباحًا، يتغلغل فيه كلُّ فكر باطل منحرف.

وهؤلاء الذين ذاع صيتهم في تركيا خلال السنوات الماضية، بعد أن تفانَى محمد عاكف وتحمّس لترجمة آثارهم بطلاقة أسلوبه وجمال بيانه، ومنهم الشيخ محمد عبده، وفريد وجدي بك، عندما رأيت ما آلت إليه حالهم صرتُ أُكثِر من تكرار تلاوة هذه الآية الكريمة: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

وقد كان من دعاء النبي الكريم ﷺ أيضًا: «يا مُقلِّب القلوب، ثبِّت قلبي على دينِكَ، إنّه لَيس آدميٌّ إلّا وقلبُه بين أصبُعَيْن من أصابع الله، فمَن شاء أقامَ، ومن شاء أزاغَ»(١).

❁ ❁ ❁

(١) الترمذي، السنن، أبواب القدر، باب ما جاء في أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم (٢١٤٠)، أحمد، المسند (١٢١٠٧).

المجلس فترة الهدنة

ويأتي الشيخ مصطفى صبري أفندي على ذِكر الأيام التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، واضطرار تركيا لتوقيع اتفاق الهدنة بعد خروجها من الحرب تجرُّ أذيال الخيبة والهزيمة، فيقول:

وضعَت الحرب أوزارَها، وفرَّ إلى خارج البلاد أولئك الثُّلة الذين كانوا قد أمسَكوا بزمام الأمور، فأحرقوا البلاد ودمَّروها وأغرقوها، وأدخَلوها أتون الحرب، حتى دون استشارة السلطان في مثل هذا الأمر الخطير، وتركوا البلاد تواجه مصيرها وحيدة بعد الحرب.

افتُتِح البرلمان، وكان السلطان هو وحيد الدين، وأنا شيخ الإسلام، وألقى السلطان كلمةً خاطَبَ فيها جميع النواب: «لا تُفارِقوا العدالة، قد حدث ما حدث، أما الآن فألقُوا الكراهية والعداوة جانبًا، واشتغِلوا بإعمار البلاد، فقد شهدت كوارث ومصائب كثيرة، كونوا إخوة، لا أعداء»، إلى آخر مثل هذا الكلام.

❁ **يجب أن نضحي بإنسان لا جمل:**

ولما انصرف الجميع بقِيتُ وبقي بعض الأصدقاء أيضًا، فقال السلطان:

ـ فضيلة شيخ الإسلام، ها قد انجلَى غبار الحرب، ووضع كلٌّ طرف سلاحه، علينا الآن أن نضحِّي بجَمل شكرًا لله تعالى... فأجبته:

ـ مولاي السطان، بل علينا أن نقدِّم إنسانًا لا جملًا. ثم تابعت: لن تتحقق العدالة ما لم يُحاسَب المتسبِّبون بكل هذه الجرائم والكوارث، وما سال بسببها من دماء بريئة على أرض هذه البلاد... لقد أمَرتم بالعدالة، ولكن

هؤلاء الآن سَــيَلُوكون هذه الكلمة بأفواههم مثل العِلْكة، ولن يُقِيموا لها أي وزن أو قيمة.

مولاي الخليفة، العدالة كلمة عربية، تأتي من «المعادلة»، في إشارة إلى أن شـــدة العقوبة يجب أن تكون متناســبة ومعادِلةً لقبح الجريمة، أما إذا لم يخشَ القاتل أو الظالم عقوبةَ ما اقترفت يداه، فلن تتحقَّق عدالة، ولن يرتدع ظالم عن ظُلمه.

فالإســلام لا يقصِد من فرض العقوبة تعذيب المجرِم، بل يريد تخويف الآخرين، الذين قد يفكِّرون في ارتكاب الجريمة، أو يخطِّطون لها، بالعقوبة التي تنتظرهم إن هم تجاوزوا الحدود، فالعقوبة رسالةٌ يُرسلها الإسلام للقادر على الظلم حتى يرتدع عن ظُلمه.

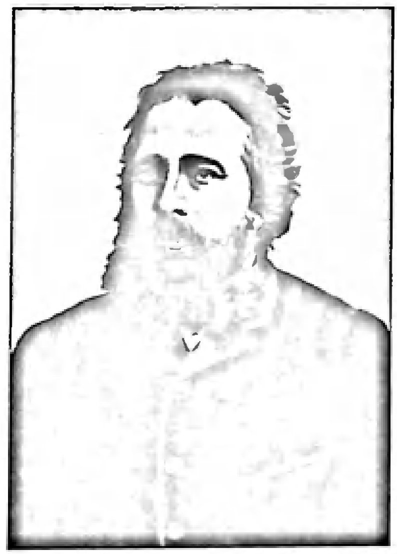
فعلى سبيل المثال، ليست الغاية من عقوبة قطع يد السارق ـ عند تحقُّق شــروطها ـ مجرد قَطع اليد، بل الهدف هو أن تكون عبرة لكل من تُسوِّل له نفسُه الإقدام على الســرقة، فيرتدع عن هذه النية السيئة كلما رأى يد السارق المقطوعة أمامه.

وقد قِيل قديمًا: «درهــم وقاية خيرٌ من قنطار عــلاج»، فلحماية المجتمع ووقايته يجب أن يُعاقَب المجرمون بما يستحقون من العقوبة، وهذا هو العدل.

ثم في يوم من الأيام لاحظت النواب في البرلمان يتحدَّثون قائلين: «فلنلتزم العدالة!»، فقلت لهم:

ـ لقد قدَّمت ذلك أيضًا بين يدي مولانا السلطان، العدالة تأتي من كلمة «معادلة»، عندما تُطبَّق عدالة حقيقية في هــذه البلاد المنكوبة فإن دماء كثيرة ستسيل، هل يمكن أن تتحقَّق عدالة دون محاسبة مرتكِبي هذه المصائب؟

نامق كمال وضياء باشا



▲ نامق كمال



▲ الشاعر ضياء باشا

سألت الشيخ مصطفى صبري أفندي ذات مرة عن رأيه في الشاعر ضياء باشا[(١)]، فقال لي:

- إنه يأخذ عليَّ مَجامع نفسي، وأطرَب له أيَّما طرب، فإنه - من بين الأدباء الأتراك - صاحب قلم يُحَلِّق بالإنسان في عوالم أخرى[(٢)].

وكان حسين سيرت بك[(٣)] يأتي لزيارة مصطفى صبري أفندي كثيرًا،

---

(١) ضياء الدين عبد الحميد باشا (١٨٢٩ - ١٨٨٠) رجل دولة ومفكر وصحافي وشاعر، كان من أعلام الأدب في عصر التنظيمات، كتب أشعارًا باللغات العربية والفارسية والتركية. انظر: عبد الله أوجمان، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة ضياء باشا (٤٤: ٤٥٧).

(٢) ورد هذا السؤال في موضع آخر من الذكريات. انظر: علي علوي كورجو، الذكريات (١: ٣٤٨).

(٣) حسين سيرت أوزسفر (١٨٧٢ - ١٩٥٩)، شاعر وأديب تركي، اشتهر بقصائده التي كتبها في =

وكنت حاضرًا في بعض اللقاءات، وكانوا يتحدثون عـن الأدباء والشـعراء القدماء، فذكر سـيرت بك قوة وجَزالة شـعر نامق كمـال(١) وضياء باشـا، فعقَّـب مصطفى صبري أفندي بقوله:



▲ حسين سيرت

- هؤلاء ترعرعوا في ظلّ دولة عظمى، فضلًا عن أنهم هم أنفسـهم كانوا مثقَّفين ومُجدِّين، لقد سارت أشعار ضياء باشا في كل مدينة، وشاعت على كل لسان، ففنون النظم وروائع الشـعر ليست أعمالًا يكتبها الإنسـان متكِئًا على أريكتـه في حال من السـرور والمتعة، إنها أعمالٌ تُكتَب بعناية بعد قـراءات ودراسـات كثيـرة، ومعرفة عميقة واسعة، هؤلاء أناس تعلّموا وكتبوا.



▲ إسماعيل حقي بركت زاده

وبعدما أورد مصطفـى صبري أفندي مقالته هذه أحبَّ حسـين سيرت بك سرد بعض الذكريات التي سمعها من إسماعيل حقي بركت زاده بك، وكان مما قاله:

= مجلة ثروة الفنون، تأثر بالشاعر توفيق فكرت وجناب شـهاب الدين. انظر: عارف يلماز، حسين سيرت وشعره، مجلة المجتمع والتعليم، مجلد ٢، عدد ٤ ص ١٤٨ - ١٧٤، سنة ٢٠١٥.

(١) محمد نامق كمال بن مصطفى عاصم (١٨٤٠ - ١٨٨٨) شاعر وسياسي ورجل دولة تركي، كان من أشهر شعراء النصف الثاني من القرن التاسع عشـر، كان يلقب بشاعر الوطن والحرية. انظر: عمر فاروق أقجون، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة نامق كمال (٣٢: ٣٦١).



▲ نامق كمال

ـ سيدي، كنت قد استمعت إلى أشـياء كثيرة من إسماعيل حقي بركت زاده بك[1] حول ذكرياته، لكن ـ للأسـف ـ لم تَسنَح له الفرصة لكتابتها قبل أن يرحل، لو أذِنتم لي، أوَدُّ أن أروي لكم قصة سمعتها منه في هذا السياق.

❁ زيارة إلى نامق كمال:

أراد بركت زاده زيارة نامق كمال في الجزيرة التي اسـتقر فيها كمنفى يليق بمكانته، مكلَّفًا في الوقت نفسـه بوظيفة المتصرِّف فيها، ولهذا استصدر بركت زاده قبل الزيارة إذنًا من السلطان عبد الحميد تحسُّبًا لأي مُساءلة قد يتعرَّض لها.

وبعد أن قضى فترة مع نامق كمال في الجزيـرة تحدث بركت زاده إلى حسين سيرت عن تلك الأيام فقال:

ـ كنا نتجوَّل ذات مرة في حديقة منزل نامق كمال، وكنت أُنشِد له بعض الشعر الذي أعلم أنه يأنس لسماعه، وبعد أن أنشدتُه قصيدةً لأحد الشعراء قال لي كمال بك:

ـ ما هذا السـحر يا بركت زاده! لقد نظم أجدادنا أشعارًا في قمة الروعة والجمال، حتى إنّ أحدنا لَيَعجِز عن قول مثلِها، وكأنهم لم يتركوا لنا شـيئًا لنقوله، ثم قال:

---

(١) إسماعيل حقي بن حسـن بصري بن إسـماعيل حقي بركت زاده (١٨٥١ ـ ١٩١٨)، كاتب وأديب عثماني، ولد في حي الفاتح بإسـتانبول، كان والده موظفًا في قصر السلطان، وجده مدرسًا عامًا في جامع أيا صوفيا، حفـظ القرآن في صغره وتلقـى العلم على علماء إسـتانبول في الحديث والأدب والتصوف إلـى جانب غيرها من العلوم الإسـلامية، وتعلم اللغات العربية والفارسـية والفرنسية، بدأ اهتمامه بالكتابة مبكرًا، وكان يكتب مقالات في مجلة نامق كمال وحظي بتقديره، ثم سـجن مع نامق كمال ثم نفي إلى عكا وبقي فيها ثلاث سـنوات ثم عاد إلى إستانبول عام ١٨٧٦، وشغل مناصب حكومة كثيرة في حلب وأضنة وأقشـهير وبيروت، وتوفي في إستانبول. انظر: محمد أوقويان، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة إسماعيل حقي بركت زاده (٥: ٤٩٠).

ولهذا الشاعر أيضًا هذه القصيدة.

وأخذ يُنشِد قصيدة أخرى، كان كأنه قد قرأ كل شيء في اللغات الأربعة، بحيث لم يَفُتْه شيء، فقرأ ثم استوعب ما قرأه، ثم حفظه، شيء كهذا.

❁ الدول الإمبراطورية:

وأيضًا مما ذكره بركت زاده: في يوم ما، قال نامق كمال بك:

- بركت زاده، منذ أن كتبت هذه الأبيات وفي قلبي غايةٌ أرنو إليها، وحُلُم يراودني، إلا أنه سيكون من العسير تحقيق هذا الحلم.

فسألته: ما تلك الأبيات؟ فقرأ كمال بك الأبيات المشهورة:

إننا أهل جد واجتهاد وعزيمة لا تُفَلّ، حتى إننا

انتقلنا من عشيرة صغيرة لدولة تحكم العالم بأسره

ثم تابع:

أفكِّر أحيانًا في تدوين بعض الخواطر حول أسلافنا مؤسِّسي هذه الإمبراطورية العظيمة، إلا أني أخشى ألّا يكفي العمر لسبر أغوار هذا الموضوع العميق، والإتيان به على الوجه الذي يليق بهم.

❁ عظمة السلطان محمد الفاتح:

أجرَيتُ بحثًا في الآونة الأخيرة حول السلطان محمد الفاتح، فوقعت على الوثيقة الآتية:

السلطان مراد - والد السلطان محمد الفاتح - رأى على ابنه منذ أن كان صغير السن مَخايل النجابة والذكاء، فرغب في تربيته تحت رعاية خيرة

الأســاتذة، يعتنون بتعليمه وتنشــئته، وبدأ فعلًا في استقدام بعض مشاهير عصره من علماء وعارفين معتبَرين لتدريس ابنه.

وقد بعثَــتْ حادثةٌ جــرت بين الفاتح وأحد أســاتذته المشــهورين الملا كوراني[1] الهمّ في نفسي، فكيف سنستطيع تدوين تاريخ مثل هؤلاء العظماء؟

وكما يقول عامة الناس عند تسـليم ابنهم لمعلمه: «اللحم لك، والعظم لي»، كذلــك كان يُقــال لمعلمي الأمــراء، في إشــارة لتفويضهــم بكامل الصلاحيات للتربيــة والتعليم، وهكذا بدأ معلمو الفاتــح في تدريس وتربية الأمير الصغير بكل تفانٍ وغَيرة.

ذات يوم، بعد صلاة العشاء، انسحب الأمير إلى غرفته عقب انتهاء درسه مع الملا كوراني، وعندما قام معلمه لصلاة التهجد لاحظ الضوء ينبعث من غرفة الأمير، فدبَّ في نفسه القلق، مشى إلى باب الغرفة وطرقه، وسأله:

- خيرًا أيها الأمير، هل أنت بخير؟ هل تشعر بالمرض؟

---

(١) أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني (٨١٣ - ٨٩٣) قاضي ومفتي بلاد الروم، وُلد في قرية كوران بشهرزور، وحفظ القرآن صغيرًا، وقرأ القراءات، واشتغل بالفقه الشافعي، وأخذ علوم العربية، والمنطق، وأخذ عن علماء دمشق وبغداد والقدس والقاهرة، قال المقريزي: قرأت عليه صحيح مسلم والشاطبية، فبلوت منه براعة وفصاحة ومعرفة تامةً بالفنون من العلم ما بين فقه وعربية وقراءات وغيرها، وتولى وظائف علمية كثيرة في دمشــق وحلب والقاهرة، ثم اســتقر به المقام في بلاد الروم، وتولــى القضاء فيها، وتحوّل إلــى المذهب الحنفي، وارتفعت مكانته عند السلطان مراد وابنه محمد، وكان شديد الوعظ له بعيدًا عن مجالسه، يرفض أعطياته، وتولى منصب المفتي، وأنشــأ في إستانبول مدرســة ومسجدًا كان يدرس ويخطب فيهما، ولم يَزَل علــى جلالته حتى توفي، وصلّى عليه الســلطان ورجالُ الدولة. انظر: الســخاوي، الضوء اللامع (١: ٢٢٤)، وانظر أيضًا: حاجي خليفة، ســلم الوصول إلى طبقات الفحول (١: ١٢٨)، والشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع (١: ٣٩)، وطاش كبري زاده، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (١: ٨٨).

فأجابه:

ـ لا يا أستاذي، أنا بخير، لكن جفاني النوم هذه الليلة، فاشتغلت بالدراسة.

قال معلمه:

ـ هل يمكنني الدخول؟

فأذن له، وعندما ولج الغرفة رأى أشياء لا تتعلق بالدرس، نظر حوله فإذا خرائط وصور ومخطَّطات قد تناثَرت في كل زوايا الغرفة، على السرير والأرض وطاولة الدراسة.

❁ لا يمدح النبيُّ ﷺ رجلًا جاهلًا:

وعندما سأله عن هذه الأشياء اشترط الأمير ليخبره بحقيقتها أن يبقى هذا الأمر سرًّا بينهما، ولما قَبِل الملا كوراني الشرط قال الأمير:

ـ أستاذي، لماذا لم يتمكن المسلمون منذ عصر الصحابة الكرام من فتح القسطنطينية، فمع محاولاتهم المتكررة لحصارها إلا أنها كانت تبوء بالفشل؟ ماذا يجب أن نفعل لتحقيق هذا الفتح؟ لقد تبادرت إلى عقلي بعض الأفكار فدوَّنتها، وأشتغل الآن على إعداد بعض مسوَّدات المخططات.

فأجابه الملا كوراني:

ـ سيدي الأمير، إنه لَشرف عظيم لي أن يكون أحد طلبتي هو ذلك القائد الذي بشَّر به النبيُّ المختار لفتح هذه المدينة المباركة، ولكن النبيَّ الذي بشَّر بهذا الفتح هو محمد المصطفى ﷺ، نبي الله، الإنسان الذي يُبلِّغ وحي الله تعالى.

ولذلك فهذا النبي العظيم الذي يتمثَّل وحي الله ويعيش وفق أمره ونهيه، ويبلِّغه وينشره بين الخلق، لا يمدح شخصًا جاهلًا.

وكما تشرفَت مصر والشام واليمن وغيرها من المناطق الأخرى بدخول الإسـلام إليها، فكذلك ستتشـرف مدينة القسـطنطينية ببشـارة «لَتُفتَحنَّ القُسطنطينيةُ، ولَنِعم الأمير أميرُها، ولنعم الجيش ذلك الجيشُ»[1]، فلن يمدح النبـيُّ المختار قائدًا جاهلًا بقولـه: «ولَنِعم الأميرُ»، وكذلـك لن يظفَر قائدٌ جاهلٌ ببشارة ذلك الفتح.

يا سيدي الأمير، إذا انشغَلت بهذه الأفكار والخطط عن تحصيلك العلمي، وبَقِيت في منتصـف الطريق دون إتمام ما بدأت به مـن طلب العلم، وتولَّيتَ الحكم بتعليم ناقِـص فلن تتمكن من تحقيـق الفتح الذي تصبـو إليه، لهذا فلنُكمل ـ بعون الله تعالى ـ ما بدأناه من دروس العلم، وعندما تصل إلى خاتمة هذا الطريق الذي تسكله ستكون أهلًا أن تتحقق هذه البشارة على يدَيك.

فلم يملك الأمير الشاب بعد أن سـمع هذه الكلمات الحكيمة المُبصِرة للملا كوراني إلا أن جمع أوراقه، وتابع مسيرته في طريق العلم، وأما ما جرى بعد ذلك فمعروف.

إن هذا الحادثة التي نقلها الملا كوراني تشـير إلى مدى صعوبة تدوين سيرة مثل هؤلاء العظماء، والإحاطة بكل جوانبها.

❁ السلطان سليم الأول.. تاج السلاطين:

يتابع نامق كمال حديثه مع إسماعيل حقي بك بركت زاده، فيقول:

ـ بركت زاده، هناك أيضًا السـلطان سـليم الأول، الملقَّب بالقاطع، إنه السلطان الذي تربَّع على عرش قلبي، وأسَرني بمحبَّته، فكل خطوة يخطوها تنتقل بالعالم إلى مرحلة مختلفة تمامًا.

---

(١) أحمد، المسند، رقم (١٨٩٥٧)، والبخاري، التاريخ الكبير (٢: ٨١)، والحاكم، المستدرك (٤: ٤٢١).

سأل إسماعيل حقي بك:

ـ أستاذي، هل كان للسلطان سليم خصائص ميَّزَته عن غيره؟

ـ سيدي، لقد كان سلاطيننا المبجَّلون وأجدادنا النبلاء سلاطين إمبراطورية عظيمة، وسليم الأول تاجهم، أُحِبُّ كلَّ شيء فيه، عندما يُذكر السلطان سليم تثور في نفسي أعاصير من المحبة والإعجاب.

وقد نقل هذه الكلمات عن السيد المرحوم نامق كمال إسماعيل حقي بركت زاده بك، وهو أخبَرَ بها السيد حسين سيرت بك، وهو أخبرنا بها عندما جاء لزيارة الأستاذ مصطفى صبري أفندي.

❁ نماذج من قصائد نامق كمال:

قبل نهاية اللقاء أخذ الأستاذ صبري أفندي ينشد بعض قصائد نامق كمال، وقال:

ـ دعوني أنشد لكم بعض ما أمسكَته ذاكرتي من النسيان، وأنت يا أستاذ سيرت بك، لو أنك بشاعريتك تُكمل ما أتذكره وتنشده على نحو أجمل.

فأجاب سيرت بك:

ـ يا سيدي، بارك الله فيكم، أنتم تنشدون الشعر أفضل مني.

❁ ألم فراق الوطن الأم[1]:

في ذات يوم أتى علي يعقوب إلى الأستاذ مصطفى صبري برسالة فيها مختارات من شعر ضياء باشا، كان قد اشتراها من دُكّان للكتب المستعمَلة،

(١) أورد علي علوي هذه الفقرة في موضع آخر من مذكراته (٤: ٣٣١).

فلما قدَّمها له بدأ الأستاذ يُنشِد شعرًا لضياء باشا من محفوظاته، ولكنه ما إن بدأ بإنشاده حتى أخذ في البكاء والنشيج، وانهالت دموعه غزارًا، شيخ الإسلام بجلال قدره وكبر سِنِّه يبكي بكاءً حارًّا، ويكرِّر بيتًا من أبيات ضياء باشا:

إننا فارقنا وطننا الأم، وطننا الأصلي وهبط أبو البشر بعيدًا عن دار الصفاء

فارقنا وطن أبينا آدم، فارقنا الجنة، تلك الدار التي صارت غريبة عنا، حتى إنه لا يقدر بشر على وصفها، ألسنا أولاد أبينا آدم؟ فكيف يصير وطنه غريبًا عنا، وننساه فلا نكاد نذكره، ألسنا نحن أيضًا قد فارقنا هذا الوطن مثله!

والشيخ يقول هذا ويبكي بنحيب وتأوُّه، إن هذا البكاء هو علامة شوق الروح والفؤاد للوطن الأم، كما يقول مولانا جلال الدين الرومي:

بادِر الناي استمِعْ كيف حكى قصص العِشق من الهجر شكا
قال إذْ جَذُّوني من منبتي وأُصِبت بفراق خِلَّتي
من ضجيجي المرأة والرجلْ رحمةً ضجّا، دهاهما الوجلْ
أبتغي صدرًا تشظَّى بالنوى لأبُثَّ شرح آلام الهوى
كلُّ مَن كان نأى عن أصلِهِ طالِبٌ أيضًا زمان وصلِهِ
قد أنَنتُ أنا في كل فريقْ وحَنَنتُ بين خصم ورقيقْ
كلُّ شخصٍ صار بالظنِّ الحبيبْ لي والخلَّ الوفي والقريبْ
وهو ما نقَّبَ في كامني ما رأى أسراري في باطني
إنّ سِرِّي من أنيني والحنينْ لم يكُ يَبعُد آنًا أو يَبِينْ
صوت هذا الناي نارٌ ولهيبْ لا هواءٌ، إنّ هذا لَعجيبْ

كل مَـن ذي النار في القلـب فَقَدْ فليَمُـتْ، بـردُ النعيـم مـا وَجَدْ
نـارُ عشـقٍ ما علـى النـاي وقعْ فشـكـا وَجـدًا وأنّ وجـزَعْ
كلُّ مـنْ قد قطـعْ وصـل الخليلْ لـه هـذا النـايُ كفـوٌ وزميـلْ
مَـن رأى كالنـايِ ترياقًـا وسَـمْ مـن رأى كالنـايِ بُـرءًا وسَـقمْ
مـن رأى كالنـايِ وُدًّا صاحبًـا وهـو الـمـشـتـاقُ أنّ ناحبا

❋ ❋ ❋

أمضغُ كل حبة أرز على حِدة

في أحد الأيام حين كنا في ضيافة الشـيخ مصطفـى صبري أفندي، جعل الله قبره روضة من رياض الجنة، قدّم إلينا طعـام الأرز، وبينما كُنّا نتناول وجبة الأرز على المائدة في داره العامرة لاحظنا الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يتناول الطعام ببطء شـديد، حتى إنّ أهله كانوا يتعجَّبون منه كما أخبرَنا لاحقًا، فيقولون له:

ـ يا سيدنا، كأنك تمضغ كل حبة من الأرز على حدة؟

ـ تقريبًا هذا ما أفعلُه، أطحن اللقمة طحنًا، الحمد لله، قد بلغت الخامسة والثمانين من العمـر، ولم أعرف ألم المعـدة، وأرى حكمة ذلك في توكُّلي على الله تعالى أولًا، وكذلك في عادتي هذه، التي تنبَّهتُ لها بفضل الله تعالى، فلا أعجَل في طعامي أبدًا، وإلا لماذا أُعطينا الأسنان؟

وفي حين كنا نستمر في تناول الطعام قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ كلمة:

ـ لكثرة النعم التي أفاضها الله علينا لا أعلم أيها أشـكر، تخيَّلوا معي لو أن الله أقام الخلـق على ناموس آخر، كأنْ يُؤمَـر كلُّ فرد أن يأكل مما يزرع، ويلبس مما يَخِيط، لَعَسُـر علينـا ذلك كثيرًا، ففي ظـلِّ مثل هذا القانون كيف سأجد هذا الأرز اللذيذ؟ وأين كنت سأجد الحقل لأزرعه؟ وكيف سـآكله؟ ربما لما اسـتطعت أكلَه، مع أني أحب الأرز كثيرًا، فهو سـهل الهضم، ولذلك يقول أهل المناطق التي ينمو فيهـا الأرز بكثرة: «لو كان الأرز إنسانًا لكان إنسانًا حليمًا سَـمْحًا»، إننا نستظِلُّ بنِعَم كثيرة تستحق الشكر.

۞ النعم الظاهرة والباطنة:

عندما قال الأستاذ هذه الكلمات قلت أنا العبد الفقير:

- سيدي، في سورة لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠]، قد عرَفنا النعم الظاهرة، ولكن ماذا عن النعم الباطنة؟

ابتسم الأستاذ، وقال:

- يا أخي، كن منصِفًا؟ هل من العدل أن تسألني عن النعم الباطنة أثناء شهودنا النعم الظاهرة على المائدة؟ وكأنك تقول لي: كفاك طعامًا يا سيدي، هيا فلنقم عن المائدة ونتحدث.

قال هذا ممازحًا لي؛ لأنه لو أجاب عن سؤالي فلن يتمكن - لبطء مَضغِه - من تناول الطعام.

بعد انتهاء الطعام انتقلنا إلى غرفته وشربنا فيها القهوة، وقد كنا في ضيافته عَلِيّان، أنا علي علوي، وأيضًا صديقي علي يعقوب؛ لذا كان يناديني الأستاذ بـ«كوچك علي» (علي الصغير)، وينادي علي يعقوب بـ«بويوك علي» (علي الكبير)، فناداني هذه المرة بـ(علي الصغير)، وقال مجيبًا عن سؤالي:

۞ أحيانًا عدم الرؤية نعمة أيضًا:

تابع شيخ الإسلام حديثه، فقال:

- علي الصغير سامحه الله، ألجأني أثناء تناول الطعام لأضيَق المسالك، حيث طلب مني أن أُجِيب على سؤاله حول النعم الباطنة، وفي فمه لقمة من النعم الظاهرة، أما الآن فيمكننا التحدث براحة.

أرى أن النعم الباطنة الخفية عن العين وغيـر المرئية لها هي أكثر أهميةً من النعم الظاهرة، فلنأخذ مثالًا على ذلـك: الجراثيم، هذه المخلوقات التي نؤمـن بوجودها مع عـدم قدرتنا على رؤيتهـا بالعين المجـردة، فلو كانت الجراثيم ظاهرةً ومكشوفةً، ورُفِع الحجاب عنها أمام عيوننا، فكيف سنستطيع أن نأكل طعامًا أو نشـرب ماءً؟ ومن سـيمُدُّ يدَه لمصافحة أحدهم، أو وضع نقود في جيبه؟

وقد ساعدَتنا المكبِّرات والـمَجاهر اليوم على رؤية كل ذلك، لكن لو كانت كل عين مِجهَرًا، ماذا كنا سنفعل لو رأينا عالم الجراثيم عندئذ؟

ثم دعونا نضرب أجسامنا مثالًا، لا نستطيع رؤية ما بداخلها، إنها عوالم مخفية، ماذا يحدث لكلِّ ما نأكله متلذِّذين به من طعام وفواكه وحلوى بعد بضع ساعات؟ ما الحالات التي يمرُّ فيها، وما التحولات التي تطرأ عليه؟ لا ندرك ذلك، ولا نراه، إنها نعمة كبيرة!

خلايا المناطق التي أجريتَ فيها عملية جراحية، كيف تعلن النفير وكأنها جيشٌ يقـوم بعملية الإصـلاح وإعادة البناء مـن جديد، ولو كنـا نرى هذه التفاعلات دائمًا في قلوبنا وعقولنا ومثانتنا، إلى غير ذلك من أعضاء جسدنا، ماذا كنا سنفعل؟ وكيف سنعيش؟ كل هذه نعم مخفية.

❁ أعظم النعم:

وفوق كل ذلك، أرى أن نعمة الإسلام أعظم النعم، فأنتم ببركة هذه النعمة وحماسـتها وقوتها وحبها وشـغفها تقيمون هنا منذ ثلاث أو خمس أو عشر سنوات، تشتغلون بالعلم بعيدًا عن أهليكم وأوطانكم، وها هي الأيام تتوالى دون أن تصدر منكم شكوى، أو أسمع من أحدكم تذمُّرًا لهذه الحال.

أهنّئكم، وأشد على أياديكم، فنعمة الإيمان هي التي تجعل هموم الوطن همّكم المشترك، وتجتهدون ـ بإيمانكم الذي تترنّم به أفئدتكم ـ لتكونوا شفاءَ عِلَلِ هذا الوطن، وبلسمَ مشاكله، وبه تتحامَلون على أشواقكم لعائلاتكم ودياركم، فهذا دائمًا إنما تُحَصّلونه بفضل نعمة الإيمان، أعظم النعم، إيمانكم بالإسلام، ومحبتكم له، وحماستكم في سبيله.

قد خلق الله تعالى الكون من أجل الإنسان، وخلق الإنسان ليعرِف ربه، ومعرفةُ العبد ربَّه إنما تتمثَّل في عبوديته له، وتسليمه لأمره ونهيه، ولذلك كان التسليم والرضا الذي جاء به الإسلام أعظم نِعَم هذا الدين، فبه تحلو الأيام على مرارتها، وتصفو على كدرها.

❁ ألا بذكر الله...

في الغرفة التي كان يستضيف فيها مصطفى صبري أفندي ضيوفه كانت تقف على الجدار لوحةٌ كُتِبَت بخط النستعليق، خطَّها صهر مصطفى أفندي المرحوم محمد علي بك[1].

على خلفية زرقاء صافية كزرقة السماء، كتب بخط جميل مُذَهَّب: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

فالطمأنينة لا تنسَكِب في القلوب بشيء سوى ذِكر الله، والحضور بين يدَيه، وتطهير القلب من الغفلة عنه سبحانه، إن الإنسان لا يجد هدوء قلبه وسعادته وسكينته وصفاءه إلّا في ذِكر الله تعالى، وليس في شيء آخر!

---

(١) من أكبر خطّاطي ونقّاشي مصر، لا تزال نقوشه وزخارفه في التقاويم المصرية، توفي في حياة الأستاذ مصطفى صبري أفندي. انظر: القوسي، مصطفى صبري أفندي، ٨١.

وما تذكرت دار أستاذنا مصطفى صبري أفندي ومجالسَه يومًا إلا ارتسمَت تلك اللوحة والآيــة الكريمة الرائعة أمــام عيني على الفــور، وما زال ذلك المجلس يبُثُّ الألَق والجمال في حياتي، كالثُّرَيّا تضيء بين جوانح فؤادي.

❀ ماذا يجب أن تطلب النساء؟

كانت المخابز في منطقة مصطفى صبــري أفندي مزدحمةً جدًّا، ولا يتمكن الإنسان من الحصول على الخبز إلا بعد طول انتظار، لهذا قرَّرنا ـ بعض الطلبة الأتراك ـ أن نشتري الخبز لبيت الأستاذ من المخابز الأخفّ ازدحامًا في منطقتنا.

وفي أحد الأيام ـ وكان دوري ـ أخذت الخبز لبيت أستاذنا، فسألني:

ـ يا ولدي، ماذا هناك؟ هل من أخبار جديدة؟

فأجبته:

ـ سيدي، قرأتُ خبرًا في جريدة الأهرام، يبدو أن النساء يطالِبنَ بالحرية، فما عُدنَ يَقنَعنَ بما مُنِحْنَه من حريات.

قال فضيلته:

ـ لكن بقي حقٌّ هامٌّ يجب أن تطالب به النساء، ولا تفرط به أبدًا.

عندما قال فضيلته هذا، ارتسمَت علائم الدهشة على وجهي، وقلت في نفسي:

ـ الله! يبدو أن فضيلة الأســتاذ أيضًا غيَّر رأيه؟ هل يؤيد هو أيضًا منح النساء الحرية التي يطالِبن بها؟ ثم تَبيَّن لي أنه يمازحني، فقال يُبدِّد دهشتي:

ـ يجب على النساء أن يرفعن عقيرتَهن ويصرخن بأعلى صوتهن: لن نَلِد بعد اليوم! فليُنجِب الرجال من الآن فصاعدًا!

❁ القوانين الإلهية لا تتغيّر:

ثم قال الأستاذ هذه الكلمات المهمة:

ـ يا بُني، الإنسان حين يبتعد عن الدين والحقائق الإلهية يتمرَّد أيضًا على قوانين الطبيعة والفِطرة والخَلق، للأسف لم تَترقَّ العلوم في المجال الروحي إلى الدرجة نفسها التي وصلتها في المجال التقني والفني، بل على العكس كانت تتراجع دائمًا، ولم تستطع حتى الآن أن تصلح هذا الخطأ الذي وقعَتْ فيه، فما زالت الأمور تسير في الاتجاه الخطأ.

علمًا أنّ القوانين الإلهية كالقوانين الفيزيائية التي يسير الكون وَفْقها، ثابتة ولا تتغير، فالإنسان عندما لا يمتثل للإنذارات الإلهية، ولا يتصرف وفقًا لطبيعته وميوله التي خلقه الله عليها، سيواجه ـ لا محالة ـ نتيجةً سوداء، وكارثة مُحقَّقة، هذا ناموسٌ لا يتغير.

ولذلك فالذين ينحرفون عن التعاليم التي أقرَّها الله تعالى ورسولُه، ويَضِلُّون عن الصراط المستقيم الذي بَيَّنوه لنا، سيندمون يوم لا ينفع الندم، ويَهوُون إلى حال يُرثَى لها.

❁ مرض الزهري والإيدز:

ستطفو هذه الحقائق على السطح يومًا ما، وسيندم الناس؛ لأنهم انحرفوا عن الجادة المستقيمة، ولات ساعةَ مَندَمٍ، وسترتفع نِسَب البؤس والشقاء والفوضى والاغتصاب والأمراض في المجتمعات، قال النبي ﷺ في الحديث الشريف: «يا مَعشَر المُهاجِرينَ، خَمسٌ إذا ابتُلِيتُم بهنَّ، وأعوذ بِالله أن تُدرِكُوهُنَّ؛ لم تَظهَر الفاحِشة في قَوم قَطُّ حتى يُعلِنُوا بها إلّا فَشا فيهم الطّاعون، والأوجاع التي لم تَكُن مَضَت في أسلافِهِم الذين مَضَوا»[1].

---

(١) ابن ماجه، السنن، كتاب الفتن، باب العقوبات (٤٠١٩).

فمثلًا لم يكن مرض الزهري معروفًا في المجتمعات المسلمة سابقًا، ويبدو أنه مرض جاء من فرنسا كما يظهر من تسميته الفرنسية، وتنتقل عدوى هذا المرض إلى أولئك الذين يرتبطون بعلاقات غير مشروعة مع نساء يعاشرهن كلَّ يوم رجلٌ مختلف ساقته الأزِقّة إليهن.

وطبعًا عندما ذكر فضيلة الأستاذ هذا الحديث، وقال: «والأوجاع التي لم تَكُن مَضَت في أسلافِهِم»، لم يكن مرض الإيدز المعروف اليوم قد ظهر بعد، هذا المرض الوبائي الجديد ظهر بعد ألف وأربعمئة عام من بيان النبي الكريم ﷺ، وبعد حديثنا مع الأستاذ بأربعين أو خمسين عامًا، صار يُسبِّب وفيات كثيرة، ويثير الرعب بين الناس.

❁ القصاص يُنقِذ آلاف الأرواح:

تابع فضيلة الأستاذ حديثه قائلًا:

ومن هذا الباب تنفيذ القِصاص بحق القاتل الجاني إذا طالب به أولياء الدم، وكذلك قطع يد السارق الذي اعتاد السرقة، فمن استعظم هذه العقوبات وسعى في إبطالها سيندم لاحقًا أشدَّ الندم، ولاتَ ساعةَ مَندَمٍ؛ لأنه لا يردع أهل السوء عن الاعتداء على الصالحين والمستقيمين في المجتمع إلا مثل هذه العقوبات، فالسارق المقطوع اليد يمنع وقوع آلاف السرقات، وتنفيذ القصاص مرةً واحدة يُنقِذ آلاف الأرواح، ويُلبِّي حاجة الناس للعدالة، ويُعِيد السلام إلى المجتمع.

والأمر نفسُه أيضًا في حَظرِ الخمر، فمُعاقرة الخمر عادةٌ تتعارض مع فطرة الإنسان وكرامته وشرفه وجِدِّيَّته وكل خصائصه، إضافة إلى أنها تُفكِّك العائلات، وتتسبَّب في الإساءة للنساء والأطفال، وحرمانهم مُعِيل الأسرة

وربَّها، وهو سبب معظم حوادث السير والإصابات والجرائم، فضلًا عن أنها تضر صحة الأجيال وتفسدها.

ولكن مع ظهور كل هذه الحقائق ترى بعض الجهلة والحمقى ممن يتظاهر بالتحضُّر والعقلانية يؤيد تَعاطِي الخمور ويدعو لها دون حياء ولا خجل، ويَعُدُّون معاقرة الخمرة والكحول سِمةً من سِمات الحداثة والتمدُّن، ويهاجمون الأشخاص الأنقياء والأصحاء الذين لا يتعاطونها، ويَصِمونَهم بالرجعية والتخلف، عجبًا لهذا الضلال والانحراف!

❁ الزنا والعار:

وكذلك، تُنتَهك أوامر الله، مثل الحجاب والتستُّر، والفصل بين الرجال والنساء الأجانب، فترى الاختلاط والتقارب الحاصل بين الجنسَين إعلانًا صارخًا لرفض القانون الإلهي، فهذا السلوك الخاطئ قد ينتهي بكارثة إنسانية خطيرة، ففي الواقع إن التحلُّلَ وغياب العِفّة هو السبب الأساسي وراء كل الانتهاكات والآثام والانحرافات.

كثيرًا ما كنا نسمع سابقًا مقولات مثل «العالم الغربي، الحياة الأوروبية، آداب التعامل المدنية»، إلى غير ذلك، وكانوا يمدحونها دائما ويُثنُون عليها، ثم اكتشفنا أنّ كلّ هذا إنما هو في الواقع تَحلُّل، وخطيئة، وعار.

يسمونه «رقص»، فترى المرأة وقد استجمعت كل أسباب زينتها، أشدَّ مما لو كانت في ليلة عرسها، تتمايل بين أيدي الرجال، ثم تدور كؤوس الشراب، وتلعب الخمرة بالرؤوس، فلا يَعرِف أحدٌ بماذا تنتهي هذه المجالس والمسامرات.

وإذ بكل ما ينادون به في الحقيقة «أوروبا، أوروبا»، و«العالم الغربي»، و«حياة الغرب»، إنما هو في الحقيقة انحراف وفجور!

يتقرَّب فـي هذا المجتمـع كلُّ فرد مـن زوجات الآخريـن وبناتهم، ويأخذونهنَّ بين الأذرع والأحضـان ويراقصونهنَّ، ثم يُطلِقون على كلِّ مَن لا يشـاركهم في هذا الرقـص والخمر من أهـل العفة والصيانـة ألقاب «التعصب والتخلف والرجعية!»، أوَلا يُسمَّى ما يأتي به هؤلاء من مُوبِقات دناءةً وكفرًا وإلحادًا!

❁ الحجاب وحده لا يكفي:

وقد نبَّهَنا الله تعالى في آيات القرآن الكريم، وعلى لسان نبيه الكريم ﷺ، إلى الأمور التـي يتعيَّن علينا الابتعاد عنها؛ لما تسـتبطنه من عواقب ونتائج وخيمة، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائـدة: ٥١]، وغيرهـا كثير من الآيات والأحاديث التي تهزُّ الإنسـان هزًّا عنيفًا من أعماقه بما تذكِّره به في جلاءٍ ووضوح من خطورة هذا التشبُّه، وما يعقبُه من بلايا ومآسٍ عظيمة.

ولا يكفي المرأة المسلمة أن تُغطِّي رأسَها فقط، بل إنّ اختلاط النساء بالرِّجال الأجانب، والتواصل معهم دون ضوابط وحدود، يُعَدُّ أمرًا ممنوعًا، بل خطيرًا أيضًا، ولا يكفي كذلك أن تكـون الملابس طويلة وفضفاضة، وأن يكون الحجاب واسعًا، بل يجب ألا تكون ملابس شُهرة تلفت الأنظار بزينتها وغرابتها.

وإذا اضطرَّت المرأة المسلمة للحديث مع رجل ليس من محارمها، فلا بد أن يكون ذلك من وراء حجاب، دون إمعانٍ في النظر، أو تلطُّف في التبسُّم، أو تخضُّع بالقول.

من وراء حجاب:

وبين أيدينا آيةٌ كريمةٌ مهمة جدًّا بما تحمله من معانٍ كثيرة ودقيقة، تُحذِّرنا من خطورة التهاون في هذا الأمر، نعم، إنها ليست وصية مرشد أو عالم، بل ولا موعظة حديث حتى، إنها آية جلية واضحة.

إن الله تعالى خالِق الإنسان هو الأعلم بما يُصلِحه وما يُفسِده، هذا الخالق اللطيف الخبير أصدر تنبيهًا مهمًّا لأصحاب رسوله الذين ربطتهم بالنبي رابطة الطاعة والمحبة والصحبة، فأخلَصوا له الودَّ، وبذلوا الأرواح رخيصةً في سبيل دعوته، فيقول لهم الله تعالى مؤدِّبًا ومُرَبِّيًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ترشد هذه الآية الصحابة الكرام إلى أنكم عندما تطلبون شيئًا من أزواج النبي أو تسألونهن حاجة يجب أن تخاطبوهن من وراء ستار، لا وجهًا لوجه، فهذا أدعَى أن تحافظوا على نقاء قلوبكم وقلوبهن.

وقد يتساءل أحدهم إزاء هذا الإنذار الإلهي: أليست نساء النبي أمهاتِنا أيضًا؟

إن الله تعالى قد أجاب على هذا التساؤل في تضاعيف الآية التي أوردناها آنفًا، وكأنه يقول: إنهن بالفعل أمهاتكم معنويًّا، ولكنهن لسنَ أمهاتكم اللائي ولدنكم، فهن أزواج النبي المكرم، ولهذا هنّ في مقام أمهاتكم، وأنا الذي خلقتُكم وفطرتُ قلوبَكم وأفئدتكم، وأعلم سُبُل الشيطان في إغوائكم، وأعرف

المخاطر التي قد تنشأ عن تسريح الطَّرف وتَجوالِ النظر فيما لا يَحِل، لهذا آمرُكم بأخذ كلّ أسباب الحيطة والحذر من غوائل الشيطان وأهواء النفس، حتى عند التعامل مع زوجات النبي اللاتي تحترمونهن وتقيمونهن مقام أمهاتكم.

❁ صلة القرابة إنما تتجلّى في الوجه:

يشير الأستاذ المرحوم بديع الزمان(١) إلى نقطة هامة في كتابه «تَسَتُّرْ رِسالَسِي»: «رسالة التستر»، فيقول:

---

(١) بديع الزمان سعيد بن ميرزا النورسي (١٨٧٨ ـ ١٩٦٠)، عالم وداعية تركي مشهور، وتُنسب إليه جماعة النورسيين في تركيا، وُلد في قرية نورس من منطقة بتليس، سلك طريق العلم الشرعي، فظهر عليه النبوغ مبكرًا، وأُجيز في عمر الرابعة عشرة، وعكف على العلم والتعليم، وبدأ ينادي بضرورة تجديد التعليم الديني، فسافر إلى إستانبول للقاء السلطان عبد الحميد بهذا الخصوص، فقدَّمه علماء إستانبول للتدريس في جامع الفاتح، وانعقدت بينه وبين بعض الاتحاديين علاقة، وأثنى عليهم، إلا أنه سرعان ما اكتشف ضررهم على الأمة، فوقف ضدهم وانتقدهم، وانتقد تقييد الحريات في زمن السلطان عبد الحميد الثاني، وسافر إلى الولايات العربية، فزار دمشق، والتقى بعلمائها، وخطب في جامعها الأموي، ثم زار غيرها من المدن وقفل عائدًا إلى إستانبول، وقد حاول طويلًا إنشاء مدرسة دار الفنون وفق تصوُّره الخاص، ولكن مساعيه لم تفلح في ذلك، ومع نشوب الحرب العالمية الأولى اشترك مع طلابه في القتال إلى جانب الجيش العثماني، وأُسِر لمدة سنتين، ثم عاد إلى إستانبول، ولما قام مصطفى كمال بحرب التحرير في الأناضول أيّده ودعمه، واستدعته حكومة أنقرة، فخطب في البرلمان مشدِّدًا على دور الشعور الديني في تحقيق النصر، إلا أنه لم يلبث بعد أن قلبت حكومة أنقرة للإسلام ظهر المِجَنّ أن أعتزل السياسة، واشتغل بتعليم الطلبة ونشر أفكاره بينهم، ولكنه تعرض للنفي والمحاكمة والسجن مع طلابه منذ ١٩٢٥ إلى ١٩٥٠، فكرَّس وقته في هذه الفترة لكتابة رسائل النور الشهيرة في الدفاع عن الإيمان وعقيدة الإسلام، وترسيخها في نفوس الشعب، وكان يلتقي بطلاب الجامعات في كل مكان في فترة حكم عدنان مندريس، ولما توفي بعد الانقلاب على حكومة مندريس نقلت حكومة الانقلاب العسكرية قبره إلى مكان مجهول تخوُّفًا من غضب طلابه وانتفاضتهم. انظر: ألب أرسلان أشك جينش، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة سعيد النورسي (٣٥: ٣١٤).


▲ بديع الزمان سعيد النورسي

«ينبغي على الأم والأخوات والخالة والعمة ألّا يتساهلن أبدًا في التستر أمام الرجال المحارم، وأن يأخذن بكل أسباب الحيطة والحذر في اللباس حتى أمام النساء، فصِلة القرابة والمصاهرة لا تُعرَف إلّا في وجه الإنسان فقط، فبالوجه يميِّز الإنسان بين المحرَم والأجنبي، وأما غير هذا المكان من جسم الإنسان كالصدر والساقَين والظهر وغيره فلا يتميَّز عن مثله في جسم الأجنبي بشيء، ويمكن لمثل هذه الأعضاء أن تثير في النفس ما تثيره أعضاء الأجنبيات، وأن تتسبَّب في أذى وتَشوُّه روحي، قد يدفع الشبان إلى حوادث نفسية خطيرة، لذلك يجب أن يكون الجميع على غاية الحيطة والحذر في ارتداء ملابس محتشمة.

هذا الموضوع مهمٌّ للغاية، فقد تناول كثيرٌ من علمائنا ومفكرينا قضايا التستر والحجاب، والتحذير من الاختلاط بين الرجال والنساء بإسهاب وشرح مُعمّق، وعلى الأجيال الجديدة قراءة هذه المسائل وإيلاؤها عناية خاصة.

❋ ❋ ❋

كانوا أسوة لنا بأحوالهم

كان لأساتذتنا في مصر وللأميرآلاي صادق صبري بك دورٌ مهم في تشجيعنا وحَثِّنا على طلب العلم، والاستمرار في تحصيله، فكانوا قدوة لنا بحالهم قبل قالهم.

وسواء صبري أفندي أم صادق صبري بك، فإن رضاهم عن الله في حالهم التي صاروا عليها عقب وصولهم إلى مصر، وعدم شكواهم على الإطلاق من المشقّة والحرمان الذي عانوا منه، كان أحد تجليات فضائلهم وخصالهم التي ارتوت بماء الإيمان.

فكانوا لنا أمثلة حية على أنّ بعض الناس قد يمتلكون بقوة إيمانهم وصدق توكُّلهم على الله تعالى كنز غِنًى لا يَنضُب، وقوة تَحمُّل لا تنتهي.

وبفضل توجيهات الكبار، ونصائح الأحبة الذين يُجِلُّهم ويَودُّهم المرء في هذه السن، تَنبِضُ عروقُه بالحياة، وينبعث فؤاده بالهمة، وتَبرُق أساريره بالسعادة، ويعتزُّ بالهدف الذي اختاره، والطريق التي سلكها.

فقد كنا غرباء، نعيش بعيدين عن أهلنا وأقاربنا وديارنا، وخاصةً بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، وتَعسُّر الذهاب والإياب، وتأخُّر وصول الرسائل التي لا تصل إلا بعد شهرَين، فضلًا عن الرقابة التي ما كانت تسمح لرسالة بالمرور قبل فتحها وقراءتها، فكانوا يضعون ختمًا خاصًا على الظروف يشير إلى أنها «رُوجِعت من قِبَل الرقابة»، فلذلك كنا ـ أثناء كتابتنا لأيِّ كلمة في الرسائل ـ على غاية الحذر والقلق.

۞ ماذا يعني الجهاد؟

في مثل هذه الأوقات العصيبة التي عشناها كان لتشجيع هؤلاء الأجِلّة الفضلاء دَورٌ كبير في تثبيتنا على الجادّة، ولذلك أرى اليوم أنّ ذِكر فضل هؤلاء الأساتذة والترحُّم عليهم دَينٌ في عنقي، فقد كانت نصائحُهم أشبه بنصائح أمٍّ رَؤُوم تُلقِيها في أذن ابنها وهي تُشيِّعه إلى غربته، وتستودعه الله تعالى.

كانوا يتفقدون أحوالنا، ويهتمون بصحتنا وراحتنا، ويسألون عن طعامنا وشرابنا، ولكنّ الأهم من ذلك كلّه كان تحفيزُهم لنا وحَثُّهم إيّانا للمُضِيِّ قُدُمًا في سبيل تحقيق أهدافنا.

كان السيد صادق بك يقول:

أيها الشباب، أنتم حرس الحدود الذين تنتظرون دوركم في الحراسة، والجنود المجاهدون في ساحات المعارك، فالجندي يحرس وطن الأمة ويحميه، أما أنتم فمُجاهدون تنافحون دون دين الأمة وإيمانها وروحها وتدافعون عنها.

الجهاد يعني الذَّود عن حِياض الأوطان التي تتعرض للعدوان، وحماية هويتها وكيانها المادي والمعنوي، فالمرجُوُّ منكم أن تحمِلوا هذه الأمانة على كواهلكم بكل إخلاص وتفانٍ في سبيل حماية دين الأمة وإيمانها وأخلاقها وروحها، فاجتهِدوا في أداء هذه الأمانة بجِدٍّ وحماسة ابتغاءَ نَيلِ رضا الله تعالى، فهو رأس كلِّ فلاح وغايتُه، وإني لأغبِطُكم على ما أقامكم الله فيه.

لقد كان لهذه الكلمات اللاهبة آثارٌ بليغة حُفِرَت في أعماق أرواحنا ووجداننا، فزياراتهم وأحاديثهم كانت لنا أشبه بمجالس ذِكر تُنعِش أرواحنا، وتبعث السكينة والطمأنينة فيها، رحمهم الله جميعًا.

كيف اختار صبري أفندي صِهرَه؟

كان إيمان صبري أفندي ويقينُه بالله، وتوكُّلُه عليه سبحانَه يتراءى في جميع أحواله وتصرفاته، فعلى سبيل المثال، كانت تصرفاته أثناء تزويجه ابنتَه الصغيرة مما يستحق أن يُسجَّل في كتب المناقب والأحوال.

حكى أنه استمع ذات مرة إلى محاضرة في دار الفنون[1] حول تاريخ الأديان، وكان المحاضِر شابًا من أساتذة دار الفنون يُدعى زكي بك، وأُعجِب الشيخ بسعة اطِّلاع المحاضِر وعُمق معرفته بتاريخ الإسلام،

(١) مؤسسة علمية عثمانية على غرار الجامعات الأوروبية، صدر القرار بإنشائها في عام ١٨٤٦، ولم يبدأ التعليم فيها رسميًا ودون انقطاع إلا في عام ١٨٧٠، وبدأت قبل ذلك بإلقاء محاضرات للعموم في عام ١٨٦٣، وكانت أولى المحاضرات حول علوم الكيمياء والفيزياء، والعلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا، وجذبت اهتمام المثقفين، وكانت تتكون الدار عند إنشائها من ثلاث كليات هي: كلية الفلسفة والآداب، وكلية العلوم الطبيعية والرياضيات، وكلية القانون، وكانت الدراسة فيها ثلاث سنوات، ثم سنة رابعة لكتابة أطروحة التخرج، ويقبَل فيها الطلاب الحاصلون على الشهادة الثانوية أو ما يماثلها وتجاوزوا السادسة عشرة من العمر، وقُبل فيها عند افتتاحها ٤٥٠ طالبًا من أصل ألف متقدِّم، واستقدمت مناهجها ومعدات مختبراتها من أوروبا، وأُعلن افتتاح الدار في حفل كبير حضره الصدر الأعظم وكبار رجال الدولة بتاريخ ٢٠ ـ ٠٢ ـ ١٨٧٠، ألقى فيه جمال الدين الأفغاني كلمة أثارت عاصفة من النقد والمعارضة، وكان الطلاب المتخرجون في الدار يحصلون على لقب دكتور، ويُعَيَّنون في إحدى وزارات الدولة بحسب اختصاصهم، أو يعملون محامين ومدرسين، وقد استمرت الدار في التطور وأُضيفت لها كليات جديدة كالطب والصيدلة، ثم أنشئت كليات خاصة بالطالبات، تخرجت أولى دفعاتها عام ١٩١٧، ثم أُلغيت عام ١٩٢٠ ليصير التعليم فيها مختلطًا بداية من عام ١٩٢١، واستمر التدريس فيها والتطور في مناهجها وأقسامها إلى أن أُلغيت في عهد الجمهورية عام ١٩٣٣، وأُنشئت بديلًا عنها جامعة إستانبول. انظر: أكمل الدين إحسان أوغلو، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة دار الفنون (٨: ٥٢١).

وقُدرتِه على مقارنته بالأديان الأخرى، فسأل الشيخ صديقَه كوچك حمدي أفندي:

ـ سيدي، حضرت محاضرةً في دار الفنون حول تاريخ الأديان، وكان المحاضِر يُدعى زكي بك، هل تعرفون هذا الشاب؟

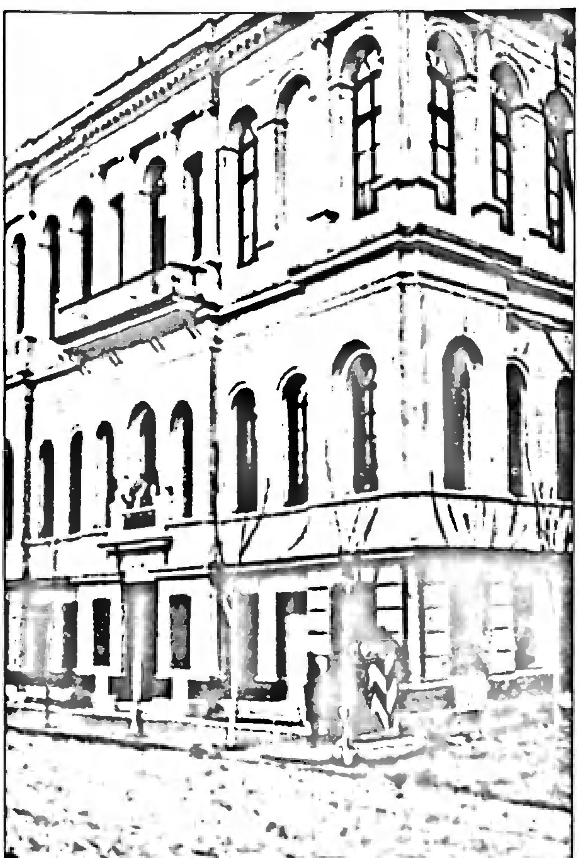
وكوچك حمدي أفندي هو محمد حمدي يازِر الإلماليلي، ولُقِّب بـ «كوچك حمدي»، أي: حمدي الصغير؛ لأنه كان قد تلقَّى العلم عن المفتي محمود حمدي القيصرلي، أحد كبار مدرِّسي جامع بايزيد، الذي كان يُعرف بـ «بيوك حمدي»، أي: حمدي الكبير، فعُرِف تلميذُه محمد حمدي بـ «حمدي الصغير».

فأجابه حمدي أفندي قائلًا:

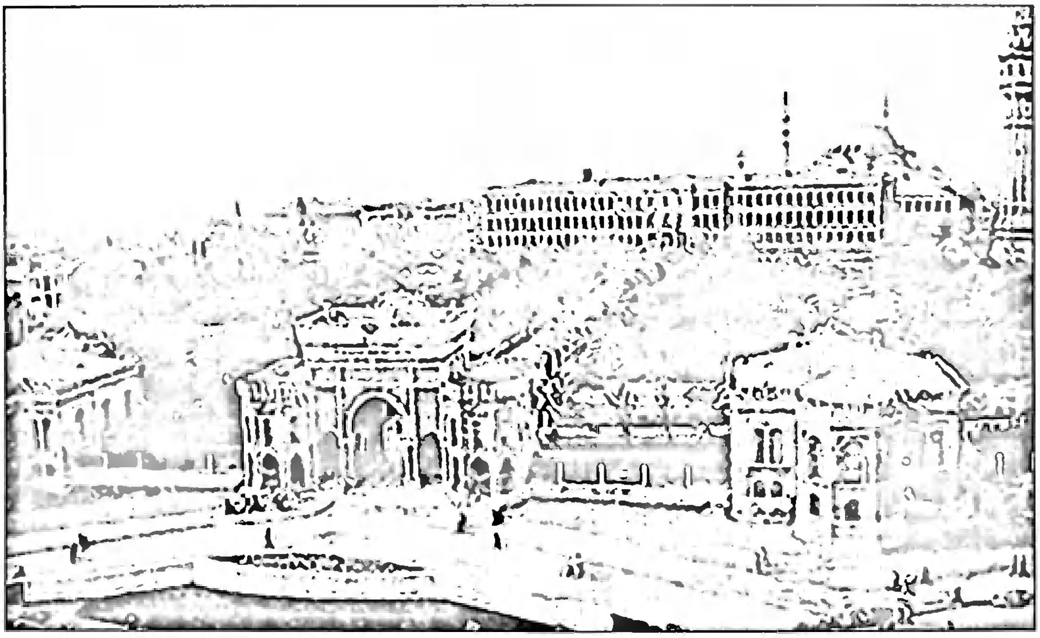
ـ نعم، أعرفه جيدًا، إنه ابن مدينتي، إنه شاب فاضل.



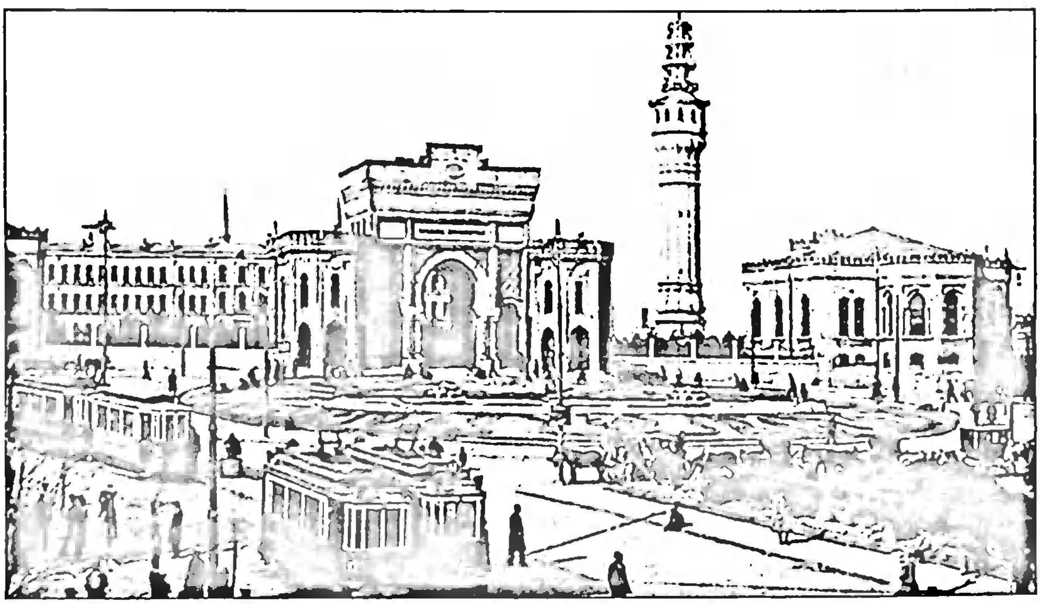
▲ بناء دار الفنون الذي كان قائمًا في أوائل القرن التاسع عشر



▲ أحد أبنية دار الفنون، وما زال قائمًا، وتحوَّل اليوم إلى متحف الطباعة



▲ مقر دار الفنون في أعقاب الحرب العالمية الأولى،
والذي تحوَّل اليوم إلى مقر جامعة إستانبول



▲ انتقلت دار الفنون في أعقاب الحرب العالمية الأولى
إلى هذا البناء الذي كان مقر وزارة الحرب العثمانية

ثم تابع صبري أفندي حديثه سائلًا:

ـ هل هو متزوج أم عازب؟

ـ لا يا سيدي، هو عازب، لم تُسعِفه بعدُ قِلّةُ ذات يده للزواج، فهو ابن عائلة فقيرة، وأمه أرملة.

❀ أدفع له تكاليف العرس:

فسُرَّ صبري أفندي عندما تلقّى هذا الجواب من كوچك حمدي أفندي، وسأله:

ـ ماذا لو قدّمنا ابنتنا الصغيرة له؟ هل سيوافق؟ هل يقبل؟

أجاب حمدي أفندي متعجبًا:

ـ وهل يصح مثل هذا السؤال؟ طبعًا سيوافق، بل سيُرحّب بهذا العرض ويقبله بكل امتنان، وأنا أقول لكم من الآن: أحسنتم صنعًا يا سيدي بهذا التلطُّف والتكرُّم، لكن يا سيدي، أنتم الآن شيخ الإسلام، وإني وإن كنت أعرف عدم التفاتكم لأهل الدنيا وأثريائها، وأعلم يقينًا تقديمكم أهل الإيمان وذوي الخُلُق والقلب السليم، وترجيحَكم حياة الفقر على الغنى، ولكن ماذا عن الأخت الكريمة زوجكم المحترمة؟ إنها ابنة الشيخ المرحوم عاصم أفندي، وهي سليلة عائلة ثرية، فكيف ستتعامل مع هذا الأمر؟

ـ سنجد لهذا حلًّا أيضًا، هذا الشاب نادر المثال، ولن نفوت هذه الفرصة.

ووجد صبري أفندي حلًّا لمسألة المال أيضًا، وقال:

ـ قل لزكي بك أن يُرسِل والدته وزوجكم الكريمة الآن، فليتقدَّمْنَ لخطبة البنت حسب الأصول والعادات، وعندما يَحِين موعد إرسال هدية العروس سأُقدّم له ما يحتاجه من المال.

❁ هدية عرس فاخرة:

حان الوقت، فقدَّم صبري أفندي مئتي دينار لتغطية تكاليف حفلة العرس وهدية العروس.

فلما رأت السيدة زوج صبري أفندي الهدية التي أرسلها الشابُّ قالت:

ـ سيدي، كنتَ قد قلت لي: إن عائلة الشاب مستورة الحال، وإنه تخرج من الدراسة حديثًا، لو نظرتم إلى هذه الهدية الجميلة التي أرسلوها، إنها هدية فاخرة لا يرسلها إلا الأثرياء، فأكَّد الأستاذ مُصدِّقًا قولها، وكأنه لا يعرف شيئًا:

ـ ما شاء الله! سيدتي، في كثير من الأحيان قد لا يُعرَف صاحب المال وصاحب الإيمان من ظاهرهما، إذن يبدو أن لديهم موارد، ما شاء الله، ما شاء الله.

وقد شهد مصطفى صبري أفندي حادثةً مماثلة في مصر، وشهدنا جميعًا ذلك، حين شرَّفَنا بالزيارة ذات يوم في سكن الطلاب، وقال:

ـ أولادي، هناك شاب قد أتى إلى مسجد حيِّنا يُدعى الشيخ جلال، هو شاب في الثلاثينيات من عمره، وكان يشبه المرحوم زكي بك.

❁ الأصهار:

عاش ذلك الشابُّ زكي بك ـ الذي اتخذه الشيخ صهرًا ـ بعد عودته من مكة المكرمة في رومانيا، وعانى ظروفًا صعبة أثَّرت فيه كثيرًا، حتى إنه استبَدَّت به الأمراض والأدواء جَرّاءَ حُزنه، فأسلَم روحَه إلى بارئها.

وقد كان المرحوم شابًا مُرهف الحسّ رقيق الفؤاد، أثَّرت فيه المصائب التي مرَّ بها كثيرًا، إضافةً إلى أنه لم يتمكن من العمل، مما جعله يُكثر الشكوى لزوجه ويقول لها:

ـ نحن نُرهِق الشيخ بأعبائنا، لقد صِرنا حِملًا ثقيلًا عليه في هذه الغربة.

ولحساسيته المُفرِطة لم يحتمل كثيرًا آلام الغُربة وفِراق الأهل والوطن، فمرض وتوفي بداء السِّلّ.

ولشيخنا صهرٌ آخر ذهب ضحية حادث مأساوي سأُفرِده بالحديث لاحقًا، وكان هذا أيضًا حُزنٌ آخر أصاب أستاذنا.

كان صبري أفندي قد شبَّه الشيخ جلال بصهره المرحوم زكي بك، ونصحَنا بسماع خطبته، فقال:

ـ أنصحكم بالاستماع إلى الشيخ جلال.

فأجبناه وأكّدنا حضورنا، فقال لنا:

ـ تعالوا يوم الجمعة القادمة إلى مسجد حَيِّنا، فنؤدِّي صلاة الجمعة خلف الشيخ جلال، ونستمع إلى خطبته، ثم نتناول الحساء معًا.

❁ كُن رجلًا يا بني:

وفي يوم الجمعة ذهبنا نحن الأربعة، العبد الفقير، والسادة مصطفى زُنيون، وعلي يعقوب، وحسين لطيف من يوغوسلافيا، فصعد الشيخ جلال المنبر، وبدأ في خطبته، وكان يَهدِر في كلامه كالسيل، وبين الحين والآخر يكرِّر جملة واحدة:

ـ «كُن رجلًا يا بني!».

وانتابني فُضولٌ أن أسترِق النَّظَر لشيخ الإسلام وهو يستمع للخطبة، فوجدته بعد أن كان مستقبِلًا القبلة قد استدار نحو المنبر، يذرف الدموع التي كانت تتساقط من تحت نظّارته، تأثُّرًا بكلام الخطيب: «كُن رجلًا يا بُني»، وانتهت الخطبة وأدّينا الصلاة.

ثم توجَّه الشيخ جلال إلى مصطفى أفندي وقبَّل يده، فعانقه فضيلة الأستاذ، ثم قدَّمَنا له:

ـ قد جاء هؤلاء لسماعك يا شيخ جلال! فقد مدَحتُك عندهم، وأوصيتُهم أن يأتوا حتى يروا كيف يكون الخطيب، قلت لهم: إن الله قد منحَنا جوهرة، وها هم جاؤوا وأُعجبوا بها ودعَوا لك، ثم قدَّم له مصطفى أفندي بعض كتبه هديةً.

❁ رجاء الشيخ جلال:

جاء الشيخ جلال ذات يوم وحدَه لرؤية الأستاذ، وقال له:

ـ سيدي، قد أتيتكم اليوم لأعرض بين يديكم مسألة شخصية، ولي عندكم رجاءٌ آمُل ألّا تُخيِّبوه.

ففهم الأستاذ بسرعة بديهته مقصد الشيخ جلال من الزيارة، قال الأستاذ لما حكى لي القصة:

ـ الشيخ جلال عازب، ولدينا حفيدات، فخمَّنت ما سيطلبه، ثم كشف الشيخ جلال عن غايته، وأفصح عن مُراده:

ـ سيدي، أرجو أن أتشرف بمصاهرتكم، وأنضمَّ إلى هذه العائلة المجاهدة فَردًا من أفرادها، ولكني أعلم أن في الإسلام استشارةً واستخارة، ثم إنّ الفتاة ليست بنتكم، بل حفيدتكم، ولذلك لا بد أن تتحدَّثوا مع ابنكم وأفراد العائلة في هذا الأمر، لم تتيسَّر لي أسباب الزواج حتى الآن، علمًا أنّ بعض الخيارات قد ظهرت من بين أقاربي ومعارفي، لكن الأمر لم يتم، سيدي، والله لقد انشرح صدري عند رؤية وجهكم المنوَّر، فإذا كنتم ترغبون في اللقاء والاستشارة والاستخارة فتوكَّلوا على الله، نصيبنا يُصيبنا.

وقد أفصح الشيخ جلال للأستاذ في الوقت حتى يوافيه بالجواب.

❁ لَسْن أهلًا له:

فأرسـل مصطفى صبـري أفندي في طلبـي، وطـلب منـي أن آتيه وحدي، فلبَّيت أمرَه وأسـرعت إليه، ولما جلست بين يديـه أخذ يُطلِعني على الأمر:

ـ عجبًا والله، كيف انقلب حقيقةً ما كنت أرجوه في سِـرّي، الشـيخ جلال يرغب في مصاهرتي، هذا شرفٌ لي، ولكن الفتاة ليست بنتي، بل هي حفيدتي، والجدُّ في هذه المسـألة ليس كالأب، والشيخ جلال يرجو بالزواج الراحة والسـكينة وهناء الروح، أعلم ذلك، ولكن بناتنا ما زِلنَ يافعات، عقولهـن غَضّة لـم تنضج بعد، وليـس لهن من رُقِـيِّ الروح واستعداد النفس ما يسـتطِعنَ به تهيئة أسباب السـعادة والرضى للشيخ جلال، فأخشـى أن تفتُر علائق المودة، وينحلَّ عِقد الأخـوة بيننا وبين الشـيخ جلال، وإني لأحرِص على أن تتوثَّق عُرى الحب والاحترام بين قلوبنا، وألّا تَنضُب مشاعر الرحمة والإعجاب التي نُكِنُّها له، وألّا تذوي علائم الاحترام الذي يظهره لنا.

يا بُني، إنّ جنة الرجل دارُه، والشيخ جلال يعلم ذلك، ففي الدنيا جنةٌ أيضًا، والبيت السـعيد الذي تغمر المودة والرحمة أهلَـه هو جنة الدنيا، والشيخ جلال يبتغي بزواجه الدخول في مثل هذه الجنة.

لذلك لا أجد حفيداتي أهلًا للشـيخ جلال، فلا كفـاءة بينهن، وأنت فقط من يستطيع بيان هذا للشيخ جلال، اتَّصِلْ به، واذهب إلى منزله، وإن رغبت فاطلب لقـاءَه في الجامعة، ولكن احرص على حلِّ هذه المسـألة دون جرح مشاعره أو كسر قلبه.

❁ ازداد حبي أكثر:

اتصلت بالشـــيخ جلال عبر الهاتــف، واتَّعَدنا على اللقــاء في الجامعة، فذهبت إليه في الساعة التي حدَّدها لي، ونقلت له ما قاله الأستاذ بحذافيره، فردَّ الشيخ جلال بكلمات تبعث على الإعجاب:

ـ لقد عَظُم مقام شيخ الإسلام في نظري أكثر وأكثر، إنه لا يرى حفيداته أهلًا لي! هذا شرفٌ كبيرٌ لي وأيُّ شـــرف، إنه يُقيمُني ـ أنا العبد الحقير ـ في مقام عالٍ جليل لا أُساميه ولا أبلغه، ويقول عنّي: مقام الشيخ جلال عظيم في نظري، وللأسف الشـــديد، لا أجد في حفيداتي القدرة على الوفاء بحق هذا المجاهد.

لقد كبر شـــيخ الإســـلام في نظري، وعظُمَت محبَّتُه فـــي قلبي أضعاف ما كانت عليه، أرجو أن تبلِّغه كامل احترامي، وعظيم سروري بجوابه كما لو أنه أكرمني وشـــرفني بالزواج من إحدى حفيداته، لا بـــتَّ الله أواصر الحب والمودة بين قلوبنا أبدًا.

❋ ❋ ❋

أبناء الشيخ

كان لمصطفى صبري أفندي ابنٌ وابنتان؛ أما ابنه فإبراهيم بك[١]، وأما ابنتاه فقد زوَّج الأولى من زكي بك، وزوَّج الثانية من محمد علي بك، وقد تحدثتُ آنفًا عن زواج ابنته من زكي بك، ثم عن وفاته، وأما الصهر الآخر فتوفي في حادث أليم.

وقعت الحادثة عام ١٩٣٩، حيث كان يقع منزلهم فيما يُعرف بـ «مصر الجديدة»، أو هليوبوليس، وهي منطقة في شمال شرق القاهرة، في يوم من الأيام اشترى محمد علي بك صحيفة، وبينما كان يقرؤها، وإذ بقطار الترام يعود إلى الخلف على نحو مفاجئ، فدعس المسكين وقتله.

قال علي يعقوب بك:

ـ لقد عايَنتُ قوة إيمان الشيخ حينها، في ذلك اليوم ـ الذي وقعت فيه الكارثة ـ حضر المحقِّقون ورجال الشرطة لأخذ إفادته، فكان الأستاذ يُبيِّن مجريات الحادثة بكل هدوء وصلابة، وكأنّ المتوفى ليس صِهرَه.

وأما ابن صبري أفندي فهو إبراهيم بك، وكان لديه ابنٌ وثلاث بنات، ابنه فاتح توفي في وقت مبكر من حياة والده.

---

(١) إبراهيم كان أكبر أبناء الشيخ مصطفى صبري وتأثّر بوالده كثيرًا، وشاركه في جهاده ومحنته وهجرته، واشتهر شاعرًا وأديبًا، عمل سنوات في إحدى جامعات بنغازي، وحصل على درجة الأستاذية في الأدب، ثم تولى رئاسة قسم الآداب الشرقية بجامعة الإسكندرية إلى وفاته في لندن عام ١٩٨٣. انظر: انظر القوسي، مصطفى صبري أفندي، ٨٠.

وكان إبراهيم بك قد تزوَّج في إستانبول، وبينما كان يدرس في قونية اندلعت الحرب العالمية الأولى، فالتحق بالجيش، وبعد عودته انتسب إلى كلية الحقوق، واستمرَّ حتى تخرج فيها، ولكن لم تلبث الهجرة أن فَجَأتهم قبل أن يلتحق بوظيفة أو عمل، فشقَّ طريقَه العسير في حياة الغربة، وعانى فيها من مصاعب جَمّة.

***

كان يَلُفُّه حُزنٌ عميق على حال الأمة

كنا في أحاديثنا التي استمرت قريبًا من ست سنوات مع شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي نتطرق لمواضيع شتى من أبواب العلم والعرفان والدين والإيمان، وخاصة ما يتعلّق بالعالم الإسلامي وتركيا، وقد قال الشاعر نامق كمال:

إن ما يبعث الشكوى في النفس عموم الحزن يا كمال

فلم يَعُد قلبي يقدر على تذكُّر ألمه الخاص أبدًا

وهكذا كان حال الأستاذ، فلم يكن يَذكُر شيئًا البتة عما ألمَّ به من مصائب وفاقات، وإذا ذكر يومًا ما شيئًا من ذلك فإنما يحكيه بإلحاحٍ منا أو سؤال، أو للعبرة والأسف على ما آلت إليه أحوال الأمة.

❁ نوبة الخبز:

لا أنسَ أبدًا أيام كنا في أتون الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٤، كانت أيام مآسٍ ورَزايا لا تنتهي.

كانت في منطقة العباسية ـ حيث يقيم الأستاذ صبري أفندي ـ بعض المقارّ والمنشآت العسكرية الإنجليزية، وعندما كانت تصل حمولاتُ الذخائر وعتاد الحرب إلى هذه المقرّات تسارع القوات الألمانية ـ بما تتلقّاه من معلومات استخباراتية ـ لشن غارات جوية بُغية ضرب هذه المعدات قبل أن يُودِعَها الإنجليز في المخازن.

لهذا لم تكن الأفران تعمل بكامل طاقتها في منطقة العباسية، وكان إنتاج الخبز محدودًا للغاية، فترى طوابير طويلة من الناس تصطَفُّ أمام الأفران.

وكان إبراهيم بك يضطر للذهاب إلى عمله في وقت مبكر، وليس في البيت أحدٌ يمكنه الانتظار أمام الفرن، ولم يكن بمقدور شيخ الإسلام في هذه السن المتقدمة الوقوف في صف طويل أمام الفرن بين جموع المنتظرين.

حتى هذا الأمر لم يُخبِرنا به، أو يطلب مساعدتنا فيه، ولكننا لحُسن الحظ، علمنا بالأمر، وبدأنا مع بضعة طلاب بالتناوب نأخذ سلة خبز إلى بيت الأستاذ يوميًا من أفران المنطقة التي كنا نعيش فيها بجوار الجامع الأزهر، حيث لم تكن منطقتنا تعاني مثل هذه المشكلة، وكان الخبز متوافرًا بكثرة.

ماذا لو مِتّ في أثينا لا قدّر الله؟

عندما اضطر الشيخ مصطفى صبري أفندي لمغادرة تركيا، وتوجَّه بصحبة السلطان وحيد الدين إلى الحجاز، فأقام فيها مدةً، لم يَلبَث بعدها أن غادرها تخوُّفًا مما كان يُحاك فيها من مؤامرات، فنزل في اليونان، واستقرَّ في منطقة كمولجينه، وكان فيها جالية تركية، فأسَّس صحيفة تحمل اسم «يارين» (الغد) وبدأ في انتقاد الثورة الجديدة التي أعلنها مصطفى كمال باشا في تركيا.

إلا أن هذه الصحيفة ما لبثت أن توقَّفَت عن الصدور وأُغلِق مقرُّها عندما طلبت الحكومة التركية في أنقرة من الحكومة اليونانية ذلك، وجعلت شرط إغلاق هذه الصحيفة في مقدمة شروط الاتفاقية المُبرَمة بين مصطفى كمال باشا ورئيس وزراء اليونان فينيزيلوس، وطلبت حكومة أنقرة أيضًا طرْد الشيخ مصطفى إلى خارج البلاد.

إلا أن الحكومة اليونانية كانت أكثر رأفة وإنصافًا في التعامل مع الشيخ مصطفى صبري أفندي من الحكومة التركية، فطلبت من الشيخ أن يغلق الصحيفة تحت ذريعة إضرارها بدولة صديقة، ولكنها لم تجبره على الخروج من البلاد، بل اشترطت عليه الإقامة في أثينا.

فعقَّب الشيخ على هذا بقوله:

ـ لم يبقَ لدينا عمل يمكن القيام به في اليونان.

وأراد أن يهاجر إلى مدينة مسلمة، ولكن لم يتمكن من الحصول على تأشيرة لدخول بلد إسلامي، وكان يقول متخوّفًا:

ـ لقد انتابني كثير من الخوف خلال هذه الأشهر القليلة الحافلة بالمصاعب والشدائد، كنت أخشى الموت في أثينا، فلو وقع هذا أين سيدفنونني؟ هل سيُدفَن شيخ الإسلام في مقبرة المسيحيين؟ وقد كانت هذه الأشهر أقسى أيام حياتي، واستبدَّ القلق بي.

ثم حدث ما لم يكن متوقَّعًا آنذاك، فما إن ترامَى إلى سمع كبار رجال الكنيسة اليونانية ما تُمارسه حكومتهم من ضغوطات على الشيخ صبري أفندي ألجأته على إعداد العُدّة لمغادرة اليونان، حتى بادروا إلى زيارته، وأبلغوه وقوفهم إلى جانبه ضد ممارسات الحكومة، وحرصهم على تقديم كل أشكال الدعم له، ومساعدته في رفع الأمر إلى القضاء، وكان الشيخ صبري أفندي يقول:

❁ البلاد المسلمة تعجز عن استضافة شيخ الإسلام:

ـ لو كنت قد سلكت هذا الطريق وتابعت الإجراءات التي نصحوني بها لكنت ربما بقيت في اليونان، إلا أنّ القلق الذي كان يساورني حول دفني بعد موتي كان يؤرِّقني كثيرًا، فقرَّرت المتابعة في محاولاتي للمغادرة إلى أيِّ بلد مسلم، وراسَلت أكثر الحكومات الإسلامية المعروفة في تلك الفترة، مثل مصر وسوريا وبغداد:

«أنا فلان، كنت شيخ الإسلام في الدولة العثمانية السابقة، ليس لديَّ جواز سفر، وأرغب في دخول بلادكم زائرًا أو لاجئًا، أيًا كانت الصفة التي تُفضّلونها، فأرجو أن تمنحوني ما أستطيع الوصول به إليكم، جواز سفر، أو دعوةً رسمية، أو تأشيرة دخول، أو وثيقة سفر، وأرجو إعلام قنصلكم في أثينا بذلك».

إلا أنّ جميعهم أرسلوا لي «رسائل اعتذار»، وقدَّموا بالغ اعتذارهم، وأعربوا عن شديد أسفهم؛ لعدم قدرتهم على تلبية طلبي، فأعَدتُ الكتابة مرة أخرى بلغة قاسية:

«عجبًا لكم، إن كنتم عاجزين لهذا الحدِّ عن منح شـيخ الإسلام تأشيرة دخول فعلامَ إذن تتربَّعون على عروش مُلكِكم وكراسـي حُكمِكم؟ ألسـتم رؤسـاء الدول وأصحاب القرار فيها؟ أخشى ما أخشـاه أن أموت في أثينا. فأُدفَن في مقبرة غير المسلمين؟ فمَن سيتحمَّل وِزر هذا الأمر ومَعرَّته إذا دُفِن شـيخ الإسـلام لما يقرب من مئة مليون مسـلم في العالم فـي غير مقابر المسلمين؟ فما فائدة مناصبكم إذن؟».

❁ القنصل المصري يقف موقفًا إنسانيًّا:

أخيـرًا، حين فرغـت جعبتنا من حلٍّ ذهبـت مع إبراهيم إلـى القنصل المصري في أثينا. حيث لم يكن في أثينا سفير مصري، فتحدَّثت مع القنصل باللغـة العربية، وأخبـره إبراهيم بالفرنسـية، وإذ بالقنصـل يتفهَّم تخوُّفي، ويعاملني بكل إنسانية، فقال:

- يا مولانا، لو وقع بابا الكنيسـة المسـيحية في مثل هذه الحال فكيف ستكون مواقف العالم المسـيحي منه؟ عجبًا لهذه الذِّلّة التي صِرنا إليها، أنا مستعِدٌّ لتحمُّل كامل المسؤولية على كاهلي، وليفعلوا بعدها ما بدا لهم، فإن أرادوا فليُقِيلوني من منصبي، أو فليسـجنوني، أو فليُعدموني بتهمة ارتكاب جريمة سياسية، سأقدِّم لكم تأشيرة الدخول، وأتحمَّل كلَّ ما يترتَّب على ذلك من مخاطر.

❁ طعام الفاصولياء صباح مساء:

وهكذا دخل الشـيخ وابنُه إبراهيم بك مع عائلاتهم إلى مصر، فوجدوا منزلًا في حي مصر الجديدة، واستقروا فيه، ولكنّ المصاعب لم تنتهِ، فلا مال لديهم يتدبَّرون به أمرَ معيشـتهم، كان يروي لنا مصطفى صبري أفندي كيف

قضوا الأشــهر الأولى من إقامتهم، وماذا كانوا يأكلون ويشـربون، وما كان يروي ذلك تَشكِّيًا أو تذمُّرًا، بل إنه كان يضحك أثناء حديثه عن تلك الأيام.

كانت الفاصولياء الجافّة أرخص شيء يمكنهم شراؤه، فما بقي لديهم من مال لا يكفي لشراء أيِّ شــيء آخر، ولم تكن لديهم أوانٍ لطهي الطعام، كان لديهم إبريق شــاي فقط، فكانوا يسـتخدمونه لغلي وطهــي الفاصولياء، ثم يغسلونه لتحضير الشاي، عاشوا على هذه الحال بضعة أشهر، ثم بدأ إبراهيم بك يعمل أجيرًا عند حَذّاء أرمني.

۞ الحَذّاء كيركور:

كان في الحيِّ حَذّاءٌ أرمني يُدعى كيركور، هاجَر من تركيا، وامتدت أواصر المودّة بينه وبين إبراهيم بك الذي كان يزور دُكّانَه صباح مســاء، فيجلســان ويتسامران، وفي يوم من الأيام قال كيركور:

ـ إبراهيم بك، يؤسفني أني لم أســتطع فِعل شيء لك، مع أننا أبناء بلد واحد، تعالَ، دعني أُعَلِّمْك هذه الحرفة، ثم تعمل معنا، فأكون بهذا قد أفدتك في شيء.

وكان يعمل مع الحَذّاء الأرمني صانعان، وأصبح إبراهيم بك ثالثهما، وبدأ يتقاضى أجرًا أسبوعيًّا، يقول إبراهيم بك:

ـ كنا جائعين ولا حلَّ آخر، أصبحــت أجيرًا للحذاء، وعملت عنده بضعة أشــهر، وتعلَّمتُ الحِرفة جيــدًا، وذات يوم، كنت أدقُّ قطعــة جلد في كعب الحذاء المبتَلّ، وأحاول تثبيتها بواســطة مســمار، وكنت أنــوي قص حوافها بالسكين، وسكاكين الحَذّاء تكون عادة حادة النَّصل كموسى الحلاقة، وأثناء القصّ دخلت السكين في يدي اليسرى، وانفتح جرح كبير فيها، وعُدتُ عاطلًا

عن العمل مرة أخرى، على أمل أن يتعافى الجرح وأعود إلى عملي مرة ثانية، ولكن هيهات!

وقد ظلت آثار الجرح ظاهرةً في يد إبراهيم بك دائمًا، وهكذا حُرِموا حتى من هذا الوارد القليل، واشتدت الأزمة وأُحكمت حلقاتُها، إلى أن بلغت الشدة أوجَها، فأذِن الله عندئذ بفرج بعد شدة، وسعة بعد ضيق.

❁ زيارة عزّام باشا:

في تلك الأيام تَنامَى إلى سمع وزير الأوقاف المصري عبد الرحمن عزّام باشا أنّ شيخ الإسلام في الدولة العثمانية السابق يقيم في القاهرة، ويُعاني من ضيق ذات اليد، فجاء إلى صبري أفندي يزوره، وخاطبه بكل أدب واحترام:



▲ عبد الرحمن عزام باشا

ـ يا فضيلة مولانا، لقد منَّ الله علينا جميعًا، حكومةً وشعبًا، أن أقامكم بيننا، فأنتم بمقامكم تمثِّلون رمزًا للأمة الإسلامية جمعاء، لذلك من حقِّكم الحصول على معاشٍ من بيت المال، فإذا أذنتم لنا نَودُّ أن نمنحكم راتبًا شهريًا قدره اثنا عشر جُنيهًا.

فقبل الأستاذ هذا العرض، وشكر للوزير اهتمامه، لكنه قال:

ـ سعادة الباشا، لكن هنا شخصٌ آخر أيضًا، هو الأستاذ زاهد الكوثري، وهو وكيلي في مشيخة الإسلام، وهو مثلي في أمَسّ الحاجة، فأرجو أن تمنحوه أيضًا معاشًا شهريًا.

فمُنِح زاهد أفندي سبعة جنيهات شهريًا، وكان هذا بعد عام ١٩٣٢، وكانت قيمة هذه المعاشـات مرتفعة في تلك الأيام، إلا أنها مع مرور الوقت كانت تخسر قيمتها الشرائية، ولكن بفضل تَوكُّل الشيخ قيَّض الله له فرصة جديدة.

❁ مختار بك الشركسي:

كتب مصطفى صبري أفندي كتابًا بعنوان «القـول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنـون» رَدًّا على ما كتبه هيكل باشـا حول الأنبياء ومعجزاتهم، وقد نُشِـر هذا الكتاب في القاهـرة، وكان يُباع في المكتبات آنذاك.

كان الأمير محمد علي باشـا وَلِيّ عهد الملك فاروق، وكان سـكرتيرُه الخاص يُدعى مختار بك، وهو شخص من أصل شركسي، رأى كتاب صبري أفندي، ولاحظ أنه كُتِب تحت اسـم مؤلِّف الكتاب: مصطفى صبري.. شيخ الإسلام للدولة العثمانية سـابقًا، ولاحَظَ أنّ الكتاب طُبِع حديثًا في القاهرة، وقد رأى الكتاب في مكتبة دار الثقافة، فاستفهم من البائع:

- على ما يبدو أن المؤلف في مصر، هل تعرفون عنوانه؟

- نعم، نحن نوزِّع الكتاب، اجتمعتُ معه أمس، تفضَّل، إليك عنوانه.

أخذ مختار بك الكتاب، وأحضره إلى الأمير محمد علي باشا، وشرح له حال الأسـتاذ بقدر ما اجتمع بين يدَيه من معلومات، فردَّ الأمير محمد علي باشا قائلًا:

مختار بك، إذا ذهبتُ أنا شـخصيًا فزيارتي إلى الشيخ ستَلفِت أنظار مَن حولَنا، وهذا ليس مناسبًا في هذا الوقت، فنحن في حالة حرب، خذ السيارة واذهب إليه، وادعُه فليأتِ معك إلى القصر.




▲ الأمير محمد علي توفيق ولي عهد الملك فاروق

كلمات ولي عهد ملك مصر:

في تلك الأيام ما كان يَنِدُّ عن جواسيس الإنجليز شيء، فكانوا يراقبون كل صغيرة وكبيرة، ويتتبّعون الجميع، ولذلك كان كبار رجال الدولة والسياسيين يتحسّبون من لقاء أحد رجالات الدولة العثمانية السابقة، فعانى هؤلاء من التشرُّد والإهمال، ولم يكن يجرؤ أحد على السؤال عن حال أفراد العائلة السلطانية العثمانية، أو شيخ الإسلام، وغيرهم من رجالات الدولة، ولولا سعي وجسارة عبد الرحمن عزام باشا، لربما كان مصطفى صبري أفندي وعائلته قضوا نحبهم جوعًا وإهمالًا، فرحمه الله، وجزاه كل خير، وأفاض عليه من شآبيب رحمته.

كان مختار بك يتحدث اللغة التركية أيضًا، وجاء إلى صبري أفندي بالسيارة يزوره، ثم دعاه لزيارة ولي العهد، واصطحبه معه إلى القصر، وقدّمه لولي العهد الأمير محمد علي باشا.

وكان الأمير محمد علي باشا قد قرأ كتاب الأستاذ صبري، وأُعجب به كثيرًا قبل أن يَفِد عليه في القصر ويلتقيه شخصيًا، فقدَّم اعتذاره:

ـ ألتمس منكم العذر فضيلة مولانا على ما بَدرَ منا من التقصير في القيام بحق استضافتِكم، والسؤال عن أحوالكم، وتقديم المساعدة اللازمة لفضيلتكم، ويؤسفني أنه لم يبلغنا ما أنتم فيه من شدة وفاقةٍ إلا الآن، ولكن تعرفون ما نَمُرُّ به من ظروف صعبة في هذه الأوقات.

ثم قال بعد الإعراب عن اعتذاره:

ـ أرجوكم يا سيدي، من فضلكم، لو أنكم تصارحوننا بحقيقة حالكم، ما مَورِدكم، وكيف تتدبرون أمر معيشتكم؟

فقال الأستاذ مصطفى صبري:

ـ رضي الله عنكم يا سيدي الأمير، لقد خصَّص لي الوزير عبد الرحمن عزّام باشا منذ بضع سنوات معاشًا قيمتُه اثنا عشر جنيهًا مصريًا شهريًا، أتقاضاها من الأوقاف.

وعندما سمع الأمير هذا الجواب توجه إلى سكرتيره الخاص قائلًا:

ـ مختار بك، قدِّم لمولانا المبلغ نفسَه كلَّ شهر أيضًا.

ثم كرَّر صبري أفندي إيثاره وغيرته على زاهد أفندي، فقال:

ـ سيدي، كما أن معي هنا في القاهرة وكيل مشيخة الإسلام، الأستاذ زاهدًا الكوثري، إنه يتقاضى من الأوقاف معاشًا شهريًا يتدبر به معيشته.

فسأل الأمير محمد علي باشا:

ـ كم يأخذ؟

ـ سبعة جنيهات.

فقال الأمير لسكرتيره:

ـ إذن، قدِّم له أيضًا سبعة جنيهات شهريًا.

ولله الحمد والمنة، تخلَّص الأساتذة الأفاضل بذلك مما كانوا فيه من شَظَفِ العيش وشدة الفاقة.

❁ يعتصره الألم لحال أفراد العائلة السلطانية العثمانية:

وكما ذكرت آنفًا لم يكن فضيلة أستاذنا يُظهر الشكوى أو التبرم أبدًا، فكنا نجلس على كراسي مصنوعة من القشّ مدة ستّ سنوات لم يتغير فيها شيء من أثاث المنزل أبدًا.

فما كان يتألم الشيخ لحاله، بل كان يعتصره الألم لما آلَت إليه أحوال أفراد العائلة السلطانية العثمانية، ويقول:

ـ إذا كان كل هذا جزءًا من خطة مُدبَّرة، فيا لَقُدرة هذا العدوِّ على إحكام خُطَطه! لا يمكن لكل هذا أن يكون محض صدفة واتفاق، فإلى ماذا يرمي العدو من تدمير هذه العائلة بالذات؟ ماذا يُخفون؟ وفي نفوس مَن يحاولون بفعلتهم هذه بثَّ الرعب والذعر، وإلى أين يحاولون توجيه دفة التاريخ بهذه الألاعيب والمؤامرات؟

هل في التاريخ عائلة ملكية تعرَّضَت لمثل هذا الظلم والخيانة؟ كانت قد نُفِيت العائلة الروسية أيضًا، ولكنهم خرجوا بما لديهم من أموال، وكانوا يَحظَون بحماية طبقة النبلاء في أوروبا، وعاشوا فيها عيشة الأمراء والسادة.

أما العائلة العثمانية فتعرضت لضغوط جَمّة، مادية ومعنوية، وعانت الكثير من الشدائد والفاقات، حتى اضطر بعض أفرادها لامتهان أعمال

لا تَلِيق بكرامة أمثالهم، فعمِل بعضُهـم بَوّابًا، ولجأ بعضُهم إلى الانتحار من شدة ما عاناه في غربته.

ما هذا العار الذي يُكلِّل حكومة أنقرة؟ نفيتم هذه العائلة إلى خارج البلاد مع أنهم أبناء أسـرة حكمت هذه البلاد سـتة قرون، بـل إن الأراضي التي تعيشـون عليها وتتنعّمـون بخيراتها، والقصـور التي تتمتّعـون فيها، كانت ممتلكاتهم ذات يوم.

حتى عندما يُنفَون إلى الخارج، فإنهم يُمثّلون مواطنيهم وأبناء شـعبهم، فلا أقلّ من أن يُخصّص لهم ما يحفظ كرامتهم ويَسُـدُّ فاقتهم، فلا يتسوّلون رحمة أحد.

فإن لم تفعلوا هذا احترامًا لتاريخ هذه العائلة العريق في هذا الوطن منذ قرون، فافعلوه حفظًا لماء وجوهكم وكرامة شعبكم؛ فإنّ مَن يرى ما آلت إليه أحوال هذه العائلة سـيتّهم هذا الشـعب بأنه عديـم الوفاء ناكِـرٌ للجميل، فتشـوّهون بفعلتكم هذه تاريخًـا عريضًا لأمـة عظيمـة، وتَصِمُونَها بأقبح الأوصاف! عجبًا لهذه الحال التي ألَمّت بأمة الترك المسلمة!

❁ ميرالاي في حاجة ماسّة:

ذات يوم عندما كنا في زيارة الشيخ مصطفى صبري أفندي توجّه لنا بالقول:

ـ أيها السادة، تلقّيت رسـالة كريمة من السيد صادق صبري بك، أرسلَها من الإسـكندرية، ومنذ قرأتُها جَفانـي النوم حُزنًا وكَمَدًا علـى ما حَلّ بهذا الرجل الجليل، إنه يُقيمُني من نفسه مقام الأب والمعلم، ويَبُثُّني ما حلّ به من ضائقة أُحكِمَت عليه حلقاتُها، يترقّب الحلّ ويبحث عنه، ويأمل المسـاعدة، ولا أعرف ماذا بوُسعي أن أعمل.

فاندفع علي يعقوب بك للجواب:

ـ سيدي، نأخذ ـ نحن الطلبةَ ـ منحة بقيمة أربعة جنيهات مصرية، يستطيع كلٌّ واحد منا أن يُسهِم بنصف جنيه.

ـ إذن، وأنا سأضيف نصف جنيه أيضًا، وهكذا يصير المبلغ جنيهَين، وهذا يكفي السيد صبري ويَسُدُّ حاجته الآن.

ومنذ ذلك اليوم قدَّم كلٌّ منا أنا وعلي يعقوب بك ومصطفى رُنيون بك نصف جنيه، وقدَّم شيخ الإسلام نصف جنيه أيضًا، وأرسل هذا المبلغ إلى السيد صادق صبري طيلةَ إقامته في الإسكندرية.

ولكن حرصًا على مشاعر السيد صادق صبري بك كتم مصطفى صبري أفندي مصدر المال عنه، وكان يرسله على أنه من مصدر آخر، فلن يجد جنرالٌ عسكري متقاعِد قبول هذه المساعدة من طلبة أمرًا يَلِيق به، وسيوقعه في الحرج منا.

وقال لنا فضيلة الشيخ:

ـ يا أولادي، كلٌّ ينفق من سَعته، فمن كان لديه الكثير يتصدق بالكثير، ومن كان لديه القليل يتصدق بالقليل، ولكن المعوَّل على الصدق والإخلاص، دخلُكم ضئيلٌ، وتحتاجون أيضًا إلى شراء الكتب، فاحتياجات طلاب العلم للكتب لا تنتهي أبدًا، ومع ذلك جادت نفوسكم بهذه المساعدة عن رِضًا وطِيب نفس، تقبَّل الله منكم، وجعلها في ميزان حسناتكم.

فعقَّبتُ قائلًا:

ـ سيدي الكريم، صدقتم، نحن بحاجة للكتب، لكننا في هذه المسألة إزاءَ حياة، وعندما تَعَضُّ الحاجة ميرالاي بك فليس من اللائق التفكير في شيء آخر.

❁ شيخ الإسلام وصوم غاندي:

عندما اشتعلت انتفاضات الهنود ـ مسلمين وغيرهم ـ ضد البريطانيين، كنت في القاهرة، وكان غاندي يتزعَّم هذه الحركة آنذاك، وإلى جانبه قادة المسلمين، قبل انفصال الباكستان عن الهند.

وقرَّر غاندي وقتها إعلان الصوم احتجاجًا على ممارسات الحكم البريطاني، وكانوا يتخوَّفون إذا مات جراء هذا الصوم أن تندلع في الهند انتفاضاتٌ لا يمكن لأحد أن يقف في وجهها، وقد يؤدي ذلك لانقلاب الرأي العام العالمي ضد البريطانيين، بسبب موت رجل مسالم عجوز، قد وهن عظمُه واشتدَّ ضعفُه، وليس له من متاع الدنيا إلا قِطعتا قماش يتستَّر بهما، وهذا ما كان يريده غاندي.

وفعلًا، ما إن أعلن غاندي صومه حتى بدأت الأحوال تتطور بسرعة في مختلف أنحاء العالم، وأخذت جميع الصحف ووكالات الأنباء تتحدث عن الرجل.

وفي ذلك الوقت أتذكر أن مصطفى صبري أفندي قال:

ـ يا له من عالم عجيب! يهتز لصوم غاندي الطوعي، ولا يحرِّك ساكنًا لصوم شيخ الإسلام العثماني وعائلته الإجباري منذ سنوات، بل ولا يدري أحدٌ في هذا العالم الإسلامي عن حاله شيئًا، عجبًا لهذه الحال التي أوصل الإنجليز الكفارُ المسلمين إليها، فأفراد العائلة العثمانية انقطعت بهم السبل في حياة بائسة، وشيخ الإسلام طعامه الفاصولياء مدة أشهر، ولا يعرف أحدٌ من المسلمين عن ذلك شيئًا!

ومرة قال هذا الكلام في حضرة مفتي فلسطين أمين الحسيني، فتأثر المفتي بكلام الشيخ، وبكى بحرقة ونحيب.

❁ توكُّل الشيخ:

كان إيمان الشيخ مصطفى صبري أفندي واضحًا جليًّا في كل أحواله، دائم التوكل على الله، لا يشكو من حاله التي هو فيها مهما بلغت شدةً وفاقةً، ويمضي في الطريق التي يعرف صدقها ولو كان وحيدًا.

لمّا فقد صِهرَه زكي بك بمرض السِّلّ إثرَ معاناته شَظَفَ العيش وبؤس الحياة التي تعرَّض لها في رومانيا، قال الأستاذ فيه قصيدة، أذكر هنا بعض معانيها:

ـ يا إلهي، ما كنت أظن أن تقضي على هذا الشاب الموهوب بالموت في هذه السنِّ الصغيرة، ولكنها قدرتك وحكمتُك وقضاؤك وقَدَرُك التي لا قيمة لعقل أو ذكاء أو ثروة أمامها، إنّ هذا الموت المفاجئ الذي حكمتَ به على زكي ضاعَفَ خشيتَك في نفسي أكثر وأكثر يا رب.

❁ محمود شوكت أفندي:

في وقت من الأوقات أسعف الحظُّ محمود شوكت أفندي على غير ميعاد، حيث إنّ إحدى مُرَبِّياته في صغره ـ وكانت امرأة شركسية ـ تزوَّجَت بأحد باشوات مصر، ولما توفي هذا الباشا الغنيُّ وَرِثَت عنه ممتلكاته ومزارعه، وما إن علمت هذه السيدة بحال شوكت أفندي والفاقة التي يمر فيها خلال إقامته في مصر حتى سارعت للتنازل عن جميع أموالها وأملاكها لصالحه.

وقد سمِعنا في تلك الفترة أن شوكت أفندي كان بعد حصوله على هذه الثروة الكبيرة يتفقَّد أحوال أفراد العائلة العثمانية، ويستنقِذهم مما هم فيه من فقر وعَوَزٍ، إلا أن جمال عبد الناصر بعد استلامه مقاليد الحكم صادَر كلَّ هذه الأموال، مما ألجأ محمود شوكت أفندي أن يُهاجِر إلى باريس.

رجاء علماء الأزهر

جاء بعض علماء الأزهر لزيارة الشيخ مصطفى صبري أفندي ذات يوم، وأعرَبوا عن مقصدهم من الزيارة على النحو الآتي:



▲ محمد حسين هيكل

ـ سيدي، كما لا يخفَى على فضيلتكم، فإن محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف السابق، ورئيس مجلس الأعيان مؤخرًا كتب كتابًا بعنوان «حياة محمد»، وقد نُقِل إلينا أن هيكل باشا خطَّ كتابه هذا بوَحيٍ من كتاب مفكر فرنسي يحمل العنوان نفسه، كان قد قرأه هيكل باشا وتأثَّر به أثناء دراسته في فرنسا.

وينكر الباشا في كتابه هذا المعجزات، محاوِلًا ـ عبر تأويل الثابت منها بطُرق شتّى ـ أن يقدِّم تفسيرًا مختلفًا للمعجزة، ثم يُسوِّغ موقفه هذا بأن النبي محمدًا ﷺ ليس بحاجة لمعجزة خارج القرآن.

وقد تسرَّبَت إلى عقول هؤلاء الكُتّاب في العصر الأخير مقولات الفلسفة المادية والوضعية اللتَين تحولَتا لوحش مفترس، يَبُثُّ سمومه في عقل هذا الجيل وروحه، حتى هزَّ ثوابتهم، وزعزع أُسُس إيمانهم، فصاروا لا يُقِرُّون بالمعجزات، تحت ذريعة معارضتها لقوانين الطبيعة، ويُغفِلون صفة النبوة في النبي محمد ﷺ، في حين يسلِّطون الضوء على عظمته وعبقريته، مع أن العالم

مليءٌ بالأشخاص العظماء، ويمكن للإنســان أن يصبح عظيمًا وعبقريًا بالجد والاجتهاد، ولكن النبوة محض هِبة واصطفاء من الله تعالى، لا تُكتسب بالعمل.

فطلب وفد علمــاء الأزهر من فضيلة مصطفى صبــري أفندي كتابة ردٍّ على كتاب محمد حسين هيكل باشا، حيث إن الكتاب يضم بين دفتَيه بعض المباحث الفلسفية المعاصرة التي لم يكن لعلماء الأزهر كبيرُ إلمام بها، وقالوا:

ـ بعض أبواب الكتاب مبنية على الفلســفة المعاصرة، وقد لا نســتطيع ـ لقلة بضاعتنا في هذا العلم ـ تناوُلَها على نحو رَصِين، مما سيجعلنا عُرضة للسخرية أمام هؤلاء المتنوِّرين ـ أصحاب الطرابيش ـ ولُوكةً في ألسنتهم.

لم يكن في مصر آنذاك ـ كما هو الحال في تركيا ـ قوانين تجبر الناس على ارتداء القبَّعــة الأوروبية، وكان يُفضِّل رجال الدولة ونخبة المجتمع والشــباب المثقف والمســيحيون العرب ارتــداء الطربوش بديلًا عــن العمامة، فكان في المجتمع تمايُز بين المعمَّمين والمطَربَشين.



حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين

زيــارة حســن البنــا لشــيخ الإســلام مصطفى صبري أفندي:

وخطَّ الشيخ مصطفى صبري أفندي ـ اســتجابةً لرجاء العلمــاء ـ رَدًّا على هذا الكتاب، ولكــن لم يكن لديــه من المال ما يستعين به على طباعة الكتاب.

في هذه الأثناء ســمع مؤسِّس جماعة الإخوان المسلمين، الأســتاذ حسن البنا، بقصة الردِّ الــذي كتبه الأســتاذ مصطفى

صبري أفندي، وتعسُّر طباعته، فجاء ذات يوم بصحبة بعض تلاميذه من نخبة الطلاب الجامعيين لزيارة فضيلة الأستاذ مصطفى صبري أفندي، وكان هذا اللقاء الذي جرى عام ١٩٤٣ هو اللقاء الأول بينهما، وقال حسن البنا:

ـ مولانا، ترامَى إلى سمعنا أنكم كتبتم كتابًا تَردُّون فيه على هيكل باشا، ولكن ما يعانيه الجميع في فترة الحرب الآن من ضيقٍ وعَوَز حال دون طباعتكم للكتاب، فأرغب في شراء مئتي نسخة من الكتاب، وسنقدِّم لكم الأموال مقدَّمًا لعلكم تستعينون بها على طباعة الكتاب، راجين بذلك أن نكون قد أسهمنا في إخراج الكتاب للنور، وقد كنا نرغب في شراء المزيد، لكن إمكانياتنا الحالية لا تسمح بذلك، إلا أننا نأمل في شراء المزيد مستقبلًا.

وجرى الحديث بين الشيخَين حول عنوان الكتاب أيضًا، اتَّفقا على أن يكون عنوان الكتاب «القول الفصل بين إيمانَين؛ الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون».

❁ وهل يصح إيمان من لا يؤمن بالغيب؟

وكان من المقرَّر في اليوم التالي أن أذهب إلى المركز العام للإخوان المسلمين الذي كان يقع في منطقة الحلمية الجديدة لأستلم المال الذي وعد الشيخ حسن البنا بتقديمه، وكان الأستاذ صبري أفندي قد فكَّر طويلًا ليلة أمس في العنوان الذي اتفقوا عليه، وقال بألمعيته وحِدّة ذكائه:

هل يُنسَب لمن لا يؤمن بالغيب إيمان؟ وهل يسمى إيمانهم إيمانًا أصلًا؟

وأرسل في طلبي، فذهبت إليه في ساعة مبكرة من ساعات الصباح، فقال لي:

ـ يا بني، اذهب على الفور قبل أن يُطبَع إعلان الكتاب، وبلِّغ تحياتي للشيخ البنا، وقبِّله بين عينَيه نيابةً عني، وقل له بأن الأستاذ مصطفى غيَّر اسم الكتاب على النحو الآتي: «القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون».

وقد بدأ المعلم محمد جودت بك(١) في ترجمة هذا الكتاب في مجلة «دوغان كونِش»: (الشمس المشرقة).



▲ معلم جودت

❁ النص عسير القراءة:

ذهبت ـ العبد الفقير ـ إلى المركز العام للإخوان المسلمين، وأخذت ثمن النسخ المئتين، وكان قد حُدِّد سعر النسخة الواحدة بخمسة عشر قرشًا، فاشتريت بهذا المال ما يكفي من الورق ذي الجودة العالية، حيث إن العثور على الورق كان أمرًا صعبًا، فكل شيء يُستورَد من الخارج، فمصر كانت تخضع في تلك الفترة للإدارة البريطانية التي حالَت دون نشوء صناعة تُذكَر في البلاد.

---

(١) المعلم محمد جودت (١٨٨٣ ـ ١٩٣٥) مُرَبٍّ ومؤرخ تركي، وُلد في مدينة بولو، التحق بدار الفنون في إستانبول عام ١٩٠١، ثم بدار المعلمين، تعلَّم اللغة العربية في مسجد بيازيد، وصار معلمًا للغة العربية، وسافر للتدريس في باكو، ثم تعلَّم اللغة الروسية، وسافر إلى روسيا، والتقى بالروائي الشهير تولستوي، ثم عاد إلى إستانبول عام ١٩٠٨، وعمل في التدريس، ثم سافر إلى باريس، ودرس التربية والتاريخ والفلسفة، وحضر علم الاجتماع على إميل دوركهايم وهنري بيرجسون، ثم رجع إلى إستانبول عام ١٩١٠، واشتغل بالتدريس إلى عام ١٩٣١، فتولَّى أرشفة وثائق السجل العثماني إلى وفاته. انظر: أحمد جونار صايار، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة المعلم جودت (٣٠: ٣١١).

وذهبنا إلى واحـدة من أكبر مطابـع القاهرة آنذاك، مطبعـة الحلبي، برفقة فضيلة الأستاذ مصطفى صبري أفندي، وكان قد قارب الثمانين من العمر، فوقفتُ نفسي على خدمة الشيخ في إتمام هذا الأمر، وبينما كنا نساوم صاحب المطبعة على كُلفة الكتاب وطباعته رأى المنضّد الذي سـيُعنى بتنظيم الكتاب وترتيب طباعته مخطوطةَ الكتاب بخط فضيلة الأسـتاذ مصطفى صبري، فتردَّد في قبول الكتاب لعُسر قراءة الخط، بسبب ارتعاش يد الأستاذ عند الكتابة، وقال:

ـ هذا الكتاب عمل علمي، أمّا لـو كان من قَبِيل ما يُنشَـر في الصُحف، لتدبَّرنا الأمر، وعرفنا المقصد وخمَّنّا الكلام بالنظر إلى السياق والسباق، ولكن الأمر سيكون عسـيرًا للغاية مع مثل هذا النص، وسـتمتلئ صفحات الكتاب بالأخطاء، يؤسفني أن أقول إننا لن نتمكَّن من تنسيقه بهذا الشكل.

❁ كتبت الكتاب مرة أخرى:

كانت المطبعة قريبة من مكان إقامتنا، فرجعنا بصحبة الأسـتاذ إلى سـكننا سَيرًا على الأقدام، وكان فضيلة مصطفى صبري أفندي متألِّـمًا مما جرى، وقال:

ـ وكأنه يقول لي إن يدك لم تَعُد تصلح لشيء.

ولما رأيت الحزن في عينَي أستاذنا خطرَت في عقلي فكرةٌ، فعرضتُها عليه:

ـ سيدي، سأكتب الكتاب بخطي، ونقدمه للمطبعة مرة ثانية.

فأجاب فضيلته:

ـ لم أرَ خطك من قبل، أخشى أن يتذرَّعوا بذريعة أخرى.

ـ سيدي، تعلَّمتُ الخط من الخطاط عقيل الشركسي بتوصية من إحسان أفندي.

وكنت جميل الخط، فكتبت بضعة سطور، وقدمتها له.

فقال الأستاذ:

ـ ما شاء الله، أنت خطاط يا بني! حسنًا، ولكنك طالب، ولديك واجبات كثيرة، وهذا الأمر سيستغرق منك وقتًا طويلًا.

فأجبت بالقول:

ـ سيدي، وهذا عِلمٌ أيضًا، وفوق ذلك هو خدمةٌ، وإني لشَغُوف كلَّ الشغف أن أقوم بهذه الخدمة.

فكتبت الكتاب مَلْزَمةً ملزمة، حتى جاء في ثلاثمئة صحيفة تقريبًا، وقدَّمناه للمُنضِّدين، فأعدوه للطباعة، وسُرُّوا بذلك كثيرًا، وعبَّروا عن سرورهم بقولهم لي:

ـ نادرًا ما نرى خطًّا سهل القراءة على هذا النحو، لقد كانت طباعته في غاية اليسر.

وقد استفدت كثيرًا من هذا الكتاب، حيث إني بكتابته كلمةً كلمة كِدت أن أحفظه، وقد صار هذا الكتاب فيما بعد بابًا في كتاب أكبر سيُطبَع لاحقًا بعنوان «موقف العقل...»، والذي يتألَّف من أربعة مجلدات، وعند طباعة هذا الكتاب عَسُر أيضًا على الـمُنَضِّد طباعة الكتاب من خطِّ الأستاذ، فأعاد علي يعقوب بك كتابتَه وتقديمه للطباعة، بينما كنت في هذا الوقت قد عُدتُ إلى المدينة المنورة.

❁ كتاب العقاد:

في الوقت الذي نشر مصطفى صبري أفندي كتابَه يردُّ على مُنكري معجزات النبي ﷺ، ويدافع عنها أمام المشكِّكين، نشر أحد كُتّاب مصر الكبار، عباس محمود العقاد، كتابًا بعنوان «عبقرية محمد»، يُبيِّن فيه جوانب العظمة في دعوة النبي محمد ﷺ، وفي الكتاب مواضع جميلةٌ، منها على سبيل المثال:

أن يكون النبي أميًّا، لا يعرف القراءة والكتابـة، وأن يكون إلى جانب ذلك سيد البلغاء وإمام الفصحاء، فهذا أمر لا يمكن إيضاحه إلا بأنه هبة ربانية ومعجزة إلهية... وأن ترى رجلًا لا يذهب إلى مدرسة، ولا يطلب العلم، ولا يجلس على ركبتَيه في حلقات العلماء، ولكنّ كلَّ كلمة تخرج مـن فيه يتلقَّفُها العلماء الذين أنفقوا أعمارهم في دراسـة العلم والأدب، وصرَفوا أوقاتهـم للترقّي في مدارج الفكر والثقافة، بكل شغف وتعطُّش، فهذا لا يمكن أن يصدر إلّا عن نبي.

سؤال الشيخ للعقاد:

كان مصطفـى صبري أفنـدي يتمتع بنظر ثاقب، وعقل مُتَّقِد، إلى جانب علمه الواسـع، فيسـتخرج بدقة نظره ما يُبطِنه القائل في تضاعيف كلامـه، وكان يقول الأسـتاذ في كتاب العقاد وما يَرِد فيه من مواضع رائعة وعبارات جميلة:

ـ صـدر في الآونـة الأخيـرة كتاب «عبقرية محمد» للأسـتاذ عباس محمود العقاد، فقرأت الكتاب، وفي الواقع كنت أعلم من قبل مدى قـوة قلم العقاد وعلوّ كعبه في البيان، حتى إني أذكر كيف نجح قديمًا فـي إقالة الحكومة بمقالة رئيسـة نشـرها في جريدة «البلاغ» اليومية، وقد اشـترى شـيخ الأزهر مصطفى المراغي مئتي نسخة من هذا الكتاب، ووزَّعها على الطـلاب، في إشـارة جليّة إلـى تقديره





▲ عباس محمود العقاد



▲ مصطفى المراغي

للكتاب وإعجابه به، جاءت أقوى وأبلغ أثرًا من التقريظ الذي كتبه سابقًا حول كتاب «حياة محمد» لهيكل باشا.

ولكن عندي سؤال أودُّ أن أطرحه على الأستاذ العقاد، إن لم يكن قد سبقني أحدٌ إلى طرحه بالفعل، وأنتظر الإجابة عليه من الأستاذ العقاد نفسه:

هل القرآن الكريم هو كلام النبي المصطفى محمد ﷺ نفسِه، أم أنه وحي نزل عليه من الله تعالى؟

إذا كان جوابه أنه وحي من الله تعالى نزل على النبي بواسطة جبريل فعلى العَين والرأس، وهذا ما نقبله، ولكن كيف سيستطيع الأستاذ التوفيق بين هذا الجواب وآراء الحداثيِّين ومعتنِقي الفلسفة الوضعية الذين ينكرون المعجزات؟

ماذا سيقول منكِرو المعجزات ـ بدعوى معارضتها قوانين الطبيعة ـ والذين يُؤوِّلونها بأنها ثمرة عبقرية النبي المصطفى وحِدّة ذكائه؟ كيف سَيُفَسِّرون هذه العلاقة والاتصال مع عالم الغيب الكبير؟

فإذا كانوا يُقِرُّون أن القرآن الكريم هو الكلام الإلهي الموحَى به من إله لا تدركه الأبصار، عبر مَلَك لا يُرى بالعين، وهو جبريل، وينزل به في شكل لا يخضع للتجربة والملاحظة، أفلا يُناقِضون أنفسهم إذن؟ أليس هذا الاعتقاد في حدِّ ذاته يتناقض مع قوانين الطبيعة التي أبطلوا المعجزات بسببها؟

إمّا أن تكون كلُّها معجزات وإما لا:

فإذا كانوا يقبَلون بالقرآن الكريم معجزةً إلهية عظيمة تتعارَض مع قوانين الطبيعة، فماذا عن المعجزات الأخرى؟ فالإيمان بهذه المعجزات ليس أصعب

من الإيمان بمعجـزة القرآن الكريـم، وتناقُض هذه المعجـزات مع قوانين الطبيعة ليس أقلَّ من تناقُض الوحي معها؟

إذن، فما معنـى دعواهم أن النبـي المصطفى محمـدًا ﷺ لم يأتِ بمعجزة سوى القرآن الكريم؟

ولكن إذا رفضتم هـذا الرأي، وأخذتم بالرأي الآخـر؛ أن القرآن الكريم هو كلام محمد المصطفى ﷺ، وأن محمدًا ﷺ هو نفسُه قائل هذا الكلام، وليس وحيًا مُنَزَّلًا من عند الله تعالى، وبناءً على ذلك فالقـرآن الكريم ليس معجزة، وظهورُه لا يتعارَض مع قوانين الطبيعة، وأن محمدًا كان يَنسِب هذا الكلام الذي قاله من نفسه إلى الله، ويدَّعي أنه وحي من الله تعالى، فماذا ستقولون إذن عن هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣].

فهؤلاء الذين يفكرون على هذا النحو ويكتبـون ويخطبون في كل محفل ومكان، هل هم بمسلكهم هذا ـ في سبيل إنكار معجزة القرآن الكريم ـ يَصِفُون النبي المكرَّم بالدهاء والعبقرية، أم أنهم ينسبونه إلى الكذب والخيانة؟

وعندما طُبع الكتاب ورأت نسخُه النور، أخذت النسخة الأولى وقدَّمتُها لإحسان أفندي، فاطَّلَع عليها، ثم قلت له:

ـ كما ترون يا سيدي، الشيخ يهاجم الجميع.

فأجابني معقِّبًا:

ـ وماذا عساه أن يفعل؟ من يطرق الباب يسمع الجواب، والبادئ أظلم، أما وقد كشَّـروا عن أنيابهم فلا بد من إظهار قوة تَردَعُهم، وللشـيخ من قوة الإيمان ما يأتي على كلِّ أباطيلهم، هل رأيته يومًا ما يشتكي من حاله أو يتبرَّم بقَدَرِه؟ فالشيخ يصبر على الجوع والفاقة والبؤس والشقاء، لكنه لا يَحِيد عن معتقده قِيدَ أنمُلة، ولا يساوم في الحق قِيدَ شعرة.

المرء في ظلال الإيمان

من الآثار التي تركَتْها صحبة مصطفى صبري أفندي في نفسي، ولا يمكن لتطاوُل الزمان أن يمحوَها، صِدقُه ومروءتُــه، وثباتُه وعدمُ تنازُلِه عما يعتقده ويؤمن به من الحق، وكنت شاهدًا على كل هذه الخصال في السنوات الست التي قضيتها بجواره.

كان مصطفى صبري أفندي رجلًا يعيش حياته بمقتضى ما يؤمن به، لا يتزحزح عن دعوته ومعتقده أبــدًا، ولو كلَّفه ذلك التضحيةَ بكل شـــيء في سبيله، وقد فعل ذلك مرارًا.

وكنت في هذه السنوات الست التي أمضيتها بصحبته أشهد ذلك بنفسي وأراه بعيني، وكان مستعدًّا لتحمُّل أي مسؤولية أو عبء في سبيل إيمانه بالله ورســوله، كان رجلًا صادق الودّ، رابِط الجأش، ثابت الجَنان، نديَّ الكفّ، صَدُوق اللسان، ترى مصداق ذلك في مُناظراته مع خصومه، فكان يقول الحقَّ، ولا يخشى في ســبيله أحدًا، ويَصدُق فيه قول الشاعر محمد عاكف:

أقول الحق ولا أبالي بعد ذلك لائمًا

اقتلوه وتخلَّصوا منه:

كان الشــيخ يتقدَّم صفوف الجهــاد بالكلمة، ويحتــلُّ موقعَه في الصف الأول، يُضَحِّي بعِرضه ونفسِه، ويتقحَّم المخاطر لا يُبالي بما ينهال عليه من نيران السوء والأذى، يحملُه على ذلك إخلاصُه وصِدقُه.



▲ حسين جاهد يالجين

وفي ذات يوم حكى الشيخ نفسُه موقفًا مرَّ به سابقًا، فقال:

ـ كتب حسين جاهد يالجين[١] مقالة في تركيـا، فوجدتُها مضطربة، لا ضابط لها، ولا ميزان تقوم عليه، ولم يردَّ عليه أحدٌ، فكتبت عليه ردًّا تحت اسم مستعار، ثم هو ردَّ عليَّ، وهكـذا تتابَعَت الردود حتى أفحمته، وعجز عـن الردِّ، فلم يجد له مهربًا إلا أن يقول: هذا الشيخ يهدِّدني، ويحاول تشويه سمعتي أمام الجمهور، مع أني لم أفعل أكثر من الرد على الأفكار التي طرحها.

وفي تلك الأيام، بينما كان الاتحاديون مجتمِعين في أحد لقاءاتهم، قال يعقوب قدري قَره عثمان أوغلو:[٢]

---

(١) حسين جاهد يالجين (١٨٧٥ ـ ١٩٥٧) كاتب وصحفي ومترجم وسياسي تركي، وُلد في باليكسير، ودرس في إستانبول، ثم عمل في مجال التعليم، وبعد إعلان المشروطية الثانية انتسب لجمعية الاتحاد والترقي، ودخل نائبًا عن إستانبول في البرلمان، وخاض سجالات حامية مع كثيرين، مما جعله اسمًا مشهورًا في الصحافة، وبعد تولِّي مصطفى كمال الحكم انتقده وانتقد سياسة حزبه، فاعتُقل ونُفي من إستانبول، وحُكم عليه بالسجن المؤبد، ولكنه عاد إلى إستانبول بعد وفاة مصطفى كمال، ورجع إلى النشاط السياسي والكتابة في الصحف إلى وفاته. انظر: عمر فاروق هويون جوزال، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة حسين جاهد يالجين (٤٣: ٣٠٠).

(٢) يعقوب قدري قره عثمان أوغلو (١٨٨٩ ـ ١٩٧٤) أديب ودبلوماسي تركي، وُلد في القاهرة، وانتقلت عائلته إلى إستانبول عام ١٩٠٨، والتحق بكلية الحقوق، ثم كتب في الصحف مؤيدًا لحركة مصطفى كمال في تحرير الأناضول، وانضم إلى حكومة أنقرة عام ١٩٢١، =


▲ يعقوب قدري قره عثمان أوغلو

يا حسين جاهد، لن تستطيع التغلب على هذا الشيخ، اقتُلوه وتخلَّصوا منه، إنهم طفيلياتٌ تَعتاشُ على خيرات الأمة، وباعِثُو فتنة في صفوف العامة، لا يمكن القضاء على فكرهم إلا بقتلهم، هذا الشيخ لا يمكن هزيمته.

عندما وصلتني هذه الأخبار كتبت مقالة أخرى، وكان مما قلته فيها:

أرى في كلمة يعقوب قدري بك هذه تقديرًا للفقير واعترافًا بفضله، وقد قال: إن هذا الشيخ لا يمكن هزيمته فاقتلوه، وأوَدُّ أن أقول: إن الذي لا يمكن هزيمته إنما هو الحق، وليس شخصي الضعيف، وإني ما دمت أتمسَّك بالحق فلن أُهزَم بإذن الله؛ لأن الله معي، فاسلُكوا مسلكي، وتمسَّكوا بالحق، وعندها لن تُهزَموا، إنما تُؤْتَون وتُهزَمون من تمسُّكِكُم بالباطل.

❁ دجاجة واحدة أم أربع دجاجات؟

وفي هذا السياق طرح جناب شهاب الدين[1] أيضًا مزاعم عجيبة وشُبهات غريبة حول مشروعية تعدُّد الزوجات في الإسلام، فكان مما كتبت ردًّا عليه:

= ودخل البرلمان، ثم تولى مهامَّ دبلوماسية في عدة عواصم عالمية، واعتزل الحياة السياسية منذ ١٩٦٠، وتوفي في إستانبول. انظر: ناظم بولات، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة يقعوب قره عثمان أوغلو (٢٤: ٤٦٥).

(١) جناب بن عثمان شهاب الدين (١٨٧١ ـ ١٩٣٤) كاتب وشاعر تركي، وُلد في مانستر، =



▲ جناب شهاب الدين

- يترامى إلى أسماعنا من بعض الشخصيات المرموقة في المجتمع، مثل جناب شهاب الدين بك، أفكارٌ مفاجئة بغرابتها، وخروجها عن حدود المنطق والعقل، فمما يزعمون أنه في فترة ما وفي مكان ما كان الناس يتخذون أكثر من زوجة، ولكن لم ينتج عن ذلك أي ارتفاع في عدد السكان! ويؤيِّدون زعمَهم بإحصائيات يدَّعونها، هذا فعلًا ما صرَّح به جناب شهاب الدين، هذا يؤكد أن الله تعالى كما سلب هؤلاء التجديديِّين عقولَهم سلَبهم أيضا منطقَهم ومحاكماتِهم العقلية، وأودُّ أن أسأل جناب بك: هل دجاجةٌ واحدةٌ تبيض من الفِراخ أكثر مما تبيضُه أربع دجاجات؟ هذه مسألة منطقية واضحة.

هؤلاء يضعون إحصاءاتهم فوق أوامر الله ورسولِه، فيتساءلون: لماذا لا نُخضِع محارم الله للتجربة فنرى ماذا تكون النتيجة؟

= انتقل مع عائلته إلى إستانبول بعد استشهاد والده في الحرب الروسية العثمانية، تخرج في الثانوية العسكرية، ثم التحق بكلية الطب العسكرية، فأرسلته الدولة إلى باريس للتخصص في طب الأمراض الجلدية، وتنقل في الولايات العثمانية مفتشًا طبيًا، فكان مسؤول الصحة في ولاية سوريا، وبعد عَزلِ السلطان عبد الحميد الثاني عاد إلى إستانبول عضوًا في المجلس الطبي الأعلى، ومفتشًا في وزارة الصحة، ثم تقاعدَ وعمل في تدريس اللغة الفرنسية بدار الفنون، وأدين بسبب بعض كتاباته السياسية فأُقيل من عمله، واعتزل متفرغًا للكتابة والتأليف إلى وفاته قبل إتمام معجمٍ طبي كان يعكف عليه في سنواته الأخيرة. انظر: جلال طرقجي، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة جناب شهاب الدين (٧: ٣٤٦).

عجبًا لكم أيها الناس! من الوضوح بمكان أنّ المخمور سيفقد وعيه، وأنّ المرابي سيُفلِس، وأنّ الزاني سيُبتلَى بالأمراض والبلايا، مصيبة هؤلاء القوم أنهم ـ لفساد منطقهم ـ يرون الباطل حقًّا، ثم يعتقدونه ويدافعون عنه.

ولكن لا عجبَ، فقد أتت الآية الكريمة على ذِكر هؤلاء وبيان حالِهم، ومُكابَرتهم على الحقّ الأبلج:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

❁ التضحية بالحياة الآخرة:

من وصايا الأستاذ صبري أفندي التي كانت تبعث الحماسة والهِمّة في نفسي عند حديثه عن غربة المسلمين في آخر الزمان، حتى وإن كانوا يقيمون في معقل الإسلام ووطن الأجداد، هذه الكلمات المهمة:

ـ يا أولادي، تحتاج دعوتنا الغريبة اليتيمة الوحيدة في هذه الأيام إلى أفراد مُميَّزين، مستعِدِّين للتضحية في سبيلها بكل غالٍ ونفيس، رجالٌ لا يُؤثِرون الدعوة على راحة دنياهم ومتعها فحسب، بل ويؤثرونها حتى على بعض قُربات الآخرة!

عندما سمعنا هذه الوصية من الأستاذ صبري أفندي عام ١٩٤٤ تعجَّبنا منها واستشكلناها، وباللغة المستخدَمة اليوم، صُدِمنا؛ لأن هذا القول خطير من الناحية الدينية، كُنا ـ في تلك الأثناء ـ ما زِلنا طلابًا في فاتحة طريق العلم، ولا يخطُر مثل هذا القول على عقولِنا أبدًا.

لكنا حاولنا أن نلتَمِس للعبارة مُسوِّغًا في أن الشيخ لربما عندما قال هذه المقولة كان يستشـعر حالة الغَيْبة بالله عن كلِّ ما سواه، كما يسمِّيها الصوفية حالة السُّـكْر، حين يغيبون في حال من الوَجد والحب لله عن كل ما سـواه تعالى، ولذلك لم نتوقف عندها كثيرًا أو نُولِيها كبير اهتمام.

واحتفظت بهذه المقولة لنفسي لا أُشِـيعُها أمام أحد لفترة طويلة، حتى سمعت مقولةً مشابهة عن المرحوم بديع الزمان النورسي، فانكشف لي وجه الصواب في العبارة.

❁ إن لم يكن الحج واجبًا عليك، فهل تسافر للسياحة؟

جاء أحد تلاميذ الأستاذ بديع الزمان ـ ويُدعى طاهري[1] ـ إلى المدينة المنورة بعد وفاة الأستـاذ، وحكـى لي إحدى قصصه مع أستاذه:



▲ طاهري مطلو

ذات يوم، بينما كنت أمضي في شارع عاشـر أفنـدي، التقيت بنظيف شـلبي، فقـال لي:

ـ أخي طاهري، أنا أذهـب بالحُجّاج في قافلة إلى الحج، ولدي خمسـة مقاعد فارغة، فجهِّز نفسَك وتعالَ معي.

(١) طاهري مطلو (١٩٠٠ ـ ١٩٧٧)، وُلد في إسبرطة، وتعرَّف على بديع الزمان، وصار من طلابه المقرَّبين، حتى سُـجن معه عدة مرات، وكان ينشط في نشر رسـائل أستاذه وأفكاره بين الطلبة والناس. انظر: موقع رسائل النور على الرابط الآتي:
https://sorularlarisale.com/taniyanlarin-dilinden/tahiri-mutlu

ـ فقلت له: نظيف بك، لا يمكنني أن أتَّخِذ مثل هذا القرار دون استشارة الأستاذ، دعني استشِره أولًا.

ـ إذن أُمهلك ثلاثة أيام، أعلِمْني في أقرب فرصة بالقرار النهائي، حتى إذا لم تستطع الذهاب آخذ شخصًا آخر مكانك.

وحثَثْت الخطا إلى الأستاذ مسـرعًا، ولما شرحت له المسألة كانت أولى كلماته لي:

ـ طاهري، أحيانًا يُوسوس الشيطان للعبد في فعل الخير، هل الحجُّ واجبٌ عليك الآن؟

ـ فقلت له: لا يا سيدي، ليس لدي مال.

ـ إذا كان الحج ليس واجبًا عليك، فهل تسافر للسياحة؟ كم يومًا سيستغرق منك الذهاب والإياب؟ أنت الآن تكتـب حقائق الإيمان ليقرأها الناس، عندما تكتبون هذه الحقائق تنتشر بين الناس، فيتلقفونها بنهَم؛ لأنهم في أمَسّ الحاجة إليها الآن، لماذا تفكِّر في حظ نفسـك فقط؟ ولا تفكر في حاجة المسـلمين المحرومين من نعمة معرفة الله، عجبًا لك، هل ستدخل الجنة وحدَك؟ كُن سببًا في دخول غيرك أيضًا.

الحج في حقك الآن عبادةٌ نافلـة، أمّا تبليغ حقائق الإيمان ودلالة الخلق على الله فهـو واجب! لماذا تتخفَّف من المسؤولية وتثّاقـل عـن حملها؟ في هذه الأيام تستطيع كتابة بضعة رسائل أخرى، ربما تستنقذ بها بضعة مسلمين آخرين من الضلال، إيمـان الأمة يتفلَّت من بين أيدينـا، وينهار صَرْحُه أمام أعيُننا، والأمة تهوي فـي طريقها إلى النار لا تلوي على شيء، أما أنت فتجهِّز مكانًا لنفسـك في الجنة، هل سـتدخل الجنة وحدك يا بنـي؟ ألا يمكن أن تنتشل معك بعض إخوانك المسلمين لتدخلوا الجنة معًا؟

عندما قال الأســتاذ كلماته هذه طرقت شَـغاف قلبي، فأُغلِقَت أمامي الأبواب التي كنت أظنها مُشــرَعة إلى الحج، وركضت إلى نظيف شلبي أُخبره بعزوفي عن السفر.

وعندما أخبرنــي الأخ طاهري بهذه القصة رأيــت كيف أن المرحوم بديع الزمان قد آثر الانشــغال بدعوة الخلق إلى الإيمان بالله تعالى على تحصيل ثــواب القُربات ورفيع المقامات في الآخــرة، وقد كان اتفق لي قراءة ما يؤيد هذه القصة في بعض رسائل الأستاذ بديع الزمان حين كتبت مقدمة لســيرة حياته التي طُبِعَت في المدينة المنورة، مــن قَبِيل أنّ على المسلم الداعية إلى الله أن يضحّي بالدنيا وبعض أعمال الآخرة في سبيل نشر الإيمان بالله بين الخلق.

وهكذا بدأتُ بعد سماع هذه القصة أروي كلام صبري أفندي لإخواني وطلابي في المجالس مستظهِرًا بكلام الأســتاذ بديع الزمان، إلا أن مثل هذه المقولات لا تُقــال إلا لأصحاب الهِمَم العالية فــي الدعوة إلى الله، والحماسة في خدمة عباده وإرشــادهم إليه، وإلا فلو قِيل مثل ذلك لـمَن لا تبلغه عقولُهم لكان فتنة لهم.

❁ غسيل الملائكة.. حنظلة:

بعد ذلك أكمل مصطفى صبري أفندي حديثه قائلًا:

يا أبنائي، لا بد أنكم عجِبتُم من مقولتي هذه، فما نَبَسَ أحدكم بِبِنْت شــفة، تستشــكِلون كيف للمرء أن يضحي بآخرته؟ معكــم حق، ولكن انظروا إلى أيِّ مقام سامٍ يمكن للإيمان بالدعوة والحماسة في سبيلها أن تَصِل بصاحبها.

ما لبث سيدُنا حنظلة بن أبي عامر أحد الصحابة الكرام أن دخل بزوجه حتى سمع نِداء الجهاد للخروج مع رسول الله في غزوة أُحُد، كان المنادي يرفع صوته في أزقة المدينة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليَلحَقْ برسول الله»!

فقام حنظلة على الفور، وأخذ يلبس عُدة الحرب، فسألته زوجه:

«إلى أين ولم تغتسِل بعد؟ أتذهب وأنت جُنُب؟»، فأجابها قائلًا:

- قد أفوِّت النبيَّ إذا اغتسلت!

انظروا إلى إيمان هؤلاء الصحابة الذين يستعظِمون التأخُّر خمس أو عشر دقائق عن امتثال أمر النبي ﷺ، ويضحُّون بعمل من أعمال آخِرَتهم في سبيل الاستجابة لنداء الدعوة، ولكن انظروا إلى خاتمة القصة:

استُشهِد حنظلة في المعركة التي أسرع إليها استجابةً لأمر النبي ﷺ، وبعدما تفقَّد النبيُّ ﷺ الشهداء ودفنهم رجع مع مَن بقي من أصحابه إلى المدينة المنورة، فقال النبيُّ ﷺ لأمهات المؤمنين:

- انزِلن بأهل حنظلة وأحسِنَّ تعزية زوجه، واسألْنَها كيف خرج حنظلة من داره؟

ذهبت نساء المسلمين للزيارة وقدَّمْن التعازي، وأبلَغنَ سؤال النبي ﷺ لزوجه، فأجابتهن:

- آهٍ! ما أشدَّ وَقْعَ سؤالكن على قلبي، كيف أقول ذلك للنبي ﷺ؟ لمَّا سمع حنظلة نداء منادي رسول الله إلى الجهاد لَبِسَ عُدّة الحرب على عَجَلٍ، وخرج من البيت مُسرِعًا دون أن يغتسل من جنابته، خشيةَ أن يفوته اللحاقُ برسول الله ﷺ.

عندما أبلغوا النبيّ ﷺ جوابها قال ﷺ: أما الآن فقد عرفت السِّرَّ، لما كنتُ أدفن الشهداء بدمائهم دون أن أُغَسّلهم رأيت الملائكة تُغَسّل حنظلةَ، فعجِبت لذلك، إذن هذا هو السبب.

❁ تقديم نفقة الحج هدية عرس ابنة الجيران:

وفي هذا السياق هناك قصة أخرى مشهورة عن عبد الله بن المبارك، حيث إنه بينما كان يستعِدُّ للذهاب إلى الحج في تلك السنة إذ به يسمع صوت امرأة تبكي في الجوار، فأرسل زوجَه لتقف على السـبب، فتبيَّن لها أنّ ابنة جارهم كانت تبكي لأنها على وشك الزواج، ولكن ليس لأهلها ما يزفُّونها به لزوجها.

فما كان من عبد الله بن المبارك إلا أن أرسل نفقة حجِّه إلى جاره، وقال:

ـ أما وقد جاءك مَن ترضى دينه وخلقه فزوِّجـه ابنتَك، وأنفِقْ هذا المال على تجهيزها وزفافها إلى بيت زوجها.

وهنا كانت المفاجأة، فعندما قفل الحجيج أقبَلوا على عبد الله بن المبارك يهنّئونه على عودته سالِمًا من رحلة الحج، وتعجَّبوا قائلين:

ـ ألم تكن عَزَفْت عن اللحاق بركب الحجيج؟ ولكن متى أدركتَنا في عرفات ومِنًى، فقد رأيناك تطوف بالبيت، وتقف بالمشاعر؟!

❁ ❁ ❁

مفتي القدس الشيخ أمين الحسيني (١٨٩٥ - ١٩٧٤)
في ضيافة شيخ الإسلام مصطفى صبري



▲ مفتي القدس الشيخ أمين الحسيني عندما انتخب مفتيًا عامًّا في ١٩٢١

شـرُفت بلقاء فضيلـة مفتي القدس الشيخ أمين الحسـيني أوّل مرة في دار شيخ الإسـلام مصطفى صبري أفندي، كان فضيلتـه واحدًا من أنقـى وأصدق وأكثر القادة الإسلاميين تفانيًا في خدمة الإسلام إبّان القرن الماضي، وكان عالِمًا مُطّلِعًا، وخبيرًا مُجرِّبًا، بعيد النَّظر صادق الفِراسة، صُلبًا في جهاد أعداء الإسلام، يعرف ألاعيبهم ويكشف حِيَلَهم.

❁ ضيفٌ عزيز جليل:

أرسل إلينا فضيلة شيخ الإسلام يخبرنا:

- سيأتيني اليوم ضيفٌ عزيز، فتفضّلوا أنتم أيضًا.

لم نكن على علم مَن الضيف العزيـز، فذهبنا ثلاثتُنا، أنا ومصطفى زُنيون وعلي يعقوب بك، ورافقَنا أيضًا شابٌ يوغسلافي يُدعى «كامل»، كان يعمل في القنصلية اليوغسلافية، وكانت لديه سيارة، فأخذَنا بها إلى منزل شيخ الإسلام.

لم يكن فضيلة المفتي يرتدي ملابسه الرسمية المعروفة من عمامة وجُبّة، فقد كان في تلك الفترة يتجوّل بين الناس مُتَخفِّيًا بلباس العامة.

❁ أنا دائمًا تحت المراقبة:

استمر الاجتماع ثلاث إلى أربع ساعات تقريبًا، لم يكن ابن شيخ الإسلام إبراهيم صبري بك في المنزل يومها؛ كان في الإسكندرية، فافتتح شيخ الإسلام الحديث ـ بعد السلام والتحية ـ بقوله:

ـ فضيلة المفتي المحترم، أنا لا أكاد أخرج من المنزل إلا يوم الجمعة، وأحيانًا أزور أبنائي هؤلاء في سكن محمد أبو الذهب برواق الأتراك في الأزهر الشريف، أما أنتم ففي قلب صراعات العالم وخِضَمِّ النضال وساحة الجهاد، لذلك نرجو منكم الآن أن تحدِّثونا بما يجري حولكم، ونحن كلنا آذانٌ صاغية لكل حرف منكم، فمعلوماتي عما يدور في العالم من حولنا تَقادَم عليها العهدُ، ونحن بحاجة أن نستمع إليكم.

قال فضيلة المفتي:

ـ بداية أودُّ أن أقدِّم لفضيلتكم شديد اعتذاري على تقصيري في زيارتكم، وأستميحكم العفو عن ذنبي هذا، ولكنهم لا ينفكُّون يلاحقونني في كل مكان أنزل فيه، ويُرسلون الجواسيس ورائي أينما توجهت، فكما تعرفون أنا في مرمى استهدافهم دائمًا، وأخشى أن يلحقكم بسببي رشاشٌ من ضَرَرِهم وشَرِّهم، فالإنجليز واليهود يتعقَّبونني حَذْوَ النعل بالنعل، وأعلم أني دائمًا تحت أنظارهم.

❁ مُصاب تركيا جَلَل:

تحدث حضرة المفتي عن خطط اليهود التي يَحِيكونها ضد المسلمين، ومكائدهم التي يمكرونها بهم في كل مكان، ثم ساقه الحديث إلى تركيا.

ـ إن العالم الإسلاميّ كلّه يُتابِع ما يجري في تركيا باهتمام وعناية، فما أصاب تركيا لم تُصَب به أيُّ أمة أخرى، هناك نوايا خفية مُبَيَّتة وراء ما يُحاك

لتركيا اليوم، فقد خسر العالم الإسلامي الكثير ـ وما زال ـ باقتلاع تركيا عن الجسم الإسلامي الكبير.

والله لا ينقضي عجبي أبدًا من قُدرة السلطان عبد الحميد على مواجهة كلِّ هذه القوى اليهودية والداعمة لها بمفرده! كيف ثبت في وجههم ثلاثًا وثلاثين سنة؟ يا لَصَلابة إيمانه وقوة يقينه!

يقول هرتزل في مذكراته: على ملاحقتي وتعقُّبي للسلطان وحاشيته تسع سنوات كاملة لم أحظَ بلقائه أكثر من خمس مرات... ومع أني نجحت في الوصول إلى أركان القصر وأهم شخصياته، وعقدت روابط الصداقة معهم جميعًا، إلا أني لم أظفَر بشيء أبدًا غير الاضطراب والقلق الذي أحاطني به السلطان.

للأسف يا سيدي، فلسطين التي لم يتنازل السلطان عن شبرٍ منها مع كل العروض المغرية التي قدَّمها له اليهود، منحناها نحن لهم على طبق من ذهب.

الحزن يخيم على جبهة جناق قلعة:

وقد أفضى لنا فضيلة المفتي بأحوال مؤسِفة عاشها أثناء انضمامه إلى الجيش العثماني المرابط على جبهة جناق قلعة أثناء الحرب العالمية الأولى، بعثَتْ في نفوسنا الألم والحزن، فكان مما قاله:

ـ كنت في العشرين من عمري يا سيدي حين التحقت عن كامل رِضًا وحماسة إلى الجيش العثماني الرابض في منطقة جناق قلعة، وقبل المسير إلى خطوط الجبهة الأمامية خضعنا نحن المتطوِّعين ـ بناءً على طلبنا ـ لتدريب عسكري يؤهِّلنا للتعامل مع بعض الأسلحة، ومعرفة ما ينبغي علينا فعله في ظروف المعارك، فقد قلت لهم وقتها: أنا لا أُجِيد استخدام السلاح

إلا بندقية الصيد، فأُرسِلنا إلى معسكر تدريب في خطوط الجبهة الخلفية، وأجرَينا تدريبات عسكرية هناك.

لكن ما صدمني وحزَّ في نفسي كثيرًا هو سلوك الضباط الأتراك العبَثي واللامبالي في هذا المكان المقدَّس والمبارك من ساحات الجهاد، كانوا لا يهتمون بالصلاة ولا يؤدُّونها، ولا يجتمِعون في مجالسهم إلا على معاقرة الخمر والعبِّ والنَّهَل منها، ولم يقتصر الأمر على الضباط فحسب، بل كان يؤلمنا أن نرى الجنود يخدمونهم، ويقدمون لهم الخمور، ويرتِّبون لهم موائدها داخل الخيام، وكنا نحن المتطوعين القادمين من أماكن بعيدة من القرم وداغستان والقوقاز نشكو كثيرًا مما نراه، ونتحدث فيما بيننا: «عجبًا لما نعيشه هنا! فبأيّ نية أتينا؟ وأيّ مقصد دفعنا للتطوع في هذه الحرب؟ ثم لما وصلنا انظروا ماذا نرى! وأي حال مُزرية نشهد بأعيننا!».

للأسف! كان ثمانية من كل عشرة ضباط يعيشون في خطوط الجبهة الأمامية على هذا النحو، فلم يكن هؤلاء الضباط متفائلين بالحرب، فكثيرًا ما كنت أسمع الضباط يقولون: «ما هذه الحرب التي لا ناقة لنا فيها ولا جمل؟ هذه حرب أكبر منا، ولن نُحرِز النصر فيها، فليس لدينا من العَتاد والعُدّة ما يكفي، فلنعترف بالهزيمة، ولْتَنتَهِ هذه الحرب، ولا حاجة للعناد والمكابرة».

❁ العبودية الأشد:

وعقَّب فضيلة الأستاذ صبري أفندي على حديث المفتي أمين الحسيني بقوله:

ـ في الحقيقة، هنا مكمن المعضلة الكبرى، فشعوبُنا لم تستسلم ظاهرًا للأعداء، بل جاهدَتهم، ولكنها أسلَمَت قياد فِكرها وروحها وقلبها للغرب، فأشد أنواع العبودية عبودية الفكر والروح، فكان الحرِيُّ بنا أن نأخذ عن أعدائنا علومهم وصنائعهم وخططهم الحربية وأساليبها، ولكن شريطة ألّا نكون مثلهم،

وهنا بدأت مصيبتنا، لقد فقدنا وحدَتَنا الإسلامية الموثقة بعُرى الإيمان، فعندما استدبَرنا وحدة الدين التي تجمعنا على اختلاف أعراقنا ظهر فينا من يقول: أنا تركي، فردَّ عليه العربي: أنا عربي، وغدًا سيرد الكردي: أنا كردي، والشركسي: أنا شركسي، والألباني: أنا ألباني، وهكذا دوالَيك حتى تتحول أمَّتُنا الواحدة إلى مِزَق متفرقة بعد أن كانت جسدًا واحدًا في ظل الدولة العثمانية، وبعد أن عاش كل المواطنين في هذه الدولة الواحدة إخوة تحت راية الإسلام.

فقال المفتي:

ـ سيدي، ما زلت أذكر كيف كانت دعواتنا دائمًا في بيوتنا: «اللهم احفظ إمامنا وسيدَنا وكبيرَنا ونائب نبينا خليفة المسلمين»، إن غياب مقام الخلافة ترك العالم الإسلامي دون قائد، صِرنا جسدًا بلا رأس، وكنت أقول دائمًا: إن الحرب العالمية الأولى كانت حربًا اجتمع أعداؤنا على إشعالها ودَفْعِنا إليها؛ للقضاء على الدولة العثمانية، وترك المسلمين دون قائد».

❁ كلمات السلطان وحيد الدين:

عندما تطرق المفتي في حديثه إلى الخلافة قال مصطفى صبري أفندي كلمات للتاريخ:

«حين كنت شيخًا للإسلام وقع صدامٌ معروف بيني وبين السلطان وحيد الدين، فقد وقفتُ ضده في تنصيبه لأحد القادة العسكريين[١]، فكان جواب السلطان على موقفِي وقتها:

(١) يشير إلى معارضته السلطان وحيد الدين في إرسال مصطفى كمال إلى الأناضول، وتعيينه قائدًا للقوات الشعبية بهدف إعلان الثورة على قوات الحلفاء التي احتلت تركيا، فقد كان معروفًا عن شيخ الإسلام مصطفى صبري معارضته لإرسال مصطفى كمال لقيادة حرب الاستقلال، وكان يقترح أشخاصًا آخرين، وقد مر ذكر الحديث الذي دار بين شيخ الإسلام والسلطان في موضع آخر من الذكريات انظر: ص ١١٥.

يا فضيلة شيخ الإسـلام، هل تفكرون فيَّ؟ هل تخشَـون أن يُفلِت زمام الأمور من يدي، وأخسر كرسي السلطنة؟ لا يهمني كلُّ ذلك، أريد أن يتحرر الوطن، ولتذهب سلطتي ومُلكي إلى الجحيم.

لقد أظهر السلطان نُبْل مَحْتِدِهِ، وأصالة معدنه، وصِدق تضحيته في سبيل الوطن، ولكنّ قلقِي كان لشيء آخر، أجبته وقتها:

ـ مولاي السلطان، لا أفكر في سلطنتكم، ولا أخشى على ضياعها، وإنما كلُّ ما أخشاه هو ضياع مقامكم الذي تمثِّلون به الخلافة العلية الإسلامية.

مولاي، إذا رحلَت السلطنة فستأتي سلطنةٌ أخرى، وإذا عُزِل السلطان فقد يتولى مكانَه سـلطانٌ خيرٌ منه، ولكن إذا ذهب الدين فلن يأتي دينٌ آخر، كلُّ ما أخشـاه أن تُلغى الخلافة؛ لأنها ملك المسـلمين وضمانُهم المعنوي من الضياع والشـتات، فإلغـاء الخلافة يعني تفرُّق المسـلمين وغياب قيادتهم.

لقد حذَّرَنا النبيُّ الكريم ﷺ ونبَّهنا لأهمية القائد عندما قال لنا معاشـر المسـلمين: «إذا خرج ثلاثة في سـفر فَلْيُؤَمِّرُوا أحدَهم»[1]؛ لكيلا يتنازعوا فيفشلوا وتذهب رِيحُهم، ولو اسـتيقظ كلُّ هؤلاء المسلمين اليوم دون قائد روحي واستمروا على ذلك ـ لا قدر الله ـ فسـيتفرَّقون شَذَرَ مَذَر، ويذهبون أياديَ سَبَأ، ويحل بهم البلاء الأعظم والـمُصاب الجَلَل.

وللأسـف الشـديد وقع ما كنت أخشـاه بالفعل، وتحقَّقَت مخاوفي التي اجتهدت في إقناع السلطان بها مرارًا، انظروا إلى حال المسلمين اليوم، وما نزل بهم من الدمار والثبور.

---

(١) أبو داود، السنن، كتاب الجهاد، باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم.

أما البابا.. فلا أحد يمسه:

واصَلَ شيخ الإسلام قوله:

- انظروا إلى رأس الكنيسة المسيحية، لا يزال هو البابا، لا أحد يَمَسُّه أو يقترب من مقامه، ما مدى تأثيره؟ وكم من الناس يستمعون له ويدينون له بالولاء اليوم؟ ومع ذلك يظلُّ ثابتًا في مكانه، لا يتعرض لأي انتقاد، وأما خليفة المسلمين وشيخ الإسلام فتُحاك المؤامرات وتُنسَج خيوطُها لإزالتهما وإلغاء مقامهما.

كنت قد تحدَّثتُ مؤخرًا مع طلابي حول غاندي، يُعلِن إضرابًا عن الطعام، ويبدأ صومًا مفتوحًا لدفع العالم إلى التحرك، وإجبار الإنجليز على الانصياع لشروطه، فإذا مات غاندي في صومه هذا فليتخيَّل الإنجليز ماذا سيحل بهم من كوارث وانتفاضات!

قلت للشباب:

- سيبدأ غاندي صيامه المفتوح، فإذا مات في صيامه بسبب شيخوخته وكِبَر سِنِّه، فسيُثير الرعب ويُجبِر إنجلترا، بينما شيخ الإسلام صائم منذ سنوات، ولا يدري به أحد! ينتابني فضولٌ لمعرفة ما سيفعله المسيحيون لو أصاب البابا مثل ما أصاب شيخ الإسلام!

لم يتمالك المفتي عيونَه، فانهمَرَت بالدموع وأجهَشَ بالبكاء تأثُّرًا بكلام الشيخ صبري أفندي.

حال الدول الإسلامية:

تابع مصطفى صبري أفندي حديثه:

- كم وكم خُضت تجارب وعانَيتُ من مصاعب في حياتي، كنت مع ابني إبراهيم نُصدِر صحيفةً أسبوعية تُسمَّى «الغد» في مدينة كومولجينة في اليونان.

فعقدَت الحكومة التركية اتفاقًا مع فينيزيلوس رئيس وزراء اليونان، كان شرطُها الرئيس إغلاق صحيفة «الغد»، وطرد مؤسِّسها مصطفى صبري وابنه إبراهيم صبري خارج حدود اليونان، أُغلقَت صحيفتنا، وأُذِن لنا بالبقاء تحت الإقامة الجبرية في أثينا.

ولكن شقّ عليّ المقام في أثينا وأنا شيخ الإسلام، فكان يؤرِّقني ويبعث الأسى في نفسي مجرد تصوُّر أني إن بقيت في هذه المدينة فسأُدفَن في مقبرة يونانية، ولن أجد جالية مسلمة تدفن شيخ الإسلام في مقبرة إسلامية، فقرَّرتُ أن أهاجر إلى إحدى الدول الإسلامية.

ولكن ليس لديّ جواز سفر، ولا بطاقة هوية[1]، ولا أملك تصريحًا بالدخول إلى أيِّ بلد، وللأسف لم تجرؤ أيُّ قنصلية على منحي تصريح دخول!

راسلت حكومات الدول الإسلامية، كتبت إلى مصر وسوريا وبغداد، فرَدُّوا عليّ جميعًا ببيان اعتذارهم، وعجزهم عن استضافتي، متعلِّلين بقولهم: «كما تعلمون، نحن نَرزَح تحت الاحتلال، ولم تأذَن لنا الدولة المستعمِرة بمنحك جواز سفر!»، فردَدتُ عليهم جميعًا بجملة واحدة:

عجبًا لكم! كيف رضيتم لأنفسكم بهذه الحال من العجز والهوان، فعَلامَ إذن تتبوؤون هذه المناصب؟ إن كنتم عاجزين عن القيام بحق هذا المقام الذي وُسِّد إليكم فاتركوه، فعلى الأقل لا تُحوِجُون الناس لمخاطبتكم بـ«سيدي الرئيس».

---

(١) جدير بالذِّكر أن حكومة مصطفى كمال نزعت الجنسية التركية من الشيخ مصطفى صبري، كما سبق في ترجمة شيخ الإسلام مطلع الكتاب.

❁ انظروا إلى هذا الذل!

بعد هذا الحديث الحزين الذي فاضت به نفس الأستاذ مصطفى صبري أفندي، وكلماته المضمَّخة بالألم والهوان قال المفتي أمين الحسيني:

ـ سيدي، حين يقع مثقَّفو الأمة ومتنوِّروها في أسْرِ حضارة وثقافة أخرى، فلا أحد يستطيع الوقوف في وجه ما يفتحه ذلك على الأمة من فساد ودمار.

حتى السلطان عبد الحميد نفسه لم يستطع حين ثارت في وجهه الطبقة المثقَّفة المتغرِّبة أن يقف في وجهها على كل ما أوتيه من قوة ودهاء، ولذلك فإنَّ نضالي كان ضدَّ اليهود ومن ورائهم الإنجليز؛ لأني رأيت الشعب المسلم يتأثر بهم، ويقتبس من ثقافتهم، ويتبنَّى عاداتهم، ويتلبَّس بتقاليدهم، حتى يذوب فيهم، وينسلخ شيئًا فشيئًا عن هويته وثقافته ودينه، انظروا إلى أيِّ حال وصلنا اليوم، شيخ الإسلام ومفتي القدس الشريف يجتمعان سرًّا خوفًا من بطش الإنجليز، أيُّ عار هذا الذي بات يَغشى أمَّتَنا؟!

قد يُلقَى عليَّ القبض وأُعتَقل بأمر من الإنجليز بمجرد خروجي من هذا المكان، ولذلك أُضطَرُّ إلى تغيير ملابسي، وارتداء زي العامة، والتجوُّل متخفيًا كأني جاسوس، وأين يحدث هذا؟ في القاهرة؛ إحدى عواصم الإسلام الكبرى.

❁ ماذا عن حسن البنا؟

سأل مصطفى صبري أفندي فضيلة المفتي:

ـ هل تلتقون حسن البنا؟

فأجاب فضيلته:

ـ سيدي، إن كان في العالم الإسلامي رجلٌ يجب لقاؤه والاجتماع به فهو حسن البنا؛ فإنه رجل لم يستسلم ولم يخنع، وثبت في وجه المصاعب صُلْبًا

لا يجد الخوف إليه سبيلًا، فقد اختار لنفسه أن يكون معلم مدرسة ابتدائية، مع أنه تخرَّج في دار العلوم، وتلقى العديد من العروض المغرية، ولكنه كان صادقًا وبصيرًا ومخلصًا، عرف أن جميع هذه العروض ما هي إلا أفخاخ يضعها الأعداء في طريقه لإعاقة نشاطه وجهوده؛ لذا أعرض عنها جميعًا، ولم يُعِرْها أيَّ اهتمام، ومضى في سبيله لا يلوي على دنيا.

وبينما كان معاشُه معلِّمًا في المدرسة الابتدائية عشرين جُنيهًا عُرض عليه منصب الأستاذية لكرسي تاريخ الإسلام في جامعة القاهرة براتب قدره سبعون جُنيهًا، فرفض هذا العرض، وقال لهم: «أشكركم على اهتمامكم، ولكنني لست أستاذًا مختصًا في التاريخ، إنه مجال جديد عليَّ، سأضطر - حتى أؤدي حق الوظيفة - للعمل طوال الليل على إعداد الدروس التي سأقدِّمها للطلاب في اليوم التالي، فإذا كان الهدف إفادة شباب مصر، فينبغي عليكم تقديم هذا العرض لخبير ومختصٍّ في التاريخ الإسلامي حتى يؤدي هذه الأمانة على النحو اللائق بها، وأنا جاهز لمساعدتكم في العثور على مَن يستحق هذا المقام عن جدارة...».

لقد اجتهدوا كثيرًا في سبيل أن يردوا حسن البنا عن مقصده، وحاوَلوا كثيرًا ثَنيَ عزمِه بالمؤامرات، ونصبوا في طريقه الفخاخ أملًا في عودته عما يصبو إليه من خدمة هذا الدين، ولكنه لم يلتفِت لكل ألاعيبهم وحِيَلِهم، ولم يُعِرها أي اهتمام.

❁ حسن البنا والخلافة:

ثم أضاف فضيلة المفتي:

- حسن البنا من الذين يتحرَّقون مثلَنا ويعتصرهم الألم حزنًا على فَقْد الخلافة، وكان يعبِّر عما يعتمل في نفسه من الأسى على غياب الخلافة بقوله:

«إن سقطت الدولة قامت مكانها دولةٌ أُخرى، أما إذا غاب مقام الخلافة بقدسيته وسلطته الروحية فكيف ستستعيدونه مرة أخرى؟».

حسن البنا والشباب:

ثم توجَّه فضيلة المفتي إلينا بحديثه:

ـ هل تذهبون إلى مجالس حسن البنا؟

فأجبناه:

ـ نعم سيدي، نذهب عندما يكون طليقًا غير معتقل أو ممنوع من الحديث، كما هو الحال في هذه الأيام...

فأضاف المفتي:

ـ رسائله مفيدة ونافعة جدًّا، تفيض بالروح والحياة؛ لأنها تتدفَّق من أعماق فؤاده، ويخاطب بها أفئدة الشباب، تلتمس فيها إخلاص صاحبها وصدقه.

ثم تابع فضيلة المفتي مخاطبًا مصطفى صبري أفندي، وكان شيخ الإسلام يُرعيه سمعه بكل اهتمام:

ـ سيدي، أستميحكم عذرًا، فقد استأثَرتُ بالحديث دونَكم، ولكني لما رأيت الشباب أردتُ أن أبُثَّهم مكنونات نفسي؛ فقد لا أراهم بعد يومي هذا.

فأجابه الشيخ:

ـ أستغفر الله سيدي المفتي، قد اتفَقنا منذ البداية أن الكلمة لكم والحديث حديثكم، وكلُّنا آذانٌ صاغية لكل كلمة تُتحِفُوننا بها، تحدَّثوا بكل راحة لو سمحتم، أنا أستفيد باستماعي لكم.

فاستمر فضيلة المفتي في حديثه:

- يا أبنائي، إن أقدس الصِّلات الإنسانية هي تلك التي تربط الطالب بأستاذه، وخاصةً أنتم، فإذا كنتم قد عقدتم العزم على الاستفادة من معلم ما؛ لما تستشعرونه في كلماته من الصدق والإخلاص، وإن اجتمعتم بشيخ ورجل صالح، وخاطبتم أنفسكم: «أنفاس هذا الشيخ طاهرة، وروحانيتُه عالية، وتأثيرُه بليغ، وأنظارُه مباركة، وسأجتهد في الاستفادة منه»، إذا أتيتم بهذه النفس المتطلِّعة للاستفادة فستَنْهَلون من فُيوضات هذا المعلم وذاك الشيخ، ويطيب لكم العَلُّ والنَّهلُ.

إن الذين يقصدون مجالس حسن البنا هم شُبّان مثلكم، يأتون من جامعات غارت فيها الروح وذوَى عنها البهاء والنور.

كما تعرفون، فمَعين حسن البنا هو القرآن الكريم، ونصف أحاديثه ومواعظه تُستَقى من آيات القرآن الكريم، إذا طرح أحد الشباب سؤالًا أجابَه البنا بآية كريمة، وإني لأعجب له كيف يأتي بها ويستحضر لها هذه المعاني الرائقة؟ إنها معانٍ أخّاذةٌ حقًّا، والله إني لأدهَش كيف استضاء هذا الرجل بنور القرآن الكريم إلى هذا القدر!

لا تقتصر صلة حسن البنا بالشباب، وقُربُه من روحهم وقوة تأثيره في نفوسهم على مصر وحدها، فقد انتشرت رسائلُه، ووصلت حركته المنظَّمة الرائعة إلى كل مكان، حتى صارت نموذجًا يُحتذَى للعمل في خدمة الإسلام ودعوة الأجيال، إنها دعوةٌ تتوهَّج في قلوب الشعب، وتَغلِي في صدور الشباب، وتنبع من إيمان لا يَنضُب ولا يَغُور، إيمان شباب وقفوا أنفسهم على طريق الله، ونشر نور الإسلام والقرآن في كل مكان، يملؤون كل مكان يَحُلُّون فيه بحبِّ النبي المصطفى ﷺ، ويرفعون راية دينه التي ستبقى خفّاقة إلى يوم القيامة.

اليوم هيَّأ الله لهذا الدين «حسن البنا»، وغدًا سيُهيئ له آخرين غيرَه، هؤلاء الشباب، سيكونون بإذن الله أشباه حسن البنا.

يا أبنائي، جِدُّوا واجتهدوا حتى تَبُزُّوني وتَبُزُّوا حسن البنا، بعون الله، وأسأل المولى ﷻ أن يُخرِج منكم أمثال شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي، وأستاذنا العلامة زاهد الكوثري.

❁ جهاد الإلحاد ليس بالأمر الهين، فاعرف عدوك[1]:

عندما كنت في القاهرة تشكَّلَت عام ١٩٤٥ جمعية (شباب محمد) التي خرجت من رَحِم الإخوان المسلمين، وانفصلت عنهم بعد اعتراضها على سياسة الإخوان في العمل الدعوي، وترجيحهم الهدوء في المواجهة مع الخصوم، وأصدَروا جريدة أسبوعية تحمل اسمهم.

وعندما كنت مرة عند الشيخ مصطفى صبري أفندي أحضر أحدُهم عدد الجريدة الجديد للشيخ، وكانوا كلَّ أسبوع يُرسِلون ممثِّلًا عنهم يقدم العدد الجديد لفضيلة الأستاذ.

وقد انتابني الفضول لاستطلاع رأي الشيخ حول هذه الجماعة الحديثة الولادة، فقلت لفضيلته:

- يبدو أن هؤلاء الشباب جماعة منفصلة عن جماعة الإخوان المسلمين على ما أظن.

- نعم يا بُني، عابوا على جماعة الإخوان المسلمين البناء بصَمت، والهدوء في الانتشار، وتجنُّب الصدام، فآثَروا المضي سراعًا في طريق الدعوة دون أن يُعِيقهم أحد، جعل الله عاقبتهم خيرًا، لكنهم للأسف لا يدركون بعدُ

(١) أورد علي علوي هذه الفقرة في موضع آخر من الذكريات (٢: ٢٧٩).

ما هي السياسة، ويظنون النضال ضد الملحِدين أمرًا هيِّنًا، يحسبون أعداء الدين مقصورين على مَن يجاهدونهم في مصر فقط.

يقولون: إن هؤلاء الملحدين ليسوا أكثر من حفنة قليلة لا قيمة لها، ونحن وراءنا الشعب بقَضِّه وقضيضه، فلِمَ نخافهم ونَرهَب جانبهم؟! ولكن للأسف ليس الأمر كما يبدو للوهلة الأولى.

أعداء الإسلام ليسوا بهذا الضعف والسذاجة، فقد تطاولت قُواهم وتضافرت جهودهم في جهات الدنيا الأربع، ويَعِيثون فسادًا بأيديهم الخفية في كل مجال، فكم وكم يَحِيكون في الخفاء من خُطَط وحِيَل!

وفعلًا صدق حدس أستاذنا، فهذا ما حلَّ بهذه المجموعة، حيث إنها تلاشت وغابت قبل أن تستطيع فِعل شيء مما كانت تحلم به وتتمنّاه، ولم يكن لهم من أثر إلا إضعاف جماعة الإخوان بانقسامهم عنهم.

***

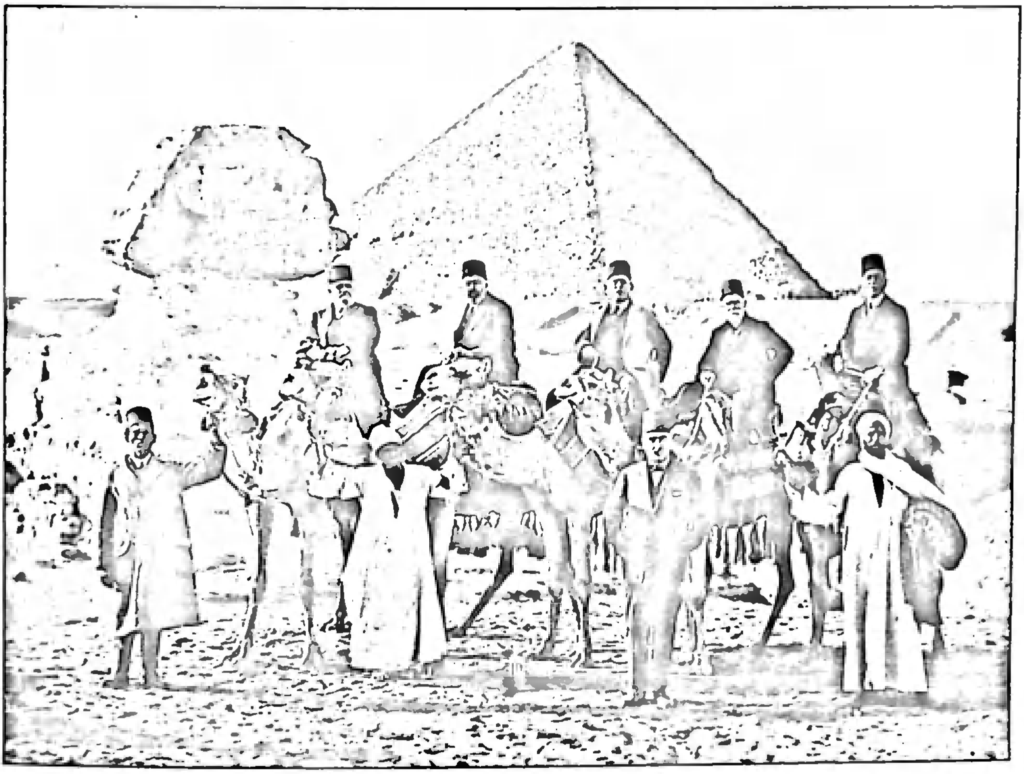
لقاء مصطفى صبري أفندي بالشاعر محمد عاكف

سكن مصطفى صبري أفندي ومحمد عاكف بك[1] مدينة القاهرة في الفترة نفسها، ولكنهما نادرًا ما كانا يلتقيان، لا عن قطيعة وخصام بينهما؛ فقد التقيا عدة مرات في بعض المناسبات، وزار أحدُهما الآخر، ولكن على نُدرة.

(١) محمد عاكف بك أرسوي (١٨٧٣ ـ ١٩٣٦): الشاعر الوطني التركي، وناظم نشيد الجمهورية التركية الرسمي، وأشهر شعراء تركيا في القرن العشرين، رأى النور في حي الفاتح بإستانبول، لأب كان مدرسًا في جامع الفاتح، والتحق بالمدارس الرسمية، إضافة إلى تلقّيه العلوم الشرعية واللغة العربية عن والده، وبدأ اهتمامه بالشعر أثناء دراسته في مدرسة الطب البيطري العالية، وبعد تخرجه فيها التحق موظفًا في وزارة الزراعة، إضافة إلى تدريسه في بعض المعاهد الطبية والزراعية، وفي فترة عمله أتم حفظ القرآن الكريم، وزار عددًا من مدن الدولة، وتجوّل في ولاية الشام وزار القاهرة والحجاز، ثم تولّى رئاسة تحرير مجلة الصراط المستقيم وسبيل الرشاد ونشر فيها قصائده، وعُيّن في عام ١٩٠٨ أستاذًا للأدب العثماني في دار الفنون، وألقى فيها محاضرات حول الأدب العربي، وانضم لجمعية الاتحاد والترقي، وكان شاعرهم المفضّل، وحارب بقصائده السلطان عبد الحميد الثاني وسياسته، وشارك بقوة في الحياة السياسية، وفي عام ١٩١٨ عُيّن أمينًا عامًا لدار الحكمة الإسلامية، وتولى إدارة جريدتها، ثم التحق بحرب الاستقلال التي أعلنها مصطفى كمال في الأناضول وناصرها بشعره وخطبه، تاركًا كل وظائفه ومناصبه في إستانبول، حتى لُقّب بالزعيم الروحي لحرب الاستقلال، وطلبت منه حكومة أنقرة نظم نشيد تركيا الوطني فقدّمه للبرلمان الذي وافق عليه بالإجماع بتاريخ ١٢ ـ ٠٣ ـ ١٩٢١، ولكنه لم يلبَث أن أصيب بخيبة أمل بعد نهاية الحرب، واستلام مصطفى كمال زمام الأمور في تركيا وتوجهاته نحو علمنة الدولة وإلغاء الخلافة، فذهب إلى مصر بدعوة من عباس حليم باشا عام ١٩٢٣، وأغلقت حكومة أنقرة مجلته «سبيل الرشاد» فبقي في مصر، وفي عام ١٩٢٥ طلبت منه الحكومة التركية ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية، فتردّد في الموافقة على طلبها لِما رآه من سياستها في تتريك الدين وتحويل الأذان للتركية، وبعد اشتراطات كثيرة وافق على الطلب، وبدأ بترجمته التي استمرت إلى وفاته، وقابل الترجمة النهائية مع إحسان أفندي، ولكنه عندما اشتد به المرض واضطر أن يسافر للعلاج في إستانبول أوصاه أن يحرق الترجمة =



▲ الشاعر الوطني محمد عاكف



▲ الشاعر محمد عاكف الثاني من اليسار

وأظن أنّ أحد أسـباب قلة التزاوُر بينهما يرجع إلى تَنائـي الديار وبُعْد الشُّقّة بينهما، فكان محمد عاكف بك يعيش جنوب القاهرة في منطقة خارج المدينـة، بينما كان مصطفى صبـري أفندي يقيم في شـمالها، وكان بينهما

= ولا ينشرها إن لم يَعُد من إستانبول، وبعد وفاته استنسـخ إحسان أفندي الترجمة واحتفظ بالنسـختين إلى وفاته هو، وأوصى ابنـه أن يحرقهما من بعده، وبإصـرار من إبراهيم بن مصطفى صبري أفندي أُحرقت النسختان عام ١٩٦١، وقد تولّى محمد عاكف أثناء إقامته في القاهرة تدريس آداب اللغة التركية في الجامعة المصرية بالقاهرة بين الأعوام ١٩٢٩ ـ ١٩٣٦، ومع بداية عام ١٩٣٥ بدأ يشتد عليه المرض فسافر إلى بيروت وأنطاكية للاستجمام، ثم عاد إلى إسـتانبول بتاريخ ١٧ ـ ٠٦ ـ ١٩٣٦ لتلقي العلاج، وتوفي في ٢٧ ـ ١٢ ـ ١٩٣٦، ودُفن في مقبرة أدرنه كابي في إسـتانبول. انظر: محمـد أورهان أوقاي ومحمـد أرطغرل دوزداغ، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة محمد عاكف (٢٨: ٤٣٢).



▲ شاعر تركيا الوطني محمد عاكف



▲ محمد عاكف في سنواته الأخيرة



▲ محمد عاكف على فراش مرضه الأخير قبيل وفاته في إستانبول

حوالي ستين كيلومترًا، وكان من العسير عليهما في تلك الأيام السفر ذهابًا وإيابًا عبر وسائل النقل العامة.

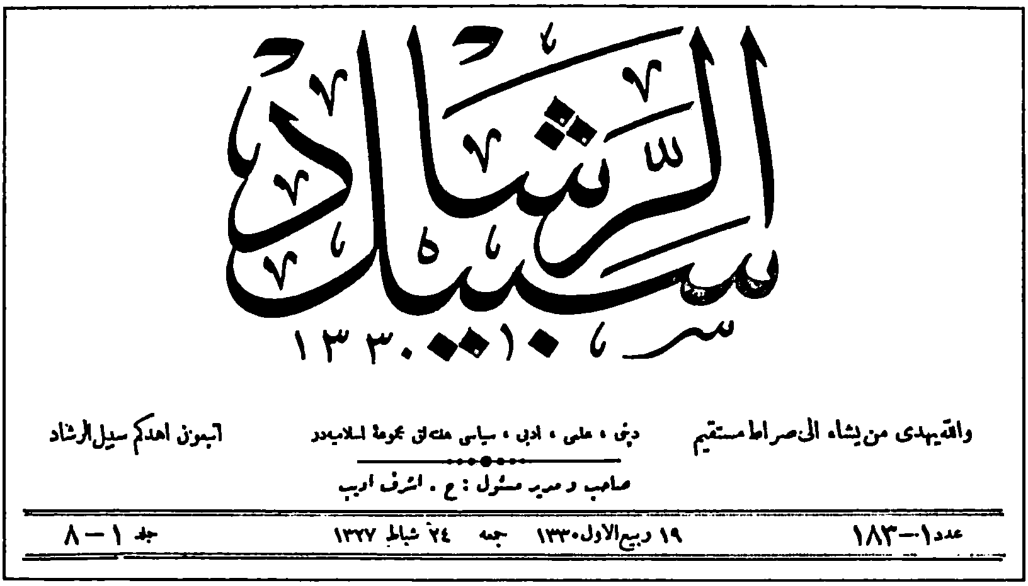
وعندما حطَّ مصطفى صبري أفندي عصا الترحال في القاهرة زاره محمد عاكف بك، واحتفل مصطفى صبري أفندي بزيارته وأكرم وِفادته، وطال بينهما الحديث، وكان مما قاله مصطفى صبري أفندي ممازحًا:

ـ عاكف بك، لئن فرَّقتنا الأحوال في تركيا سابقًا ها قد جمعتنا الغربة في القاهرة الآن، قد هجرتَنا وذهبتَ إلى أنقرة، إلا أننا نلتقي الآن معًا.

ومن الجدير بالذِّكر هنا أن مصطفى صبري أفندي قبل توليه مشيخة الإسلام، كان عضوًا في دار الحكمة الإسلامية[1]، وكان عاكف بك آنذاك

---

(١) دار الحكمة الإسلامية مؤسسة علمية تابعة لمشيخة الإسلام في الدولة العثمانية، نشطت بين ١٩١٨ ـ ١٩٢٢، وكانت تهدف للإجابة عن المسائل الدينية المستجدة، والشبهات التي أثارتها الحركات المعارضة للإسلام في الدولة العثمانية منذ بداية القرن العشرين، وذلك =


سبيل الرشاد ١٣٣٠
والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم
دينى ، علمى ، ادبى ، سياسى هفتالق مجموعهٔ اسلاميه در
صاحب و مدير مسئول : ح . اشرف اديب
اتبعون اهدكم سبيل الرشاد
عدد ١-١٨٣ ١٩ ربيع الاول ١٣٣٠ جمعه ٢٤ شباط ١٣٢٧ جلد ١ - ٨

△ مجلة سبيل الرشاد

عضوًا وأمينًا للـــدار، إضافة إلى ذلك كانت مقـــالات مصطفى صبري أفندي تُنشَر في مجلة «سبيل الرشاد» التي كان محمد عاكف بك رئيس تحريرها[1].

= وفق رؤية تستقي من الأصول الإسلامية، وقد أُنشـئت بقرار من مجلس الأعيان العثماني وتصديق السلطان رشاد بتاريخ ٢٥ ـ ٠٢ ـ ١٩١٨، وفي فترة شيخ الإسلام موسى كاظم أفندي، ولم تتمتع هذه المؤسسة بسلطة تنفيذية، ولكنها كانت تُرسِل توصياتها للوزارات المختصة، ولكنها مع ذلك لقيت معارضة شديدة من المتنفذين المتغرّبين في جهاز الدولة خلال فترة عملها، كان لها بيانات ضد التبشير والقومية والجمعيات المناهضة للإسلام، وكانت تضم نخبة من علماء إستانبول، مثل بديع الزمان النورسي، ومصطفى صبري أفندي، وإسماعيل حقي الإزميرلي، وفريد كام، وغيرهم، إضافة لبعض العلماء من مدن مختلفة، مثل بدر الدين من علماء دمشق (لعله بدر الدين الحسني محدِّث دمشق)، وبشير أفندي مندوب حلب في مجلس المبعوثان، وتولّى محمد عاكف منصب السـكرتير الأول فيهـا، ولكن مع انضمام بعض أعضائها مثل محمد عاكف ومحمد حمدي الإلماليلـي إلى حكومة أنقرة انفرط عقد الدار، وكان آخر اجتماع لها في ٢١ ـ ١٠ ـ ١٩٢٢. انظر: صادق البيرق، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة دار الحكمة الإسلامية (٨: ٥٠٦).

(١) مجلة أسبوعية دينية علمية أدبية، ثم بدأت تناقش المواضيع السياسية لاحقًا، تولّى إدارتها =



ابونه شرائطی
مربو ایجون سنه‌لکی (٢٥٠) آلتی آیلغی (١٣٠) غروشدر
نسخه‌سی ٥ غروش، سنه‌لکی ٥٢ نسخه‌در
اداره‌خانه
آنقره‌ده محمد عاکف بك
اخطارات

سبیل الرشاد

اخطارات
آدرس تبدیلنده آیریجه بش غروش کوندرلیدر
مکتوبلرك امضالری واضح واوقونقلی اولمسی وابونه نمره‌سی وصوری عنوانی اولمسی لازمدر .

والله یهدی من یشاء الی صراط مستقیم — باش محرر محمد عاکف — صاحب ومدیر مسئول اشرف ادیب — اتبعون اهدکم سبیل الرشاد

عدد ٤٦٨ — ٩ جمادی الاخره ١٣٣٩ — پنجشنبه — ١٧ شباط ١٣٣٧ — ١٨ جلد

استقلال مارشی

— قهرمان اردومزه —

قورقما ، سونمز بو شفقلرده یوزن آل سنجاق ؛
سونمه‌دن یوردیمك اوستنده توتن الك صوك اوجاق .
او بنم ملتمك یلدیزیدر ، پارلایه‌جق ؛
او بنمدر ، او بنم ملتمکدر آنجق .

چاتما ، قربان اولهیم ، چهره‌کی ای نازلی هلال ! —
قهرمان عرقمه بر كول .. نه بو شدت ، بو جلال ؟
سکا اولماز دوکولن قانلریمز صوکره حلال ؛
حقیدر ، حقه طاپان ، ملتمك استقلال .

بن ازلدن بریدر حر یاشادم ، حر یاشارم .
هانکی چیلغین بکا زنجیر اوره‌جقمش ؟ شاشارم !
کوکرمش سل کبی‌یم : بندیمی چیکنر ، آشارم ؛
ییرتارم طاغلری ، انکینلره صیغمام ، طاشارم .

غربك آفاقنی صارمشسه چلیك زرهلی دیوار ؛
بنم ایمان طولو کوکسم کبی سر حدم وار .
اولوسون ، قورقما ! ناصل بویله بر ایمانی بوغار ،
« مدنیت ! » دیدیکك تك دیشی قالمش جاناوار ؟

آرقداش ! یوردیمه آلچاقلری باصدیرمه صاقین ؛
سپر ایت کوکده‌کی ، طورسون بو حیاسزجه آقین .
طوغه‌جقدر سکا وعد ایتدیکی کونلر حقك . .
کیم بیلیر ، بلکه یارین ، بلکه یارندن ده یاقین .

باصدیغك یرلری « طوپراق ! » دییه‌رك کچمه ، طانی !
دوشون آلتنده‌کی بیکلرجه کفنسز یاتانی .
سن شهید اوغلیسین ، اینجیتمه ، یازیقدر ، آتاکی :
ویرمه ، دنیالری آلسه‌لرده ، بو جنت وطنی .

کیم بو جنت وطنك اوغرینه اولمازکه فدا !
شهدا فیشقیره‌جق طوپراغی صیقسه‌ك ، شهدا !
جانی ، جانانی ، بتون واریمی آلسین ده خدا ،
ایتمسین تك وطنمدن بنی دنیاده جدا .

روحمك سندن الهی شودر آنجق املی :
دکمه‌سین معبدیمك کوکسنه نامحرم الی ؛
بو اذانلر — که شهادتلری دینك تملی —
ابدی ، یوردیمك اوستنده بنم ایکلمملی .

اوزمان وجد ایله بیك سجده ایدر — وارسه — طاشم ؛
هر جریحه‌مدن ، الهی ، بوشانوب قانلی یاشم ،
فیشقیرر روح مجرد کبی یردن نعشم !
اوزمان یوکسله‌رك عرشه دکر ، بلکه ، باشم .

دالغه‌لان سن ده شفقلر کبی ای شانلی هلال !
اولسون آرتیق دوکولن قانلریمك هپسی حلال .
ابدیاً سکا یوق ، عرقمه یوق اضمحلال :
حقیدر ، حر یاشامش ، بایراغمك حریت ؛
حقیدر ، حقه طاپان ، ملتمك استقلال .

محمد عاکف

▲ جريدة سبيل الرشاد، ويحتل النشيد الوطني التركي الذي كتبه محمد عاكف الصفحة الأولى فيها، ويظهر اسم محمد عاكف رئيسًا للتحرير

وقد غادر مصطفى صبري أفندي تركيا، واستمر على نضاله ضد النظام الجديد قولًا وعملًا، فأصدر عدة صحف في رومانيا وتراكيا الغربية، بينما لم يُبادِر محمد عاكف وأمثالُه من علماء الدين لمثل ذلك، فقد كان الأستاذ صبري أفندي يعتقد وجوب انضمام أمثال هؤلاء إلى جبهة النضال والكفاح لمواجهة هذه الحملات التي تستهدف بها حكومة أنقرة دِينَ الشعب وهويته.

❁ ما كنا سنكتبه كتبناه:

أفضى مصطفى صبري أفندي بدخيلة نفسه إلى محمد عاكف بك، وقال له:

ـ عاكف بك، لقد خلَّفتُموني وحيدًا في ساحة المعركة، كنت أنتظر منكم اللحاق بي والانضمام لي عندما أصدرت جريدة يارين (الغد) في اليونان، تاللهِ إن شِعْركم كان له من قوة الأثر ما تستطيعون به هزيمة الأعداء والتنكيل بهم أشد النكال.

سألت صبري أفندي:

ـ كيف استقبل عاكف بك هذه التلميحات؟

= أشرف أديب، ورئاسة تحريرها محمد عاكف، وكان يكتب فيها كبار الكُتّاب العثمانيين في تلك الفترة، وقد صدرت بداية تحت اسم الصراط المستقيم بتاريخ ٢٧ ـ ٠٨ ـ ١٩٠٨، ثم تحوّل اسمها إلى «سبيل الرشاد»، وفي العدد ١٨٣ تحوّل اسمها إلى «سبيل الرشد»، وكانت تهدف إلى العمل في سبيل نهضة المسلمين في كل مكان، والتعرف عن كثَب على المدن الإسلامية، مما جعلها تلقّى رواجًا بين كثير من المثقفين الإسلاميين، وكان للمجلّة دور مهم لاحقًا في دعم حرب الاستقلال التي قادها مصطفى كمال، وخصصت أعدادًا كثيرة لنشر خطاباته وأفكاره، ولكنها كانت ـ بعد انتصار حرب الاستقلال وإمساكها بزمام الحكم في تركيا ـ من مجلات دينية كثيرة أغلقها مصطفى كمال بذريعة قانون حفظ الأمن، فتوقفت عن الصدور بعد عددها رقم ٦٤١ بتاريخ ٠٥ ـ ٠٣ ـ ١٩٢٥. انظر: آدم إفه، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة سبيل الرشاد (٣٦: ٢٥١).

فأجاب:

ـ كان عاكف بك شخصًا شديد اللطف جمَّ التواضع، سواء كنت أمدح شعره وأُثني عليه، أو أُلمح لنقدٍ من هذا القَبِيل، كان يخفض رأسه حياءً، ويأخذ عرقه بمنديله، ويعتذر بجواب مُوجَز، فيقول:

ـ سيدي، ما كنا سنكتبه آنذاك قد كتَبناه، لقد جاهَدنا وبذلنا قصارى ما نستطيع حتى لا تصل البلاد إلى ما وصلت إليه.

۞ أسئلة صبري أفندي لمحمد عاكف بك:

وقد طرح صبري أفندي أيضًا أسئلة أخرى على عاكف بك تتعلق بالتحولات التي شهدتها البلاد في معارضة الدين ومحاربة أهله، حتى ألجأت كثيرين ـ منهم عاكف نفسه ـ للهجرة من وطنه.

ومن المعروف أنّ محمد عاكف كان من داعمي مصطفى كمال في حرب الاستقلال التركية، وعندما سأله مصطفى صبري أفندي عن السبب وراء موقفه أجابه عاكف بك:

ـ عندما كانت الأناضول تَرزَح تحت احتلال الجيش اليوناني لم يكن لدينا ترفُ الاختيار.

وفي إحدى المرات، سأله صبري أفندي عما إذا كان يرى في مصطفى كمال شيئًا استثنائيًا وخصلة مميزة، فأجابه عاكف بك:

ـ لم يكن رجلًا استثنائيًا، ولم يتَّسم بخصلة مميزة، إلا أنه كان يملك نظرة تبعَث الرعب في نفوس مخاطِبيه، ومَن أحدَّ النظر في عينَي الرجل سرت قشعريرة خوف في أوصاله، فكنت أرى ذلك ميزةً فريدة في شخصيته.

❁ فضائل إحسان أفندي:

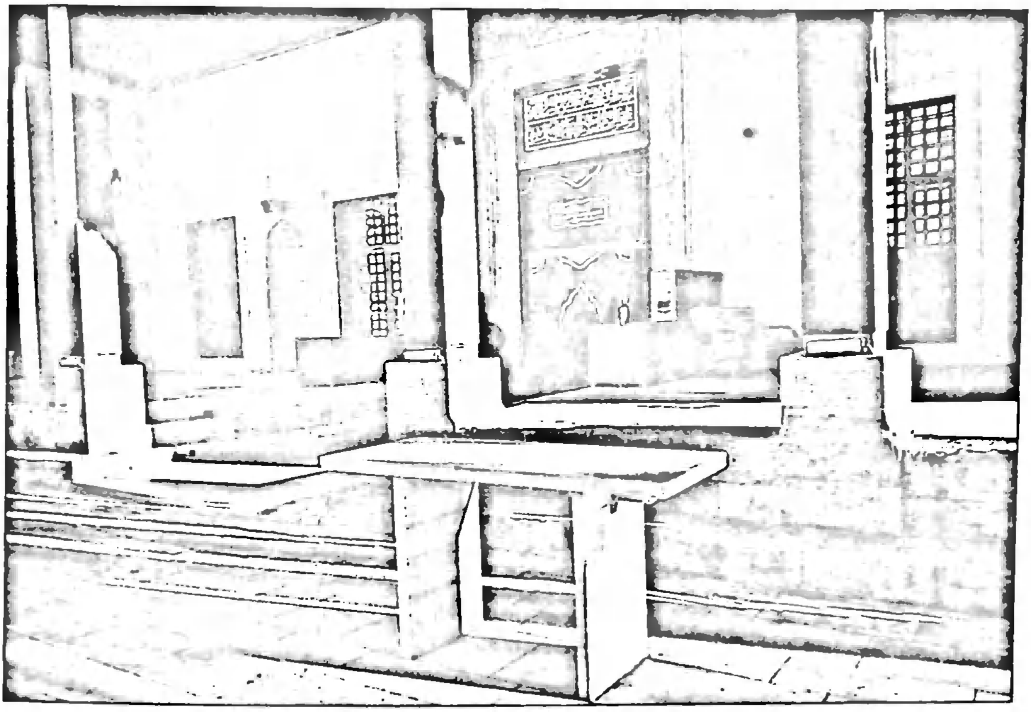
وكنا قد سألنا إحســـان أفندي عن العلاقة التي ربطت بين صبري أفندي وعاكف بك، فقد كان من مَحاسن وفضائل إحســان أفندي حيادُه في القول، وعدلُه في الحكم على الناس، فيُعطِي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فأجابنا وقتها قائلًا:

ـ كان صبــري أفندي شــديد الإعجاب، مأخــوذ النفس بشــعر عاكف وشاعريته، وأما رأيُه فيه ففي الأوقات التي سبقت سـقوط تركيا في الهاوية الســحيقة التي وصلت إليها الآن، كان عاكف بك شــاعرًا احتــرق كيانُه في صومعة شعره، وأحرق الناس بلَوعَتِه، وبكى وأبكى، أما الآن فمع كلِّ ما آلت إليه حال الأمة من سوء وبؤس أشــدَّ مما كان يَبكِيه سابقًا، فإننا لا نسمع له همسًا، إضافة إلى أن صبري أفندي كان يَحُزُّ في نفسه ويزيده كمَدًا انفضاض عاكف وأقرانِه عن حَملِ رايــة النضال في وجه الطُّغمــة الحاكمة في أنقرة، ومعارضةِ سياستها وحملاتها ضد الأمة والدين، هذا ما كان يقوله.

❁ ذلك الحجر الذي استلقى غير آبِه بدنياكم:

دارت أحاديث كثيرة مع صبري أفندي حول شِعْر عاكف وشاعريته الفذّة، فقد كان معجبًا بشعر عاكف بك، مبهورًا بقوة قلمه، شديد الثقة بنصاعة بيانه وجزالة شعره، وكثيرًا ما كان يُردِّد على مسامعنا:

كيف لأحد أن يكتب مثل قصيدة «جناق قلعه»؟ ما هذه الشاعرية الفَذّة، وما هذا الأســلوب الســهل الممتنع، واللغة المتدفقة، وما هذا الحماس! ثم أيضًا تلك الأبيــات التي تبدأ بـ«توكورك» (ابصُقــوا)، كيف فاضَ جَنان هذا الإنســان الهادئ بمثلها! إنها مدهشــة حقًّا، هناك مواضع كثيــرة تُظهِر قدرة عاكف بك على قول الشعر وسلامة ذَوقه فيه، مثلًا في قصيدة «آخِرَتْ يُولي»



▲ مُصَلَّى الميت في باحة المسجد

(طريق الآخرة) أبياتٌ تخاطب ذلك اللوح الرخامي الذي يتمدَّد جسد الميت فوقه ليصلِّي عليه الحاضرون صلاة الجنـــازة[1]، في هذا المقطع من القصيدة كلمةٌ أدهشَت عقلي واستبدَّت بلُبِّي، وأخذت عليَّ كلَّ مأخذ، كلمةٌ لا يقوى على التقاطها إلا شاعر أصيل مثل عاكف بك:

ها هو ذا عرشك الأخير، حجر رخام باردِ قد استلقى غير آبِه بكل هذه الدنيا.

عجبًا له! كيف التقط كلمة «بي بروا»: «غير آبِه» «غير عابئ» «لا يخاف»، كيف وقعتَ عليها يا رجل! وكيف أقمتها في هذا السياق!

---

(١) من زار تركيا يعرف هـذا اللوح الرخامي الذي لا نجده في العالـم العربي عادة، فهو لوح رخامي على دعامتين يكون في باحة المسجد الخارجية، توضع عليه الجنازة للصلاة عليها تنزيهًا لحرم المسجد من دخول الجنائز إليه.

كلنا نستطيع أن نرى في هذا الحجر الذي يُوضع عليه النعش لأداء صلاة الجنازة حجرًا طويلًا، ولوح رخام، وقد يتبادر إلى عقل بعضنا تشبيهه بفِراش أو مقام أو عرشٍ، ولكن أن يصفه بأنه «غير آبِه»، لا يبالي بأي شيء من هذه الدنيا التي تُغريكم وتُبكِيكم، فها هو ذا يتمدَّد أمام أعين الجميع دون أن يُعِيرهم اهتمامًا، فلا هو يلتفِت إلى بكاء أهل الميت من حوله، ولا هو يُلقِي بالًا لحال الميت الذي يستلقي عليه في آخر محطات رحلته ليغادر هذه الدنيا، وكأنه يقول له: ها أنت تتمدَّد هنا بعد أن كنت تُؤثِر المقام السامي، والفِراش الوثير، فأين تركت كل هذا؟

۞ حُرمةً لِهلال:

يا أهل جناق قلعة

ربّاه! كم خسفت بشموس ساطعة حُرمةً لهلال[1].

- كيف يُصاغ مثل هذا البيان؟ وكم يحمل في طياته من معانٍ ومعانٍ؟ إنه إلهام، يُحلِّق بالإنسان في عوالم الوجد والحماسة، ويغيب به عن نفسه وعقله، لقد أسرَتني مثل هذه الكلمات لسنوات طويلة.

عندما قال مصطفى صبري أفندي ذلك سألته:

- سيدي، هل أفصَحتم عن مشاعركم هذه لعاكف بك أيضًا؟

- آه! كم وكم! لكنه إنسان متواضع، عندما أمدح شعرَه كان يفيض حياءً، ويتصبَّب عرقًا، ويستلُّ منديله من جيبه يمسح به جبينه.

---

(١) يشير إلى حادثة غرق البارجة البريطانية بكل عتادها وعدَّتها وانتصار العثمانيين في معركتهم مع الإنجليز، ومنعهم من عبور مضيق الدردنيل (جناق قلعه)، ويرمز بالشمس إلى حضارة أوروبا، وبالهلال إلى الإسلام ودولة الخلافة.

❁ أيّ شعره ليس جميلًا!

كان مصطفى صبري أفندي يُقدِّر شاعرية محمد عاكف بك تقديرًا عاليًا، ولا يفتأ يعبِّر عن إعجابه به المرة تلو المرة، وعندما كان يتحدث ذات مرة عن صداقاته في الحياة السياسية قال:

- لقد انعقدت صلات الصداقة والزمالة بينـــي وبين كثيرين في عالم السياسة، ولكني أدركت في خاتمة المطاف أنّ كلّ الأخطاء والانحرافات التي يقترفها الناس إنما تنبع من غياب الإيمان بالآخرة، واليقين بالجزاء الإلهي عن قلوبهم، فهنا يكمن جوهر المشكلة.

لذلك قررت أني - بدل مراعاة رغبـــات الناس، وغايات الأحزاب، وأهواء هذا وذاك - يجب عليَّ أن أتصرَّف بمقتضى أوامر الله تعالى وحدَه، واستعدادًا للوقوف بين يديه يوم القيامة للعرض والحساب.

فأردت أن أستشهد لكلام الأستاذ ببعض شعر محمد عاكف، وقلت له:

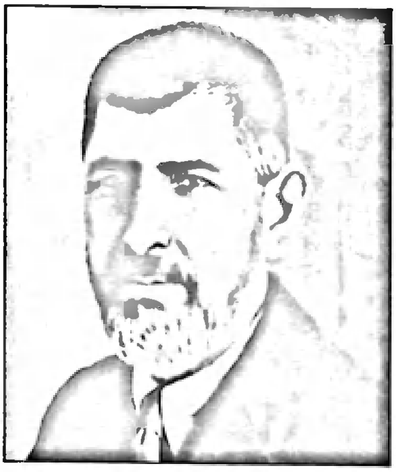
- سيدي، لمحمد عاكف في هذا المعنى أبيات لا بد أنها ستنال إعجابكم، فبادرني بالقول:

- وأي شعره ليس جميلًا! إن الله قد فطره شاعرًا.

❁ لا تمر عليّ صلاةٌ دون سجدة سهو:

كان إبراهيم بك بن مصطفى صبري أفندي يحب محمد عاكف بك كثيرًا ويُجِلُّه، حتى كان يطلق عليه «شـــاعرنا الأعظـــم»، وكان إبراهيم صبري بك يعتريه الفضول ليعرف سبب صمت عاكف بك عن انتقاد ما يجري في تركيا، ولما أسرَّ له ذات يوم بذلك أجابه عاكف بك معتذِرًا:

ـ إبراهيم بك، أُشـهِد الله أني رجل لا أعرف الكذب ولا أستطيعه، ولا أشهد الزور، ولا آتي يمينًا غموسًا، أقسم بالله لم يبقَ لي طاقة ولا جَلَد على فِعل شـيء، حتى هذه اللحظة لم أستطع أن أسـتجمع قواي وألملم شَعَثي، ويضيق صـدري، ويَغِيض فؤادي حين أرى ما حـلَّ بالبلاد، ولكن لا ينطلق لساني، ولكي أُوقِفَكم على شـيء مما وصلت إليه من شتات شملي وتمزُّق روحي سـأخبركم بحال من أحوالي علَّها تَشِـفُّ لكم شـيئًا عمـا وراءها، يا سيدي، لا تمر عليَّ صلاةٌ دون أن أسـجد فيها سجدة سهو، إني أصدُقكم القول، لا أكاد أعقل شيئًا من صلاتي، يكاد عقلي أن ينفطر.

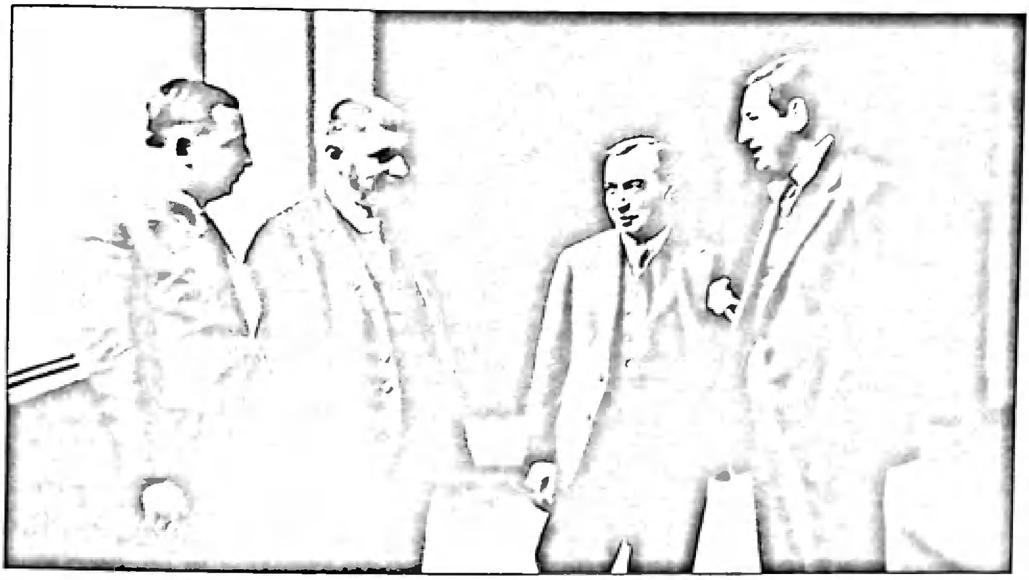


أحمد نعيم بابان زاده

وفاة أحمد نعيم بك:

عندما علـم محمد عاكف بـك بوفاة أحمد نعيـم بابان زاده بك[1] فـي القاهرة ذهب إلى مصطفى صبـري أفندي لتقديم واجب العزاء، وتذكرا المرحوم وبكياه معًا.

(١) أحمد نعيم بن مصطفى بابان زاده (١٨٧٢ ـ ١٩٣٤) أستاذ ومترجم ومفكر وكاتب تركي، وُلد في بغداد، ثم انتقل إلى إستانبول ودرس في مدرسة غلطة سراي السلطانية، يعرف العربية والفارسية والفرنسية جيدًا، واستوعب تمامًا الثقافات الشرقية والغربية، وبدأ عام ١٩٠١ بنشر مختارات من الشعر العربي مع شـرحها وترجمتها للتركية تحت عنوان «من بدائع العرب» في مجلة ثروة الفنـون، عمل مترجمًا في وزارة الخارجية، ثم عضـوًا في وزارة المعارف، ودرَّس اللغة العربية في مدرسة غلطة سراي، ثم درس المنطق والفلسفة والتصوف في دار الفنون، واستمر فيها إلى إغلاقها، توفي ساجدًا في صلاة ظهر يوم الاثنين ١٣ ـ ٠٨ ـ ١٩٣٤، ودُفن في مقبرة أدرنه كابي في إسـتانبول، ثم دُفن إلى جواره صديقه شـاعر تركيا الوطني محمد عاكف إرسوي. انظر: إسماعيل لطفي جاقان، موسـوعة شؤون الديانة التركية، مادة أحمد نعيم بابان زاده (٤: ٣٧٥).



▲ أحمد نعيم بابان زاده الثاني من اليسار

ثمَّ قرأ إبراهيم بك المرثية التي كتبَها في حق نعيم أفندي أمام عاكف بك، وأعجب عاكف بك كثيرًا بالقصيدة، وأثنى عليها بقوله:

ـ ما شاء الله، تبارك الله يا بني، كنت أعرف أنكم تنظمون الشعر، ولكن ما كنت أظن أن تبلغ شاعريتكم هذه الإجادة!

❀ كان محمد عاكف محِقًّا في محبته لمصطفى صادق الرافعي[1]:

كنت ذات مرة أجول مع إحسان أفندي في عالم الشعر، فساقنا الحديث إلى دعاء كان يكرِّره مصطفى صادق الرافعي كثيرًا، قلت وقتها للشيخ إحسان أفندي:



▲ الأديب العربي مصطفى صادق الرافعي

(١) أورد علي علوي هذه الفقرة في موضع آخر من المذكرات (١: ٣٤٧).

ـ سيدي، لقد كان لمصطفى صادق الرافعي دعاءٌ يُكثِر من ترداده، كان يقول: «سبحان مَن لا يُقال لغيرِه: سبحانك».

فأخذَت من إحسان أفندي كلٌّ مأخذ حتى غاب عنا وهو يترنَّم بها، ثم قال:

ـ حقًّا، لم يكن عاكف بك يحب هذا الرجل من فراغ.

فاسترعى كلامُه انتباهي:

ـ وهل كان عاكف بك يحبه يا سيدي؟

ـ نعم، كان يحبه كثيرًا، وكان يقول لي: آه! لو كان صحيح الأذن سليم السمع لأحببَت أن أقرأ بين يدَيه أدب العرب، إلا أن التواصل معه كتابةً أمرٌ جِدُّ عسير.

ومرة سألت مصطفى صبري أفندي عن مصطفى صادق الرافعي فقال لي:
ـ إنه يأسرني ببيانه، والله إنه لأديب تربَّع على عرش الأدب، من بين كل الأدباء يرتفع بي عن عالم البشر إلى عالم عُلوي آخر.

❁ لا نعرف لعظمائنا قدرَهم:

سألْنا مصطفى صبري أفندي ذات مرة:

ـ سيدي، يبدو أنكم أنتم والأستاذ محمد عاكف بك تحبون أحمد نعيم أفندي، وتحمِلون له في نفوسكم إجلالًا وتعظيمًا بليغًا، فما السبب وراء ذلك؟

ـ لو قلتم: إن أحمد نعيم أفندي من بقية السلف الصالح فلن تَعْدوا الحقيقة؛ لأنه كان كذلك حقًّا، ولو قلتم: إنه فرد من الرعيل الأول يعيش بيننا لصدقتم، فقد جمع بين عِطفَيه الفضائل كلَّها من العلم والحكمة والأخلاق والعرفان والشرف والقناعة، فكيف لشخص مثل هذا ألّا يكون محبوبًا؟

ولكن للأسف الشديد، الشعب التركي لا يعرف قيمة عظمائه إلا بعد وفاتهم، ولَيتَه يعرف قدر جميعهم، بل لا يكاد يدرك إلا قدر النَّزر اليسير منهم.

أما هنا في مصر فكما ترون، إذا مات أحد رجالاتهم فكأنما القيامة قامت، أما في تركيا فكثير ممن يموتون يمضي إلى قبره دون أن يكترث به أحد خارج دائرة أقاربه ومعارفه، وبعض من يعرف منزلته ويُقدِّر مكانته.

أيها السادة، أحمد نعيم أفندي ليس مجرد شخص يُذكَر في الكتب عرَضًا، فالجميع يُذكَرون في الكتب، أحمد نعيم أفندي كان رجلًا من رجالات التاريخ ينبغي أن تُروى سيرتُه وتُستَعاد ذكرياته، دعوني أخبركم بحادثة شهدتُها بنفسي، وكلما تذكرتها أنّ قلبي واحترق على ما آلت إليه حالنا اليوم.

حزن أحمد نعيم بك:

في الفترة التي كنت فيها شيخًا للإسلام سجَّلنا اسم أحمد نعيم أفندي في قائمة الأعضاء الذين سيدخلون مجلس الأعيان، وبعد صلاة الفجر ذات يوم أبلَغوني بقدومه إلى بناء المشيخة:

- مولانا، فضيلة الأستاذ أحمد نعيم بك بالباب، ينتظر الإذن بلقائكم.

فدعوته للدخول، وكنت متشوقًا لاستجلاء سبب الزيارة، فقد كان والده معتلَّ الصحة آنذاك، فخشيت أنه جاء يبلغني بوفاته، فهُرِعتُ إلى لقائه واستقباله بنفسي.

فبادَرَني أحمد نعيم أفندي بالحديث قائلًا:

- سيدي، ألتمِس العذر من فضيلتكم، فليست الساعة الآن ساعة زيارة، ولذلك طلبت منهم أن يبلغوكم بقدومي، ولكن الذي اضطرَّني للخروج عن

آداب الزيارة، والتطفل عليكم وإزعاجكم في مثـل هذا الوقت المبكر رجاءٌ أودُّ أن أعرضه بين أيديكم الكريمة، وكُلِّي أملٌ ألّا تردُّوني خائبًا.

ـ خيرًا إن شاء الله نعيم أفندي، تفضَّل، كلي آذان صاغية.

فأردف قائلًا:

ـ سيدي، اطَّلَعت على قائمة أعضاء مجلس الأعيان، فرأيت اسمي فيها، يا فضيلة الأستاذ، هل عَقِمت بلادُنا عن إنجاب الرجال إلى هذه الدرجة؟ هل قَحَطَت مُدنُنا عن أن تجـود بمَن هو أهلٌ لهذا المقـام؟ مَن أنا حتى يضاف اسمي في هذه القائمة؟ أتوسَّل إليكم، وأستعطف جنابكم الكريم، أن تُزِيلوا اسمي من هذه القائمة.

وفعلًا كاد أحمد نعيم أفندي أن ينهار تمامًا وهو يتوسل بين يدي:

ـ يا فضيلة شيخ الإســلام، أنا أعرَف الناس بنفسي، كيف أعُول صغاري من معاش هذه الوظيفة التي لا أستحِقُّها؟

ولشدة توسُّله وإلحاحه في الرجاء أدركت أنه ســيتنازل عن الوظيفة لا محالة، فقلت له:

ـ نعيم أفندي، بالله عليك، ماذا أصابك؟ هل أنا وحدي فقط من تريدونه أن يمضي إلى جهنم؟ وهل أنا الرجل الذي يليق بمقام شيخ الإسلام، هل أنا أهل لخلافة زنبيللي أفندي وأبي السعود أفندي وابن كمال باشا أفندي؟ لكنّ القدر أقامَني في مقام شيخ الإســلام، ماذا أفعل، هل أتهرَّب من المسؤولية وأرمي الحِمل عن كاهلي؟ لا بد أن يقوم أحدُنا في هذا المقام، ويجتهد قدر المستطاع في أداء مهامه، سنعمل معًا جميعنا يدًا واحدة.

واستمر مصطفى صبري أفندي في حديثه يخاطبني:

ـ أين أصحاب الفضيلة والسماحة أمثال أحمد نعيم أفندي الآن من أولئك الذين يَملؤون المجالس بأجسادهم المنتفخة بالحرام والرُّشى، وليس لهم من العلم والعرفان والفِراسة والحكمة نصيب، أشخاص لا همَّ لهم إلا أن يتصدَّروا المجالس بأيِّ ثمن كان، فيُنتَخَبون نُوّابًا عن مدن لم يرَوها في حياتهم، ولم تطأها أقدامهم إلّا مرة أو مرتين ليتطفَّلوا على موائد أهلها فقط، ليس هناك انتخابات، ليس هناك أحزاب، والحزب المتفرد بالسلطة يرشِّح مَن يشاء في أي مكان يشاء، وليس للناس البسطاء إلا أن يختاروا القائمة الوحيدة التي تُقَدَّم إليهم، فيضعون أصواتهم في الصندوق ويمضون.

❁ إلماليلي، إزميرلي، فريد كام، إسماعيل فنّي:

كان ممن يُكِنُّ لهم مصطفى صبري أفندي عظيم الود وخالص المحبة وجليل المنزلة إلماليلي حمدي أفندي، وإسماعيل حقي أفندي الإزميرلي[(١)]، وفريد كام بك[(٢)].

---

(١) إسماعيل حقي بن حسن بن حسين تشوبوكجو أفندي الإزميرلي (١٨٦٩ ـ ١٩٤٦)، وُلد في إزمير، حفظ القرآن صغيرًا، وتلقى تعليمه في مدينته حتى عُيّن مدرسًا في دار المعلمين بإزمير، وإمامًا ومدرسًا في مدرسة إزمير الثانوية، انتقل إلى إستانبول عام ١٨٩٠، ودخل دار المعلمين العالية حتى تخرج فيها من قسم الآداب عام ١٨٩٢، وحضر دروس بعض علماء إستانبول في مسجد الفاتح، عمل معلمًا ومفتشًا في وزارة المعارف، وشارك في جمعية إصلاح التعليم، ثم في دار المعلمين العالية، ثم في دار الفنون، اشتهر بتدريس الفلسفة والكلام، وعُرف بكتابه المشهور علم الكلام الجديد، واشتغل بالتأليف إلى وفاته. انظر: علي بيرنجي، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة إسماعيل حقي الإزميري (٢٣: ٥٣٠).

(٢) عمر فريد كام بن أحمد مختار باشا (١٨٦٤ ـ ١٩٤٤) شاعر ومفكر وكاتب تركي، وُلد في إستانبول؛ لأب كان من أطباء قصر السلطان عبد الحميد، كان ذا ثقافة واسعة وتعلَّم اللغات العربية والفارسية والفرنسية، وتلقَّى بعض العلوم الشرعية في المساجد، واشتغل بالترجمة =



▲ إسماعيل حقي الإزميرلي



▲ الشاعر عمر فريد كام

ولما كان يشــير إلى أن الناس لا تعرف لـ «أحمد نعيــم أفندي» قدرَه ومكانته كان يُثنّي بذِكر «إســماعيل فنّي أرطغرل أفندي»[1]، ويُشــيد بعلمه

= وتدريس الفرنسية والفلسفة والأدب التركي، وكان عضوًا في دار الحكمة الإسلامية، وعُيِّن في آخر حياته أستاذًا للأدب الفارســي في كلية الآداب بجامعة أنقرة. انظر: سليمان خيري بولاي، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة عمر فريد كام (٢٤: ٢٧١).

(١) إســماعيل بن محمود فَنّي أرطغرل (١٨٥٥ ـ ١٩٤٦) فيلســوف وكاتب تركي، وُلد في مدينة تارنوفا في بلغاريا، وتلقّى تعليمه الأساســي فــي مدينته إضافةً إلى دراســته اللغة العربية والموسيقى والخط والمحاسبة، وهاجر إلى إســتانبول في العشرين من عمره بعد احتلال الروس لمدينته، تولّــى مناصب عديدة فــي وزارة المالية، والتحق في خــلال فترة عمله بمدرســة اللغات، وتخرج فيها عام ١٨٨٦، إضافة إلى دراســته للغة الإنجليزية لمدة أربع ســنوات، وكوفئ على إتقانه في عمله واجتهاده فيه، اهتم بالشعر وأجاد فيه، وتتلمذ على كبار الموسيقيين، وتأثّر بالتصوف وكتب فيه، أمضى سنواته الأخيرة في عزلة حتى توفي، ودُفن في مقبرة أبي أيوب الأنصاري في إســتانبول. انظر: سليمان خيري بولاي، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة إسماعيل فني أرطغرل (٢٣: ٩٨).



▲ إسماعيل فني أرطغرل

وأبحاثه، ويلفت النظر إلى أهمية كتابه «ماديون مذهبنك اضمحلالي»؛ «تقويض المذهب المادي»، ويقول فيه:

ـ لما قرأت كتاب «تقويض المذهب المادي» حلَّ من نفسي في موقع عظيم، وعجبت كيف لا نعرف رجلًا يكتب مثل هذا ونحن نعيش معه في إستانبول؟ يا لَسَعة علمه ودقة ملاحظته! لقد قرأ وفهم، بل وهضم ونقد كل ما اطَّلع عليه بأربع لغات، ولكن للأسف كم شخصًا كان يعرف هذا العالم النحرير الذي حوى هذا الكمَّ الهائل من العلم والمعرفة والفكر في عقله وقلبه وروحه؟ كم شخصًا حضر جنازة هذا الرجل الجليل؟ ولكن للأسف كيف لنا أن نُقدِّر قيمة أمثال هؤلاء الشرفاء المخلِصين ونحن نصفِّق ونهتف لمن يتصدر المناصب التي لا يستحِقُّها، ويتبجَّح بمعرفةٍ وعلم ليس له منهما إلا الاسم؟[1]

ومع اعتراف فضيلة شيخ الإسلام بعلوِّ منزلة هؤلاء وعظيم قدرهم فإنَّ هذا لم يمنعه من تصويب سهام انتقاده لهم، وأحمد نعيم أفندي ضمنهم؛ لأنهم لم يَثبُتوا على الثغر إلى جانبه في وجه النظام الجديد، وآثَروا الانصياع لحكم طغمة أنقرة، والمهادنة لأعداء الدين والأمة، ويبدو أن ما تعرَّض له الأستاذ من مِحَن وشدائد خلال إقامته في منفاه حمله على اتخاذ موقف صارم لا يقبل المعاذير والذرائع في هذا المقام الخطير.

---

(١) أورد علي علوي كلام الشيخ مصطفى صبري عن إسماعيل فني في موضع آخر من مذكراته (١: ٣٢٥).

كان يرفض رحمه الله التماس المعاذير لمثل هؤلاء الكبـار في أنّ لكلٍّ منهم مسلكَه وطبيعتَه ومَقدِرته التي قد لا تؤهِّله لتبوُّء دَور قيادي في حركة النضال والكفاح، أو التعلُّل لهم بأنّ لكلٍّ منهم مجالُه الذي يُفِيد فيه وينفع الأمة من خلاله، وقد كانت هذه المشاعر أكثر صرامةً عند ابنه إبراهيم أفندي.

باب صبري أفندي مفتوح للجميع[1]:

ولكن على موقفه هذا لم يكن أستاذنا مصطفى صبري أفندي يرفض لقاء مَن ينتقدهم أو الاجتماع بهم والحديث معهم، فلم يكن ـ بما أُوتِي من ثبات الجَنان وقوة الشخصية ـ يخشى أحدًا، أو يلجأ للتورية والتخفّي خلف أقنعة المجاملات، حتى في مصر التي لم يكن له ملاذ غيرها يأوي إليه في آخر سنوات حياته، لم يَحمِله ذلك على المداهنة أو المساومة، بل كان شديد الرد على كبار علماء وكُتّاب ومفكري مصر فيما يعتقد مخالفتهم الحقّ فيه.

إلا أن شدته في نقد الباطل وبُغضِ أهله لم تَحِد به عن العدل والإنصاف معهم، بل إنه كان يتعاطـف إنسانيًا حتى مع أشـد أعدائـه الاتحاديين، فقـد قال مرة:

ـ رأيت ذات يوم أنور باشـا ينتحب في البرلمان، وتفطَّـر قلبي لحاله، فطلعت باشـا وأمثاله لم يكونوا لصوصًا أو قُطّاع طـرق، أو نَكِرات في هذه الأمة، لكن العدو كان شرسًا شديد الفتك، يسوق المتعاونين معه والمتأثِّرين به إلى شـرِّ المسـالك، ويُلجِئهم إلى أخطر المهاوي، فالصديق هو مَن ينقذ صاحبه أو يُغرِقه.

---

(١) أورد علي علوي هذه الفقرة في موضع آخر من مذكراته (٢: ١٤٨).

وقال مرة[١]:

إن قلبي ليتمـزَّق حين أرى ما حـلَّ بمثقَّفينا وكُتّابنـا، وخاصةً كبار العسـكريين الذين يُفتَرَض بهم أن يحموا الوطن ويصونوا حِياضه، إنهم انسـلخوا عن ثقافة أمتهم ودينها وقيمها ومبادئها، وانسـاقوا وراء الغرب متأثرين بفلسفته مبهورين بمدنيَّته.

* * *

(١) أورد علي علوي كلام الشيخ في موضع آخر من مذكراته (٢: ١٩٦).

ضرر الكلمات الدخيلة

حين كنا نحن الطلاب نتناوب على إحضار الخبز من أفران منطقتنا بجانب الأزهر إلى بيت الأستاذ مصطفى صبري أفندي الذي شحَّ الخبز في حَيِّه بسبب الحرب، أتيته ذات مساء بالخبز، فلما دخلت عليه كان يستمع إلى نشرة الأخبار في إذاعة أنقرة، وكان يقرؤها نور الدين أرتام، فدعاني الأستاذ للجلوس، وعندما انتهت نشرة الأخبار كان قد دوَّن على ورقة بيده بعض الملاحظات، حيث إنه أثناء إصغائه للنشرة طرَقَت سمعَه بعض الكلمات الدخيلة على اللغة التركية، فدوَّنها، ثم قرأها والتفت إليَّ قائلًا:

ـ ما هذا! كل يوم تظهر كلمات جديدة، مَن يولِّد هذه الكلمات؟ وكيف يولِّدونها؟ وهل هم أهلٌ لمثل هذا العمل الخطير؟ وهل أصلًا ثمة حاجة لهذا؟ هل ستبقى الكلمات القديمة جارية في الاستعمال وعلى الألسنة أم سيتجاهلونها ويُجبِرون الشعب على نسيانها؟ إني الآن لم أستطع فهم بعض ما قيل في النشرة، وإن استمرت الحال على هذا المنوال فالأجيال القادمة لن تستطيع فهم ما أكتبه، وسيعجز الشباب عن قراءة ما قرأه أجدادُهم وآباؤهم، بل إنهم سيَصِلون إلى حال لن يكونوا قادرين فيها على فهم أجدادهم وآبائهم جيدًا.

إن ما يجري الآن إنما هو خطة النظام الجديد حتى يستأثر ـ هو فقط دون غيره ـ بمخاطبة الأجيال الصاعدة، وإقناع مؤيديه بما يريده، وقطْع صلتهم بغيره، وبهذا يُغيِّرون إيمان الشعب وتاريخَه وروحَه وثقافته.

والله إن ما يُراوِدُني من أفكار فيمــا تُكِنُّه صدور هؤلاء القوم في أنقرة لو أفصَحتُ به لكم لقلتم عني: إن الشيخ اســتبدَّت به الأوهامُ، وأحكمَت عليه الوســاوس حلقاتها، ســتقولون: ما بالُه يصنع من الحبة قُبّة! ولكني لســت كذلك، آهٍ! ليتني أكون متوهِّمًا، ولا يقع شيء من مخاوفي.

سيهجرون اللغة التركية يومًا ما:

- يا بُنــي، إن اللغة مع هذا النهج ســتذوي وتذبُل حتــى يَغِيب بريقُها، ويذوي رَونقُها، وتفتقــر بعد غِنًى، وتهــرم بعد فُتوة، ويتحــوَّل نظامُها إلى فوضى، وجمالُها إلى قبح، وسيأتي يومٌ يخرج فيه رجلٌ عديم البصر والبصيرة لا يرى أبعد من أنفه، فيقول: «أيها السادة، ما هذه اللغة التركية التي لا تُسعِف المرء أن يكتب بها شيئًا، ولا أن يترجمه، ولا تمد يد العون لأديب أن يصوغ بها رائعة من روائع الأدب، وليس في مَعِينهــا ما ينزحه المترجم لينقل إليها أوابد العلم والفن والأدب؟! لقد بارت سوق هذه اللغة واستعجمَتها الألسنةُ، فما عادت تصلح لشيء، فلئن كنا نريد لأنفسنا مكانًا بين أمم الأرض فلنَتَّخِذ لنا لغةً أخرى من لغات إحدى الأمم المتحضرة، سواء الألمانية أو الفرنسية أو الإنجليزية أو الروسية...».

يا بني، مع الأسف الأمور تســير في هذا الاتجاه، فالأمة التي يُسلَب دينها وكتابها وتاريخها ولغتها تتلاشى هويتُها، وتذوي شخصيتُها، وتصبح نسيًا مَنسِيًّا.

بهذا النهج، لن يتمكن أحدٌ من قراءة الأعمال التي كُتِبت قبل عشرين أو ثلاثين ســنة، بله تلك الآثار الخالدة التي كُتِبت قبل مئات السنين، وسنرى لغتنا التركية الأنيقة الثرية تنهار أمام أعيننا وتصبح أثرًا في متحف التاريخ.

مع أن هذه اللغة التركية قد نجحت قديمًا ـ بجهود أجدادنا العلماء ـ أن تتحول إلى واحـــدة من أغنى لغات العالـــم، بما تخيَّرته مـــن روائع اللغات العظمى، العربية والفارسية، واستلحقَته حتى صار جزءًا منها.

وكانـــت تُكتَب وتُنظَـــم بهذه اللغـــة البديعة أجمل المقـــالات والخطب والمواعظ والقصائد، فاللغة التركية كانت تنســـاب انسياب الماء، تفيض في الحديث والكتابة دون أن تشعر بالحاجة إلى تكرار الكلمات، وأما في الشعر فتنثال عليك القوافي انثيال الصيِّب الهَطِل.

وإنّ هذه التطورات لَتوحـــي للمتأمل الفطِن بأنه ســـيولد من رحم لغتنا التركية الأم لغةٌ مشوهةٌ ضعيفة هزيلة، يضطر فيها الكاتب والمتحدِّث للتكرار والتقعُّر والتمحُّل، ويغيب عن الكلام جَرسُه وإيقاعُه، وأما الشعر وما سيصيبه من ضحالة وضمور فحدِّث ولا حرج.

الغزو الثقافي الصليبي[1]:

ـ يا بني، إنّ ما يحل بلغتنا اليوم فاجعة كبيرة، هل تدري إلى أين نهوي؟ إنّ ما سينزل بلغتنا ـ بسبب إدخال هذه الكلمات والمصطلحات الغربية ـ من فساد وتشويه واضطراب وقصور وضعف ســـيُخرجها عن قدرتها على التعبير والترجمة، فتفقد أهم خصائص اللغة.

ثم إنه ليس من السهولة أبدًا أن تمحو لغتك العثمانية القديمة في لحظة واحدة، ثم تجد مباشـــرة ما يقابل المصطلحات التي تســـتعملها لغتك في الدين والعلم والأخلاق والقضاء والفلسفة والفكر والفن، مما سيضطرنا إلى ترك ما تَعارَف عليه أجدادُنا، وانصبغت به ثقافتُنا منذ مئات السنين، واللجوء

---

(١) أورد علي علوي كلام الشيخ مصطفى صبري هذا في موضع آخر من المذكرات (٥: ١٣٧).

لاستعمال مصطلحات الغرب التي تَواضَع عليها بناءً على ثقافته وأخلاقه، وبهذا نكون عُرضة لغزو أعدائنا الصليبيين ثقافيًا وفكريًا وروحيًا.

إن من أهم المخاطر الناجمة عن استعمال مصطلحات ثقافةٍ ما هو استيلاؤها على روحك وفكرك وأخلاقك، وكم وكم جاهَدَ أجدادُنا حتى لا يُسلِموا قِيادَهم لمثل هذا الغزو الفكري والثقافي، فجاهَدوا في قارات الأرض الثلاث مئات السنين حفاظًا على ثقافتهم ودينهم واستقلالهم الفكري.

فالعدو الذي يحتل أرضك بجيوشه وسلاحه تستطيع أن تصارعه وتقاتله حتى تخرجه من أرضك وتطهِّرها من رِجسِه، وأما تطهير نفوس أبناء الأمة من الغزو الثقافي الذي أحكم قبضته عليهم فيحتاج إلى حروب عظيمة تمتد لعصور وعصور.

وانتزاعُ الأرض من قبضة العدو أمر ميسور إذا ما قِيس بتطهير روح الأمة وفكرها وثقافتها من أسر الانبِهار بالعدو، والتبعية الفكرية والروحية له.

❁ الدين واللغة هوية الأمة[1]:

- إن حرمان أمة من لغتها الأم التي تعبِّر بها عن روحها وثقافتها يعني قطيعتها عن كل ما يمثِّل هويتها، فأعداء الدين في تركيا بالأمس هم أعداء لغتها التركية اليوم، وا حسرتاه على أمتنا! هل ابتُلِي غيرها بمثل ما ابتُلِيَت به عبر التاريخ؟

انتبِهوا، ما الذي لم يتغيَّر في أمَّتِنا بعد؟ والله إن المرء لا يدري على أيِّها يبكي ويَندُب، فإن أشد ما يَقُضُّ مضجعي ويؤرِّق نفسي أن يقوم من أبناء

---

(١) أورد علي علوي كلام الشيخ مصطفى صبري هذا في موضع آخر من مذكراته (٥: ١٣٨).

جِلدَتِنا من يخطب فينا ويتباكى على حالنا، ويخدعنا بمعسول كلامه، ويروِّج لمزاعمه الباطلة، أنه كما كان الدين سابقًا عائقًا عن نهضتنا فإن اللغة اليوم هي العائق عن لحاقنا بركب الدول المتحضرة، ويُزَيِّن للناس البسطاء أن ينخلعوا من رِبقة كل ما يَشُدُّهم إلى الماضي ويحطِّموا قيوده؛ لينطلقوا إلى عوالم الحضارة والتقدم، فيتَبَنَّون لغة الغرب وزِيَّه وفكره وفلسفته ونمط حياته، فتخسر الأمة بذلك كلَّ شيء، دينَها، ولغتَها وهويتها.

* * *

لسرعان ما صرت أستاذًا

لا زلت أذكر أني كثيرًا ما كنت أسمع من الأستاذ مصطفى صبري أفندي قولَه: «لم أشبع من العلم».

وفي إحدى المناسبات تحدَّث عن رحلته في طلب العلم، فقال:

ـ عندما انتقلت من توقاد إلى قيصري، ثم منها إلى إستانبول، كنت قد أتمَمت الربيع الثاني والعشرين من عمري، وكان أخي الأكبر قد سبقني للدراسة في إستانبول، والتحقت بحلقات الدروس في المدرسة، وكنت أفهم جميع ما يُلقى فيها.

وكان أخي كثيرًا ما يطرح عليَّ أسئلةً صعبة في أصول الفقه والعقيدة والمنطق، فكنت ـ بفضل الله تعالى ـ أُجِيب عنها جميعًا، يقول لي متعجبًا: أنا لا أستطيع فهم هذه المسائل من المعلِّمين، أما أنت فتعرفها كلَّها، إلى متى ستظل تلميذًا هكذا؟ عليك أن تتقدم لامتحان الرؤوس(١) وتصير مدرسًا.

وكان يُلِحُّ عليَّ في ذلك كثيرًا، فدخلت الامتحان وأصبحت مدرسًا، وبدأت أُلقي الدروس على الطلبة في جامع السلطان محمد الفاتح، ولما جاء

(١) الرؤوس: هو اسم القسم المختص بالتعيينات في البيروقراطية العثمانية منذ القرن السادس عشر، فمن كان يريد الانتساب إلى سلك الوظائف الرسمية في الدولة لا بد أن يجتاز امتحان التعيين الذي يُجريه هذا القسم. انظر: رجب أحصحالي، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة رؤوس (٣٥: ٢٧٢)، وذكر الشيخ زاهد الكوثري أن الامتحان كان يُجرى كل خمس سنوات مرة واحدة، وترجمه بامتحان العالِمية. انظر: زاهد الكوثري، التحرير الوجيز في بغية المستجيز ص٦٧.

والدي من توقاد إلى إســتانبول لزيارة المدينة، والتعرف عليها، حضر أحد دروسي دون علمي، ثم قال لبعض أصدقائه عني: «استأذَنَنِي لطلب العلم في الآســتانة بعد قيصري، فما لبث أن حصل على شــهادة العالمية وتربَّع على كرســي التدريــس، وكان الواجب عندي أن يســتمر في التعلُّـم حتى يبلغ الثلاثين على الأقل».



▲ كامل ميراث

من لم يأخذ إجازة العلم من إســتانبول فليس بعالم:

عندما رجعت إلى تركيا في خمسينيات القــرن العشــرين أخذَني صديقــي الطبيب خلوصي بايبال ـ جـزاه الله عني كل خير ـ لزيارة شــخصية مهمــة، إنه الشــيخ كامل ميراث أفندي[1]، كان الشــيخ قــد طَعَن في

(١) كامل بن أحمد رشــدي ميراث (١٨٧٥ ـ ١٩٥٧) عالم وسياســي تركي، مترجــم «التجريد الصريح»، وُلد في أفيون لعائلة علمية، درس على والده، وبعد إنهاء دراسته الثانوية أتى إلى إستانبول، وقرأ على علمائها في جامع الفاتح مثل محمد علي الألصوني وأجازوه، وتخرَّج فــي دار الفنون، وفي عام ١٩٠٧ بدأ العمل مدرسًــا فــي جامع بيازيــد، وألقى عددًا من الدروس في دار الفنون، مثل التاريخ والأخلاق والفقه، ثم درَّس تاريخ الأديان في مدرسة دار الخلافة العالية، ودرس تاريخ الفقه في مدرســة الســليمانية، وغيرهــا من المدارس، وانتُخب في كثير من الهيئات العلمية الإســلامية، وكان إلى جانب ذلك له نشاط سياسي بعد إعلان المشروطية الثانية، وانتسب إلى جمعية الاتحاد والترقي، وعُيِّن نائبًا في البرلمان عن حزب الشعب الجمهوري، واتُّهِم بالمشــاركة في محاولة اغتيال مصطفى كمال، ولكن المحكمة برَّأته من التهمة، وكان له دور في طرح مشروع ترجمة القرآن والحديث الشريف والموافقة عليه في البرلمان، وأوكل تفسير القرآن بالتركية لحمدي يازر الإلماليلي، وأوكل ترجمة «التجريد الصريح» لنعيم بابان زاده، فلما تُوفي نعيم أفندي قبل إنهاء الترجمة أكملها =

السـن حتى إنه جاوز الثمانين، لما زرته في داره كان يعتمُّ بعمامة أهل الشـام (الأغباني)، وهي طربوش أحمر يُلَفُّ عليه قماش أصفر مزركش، وليس قماشًـا أبيض، فسألني: أين درست؟ فلما أخبرتُه أني درست في القاهرة بادرني بالسؤال:

- لا بد أنك التقيت بالأستاذ مصطفى صبري أفندي؟

- نعم سيدي، إنه أستاذي، تشرفت بالتتلمذ عليه.

فلما سمع الشـيخ كلماتي غاب قليلًا في ذكريات الماضي، ثم توجَّه إليَّ قائلًا:

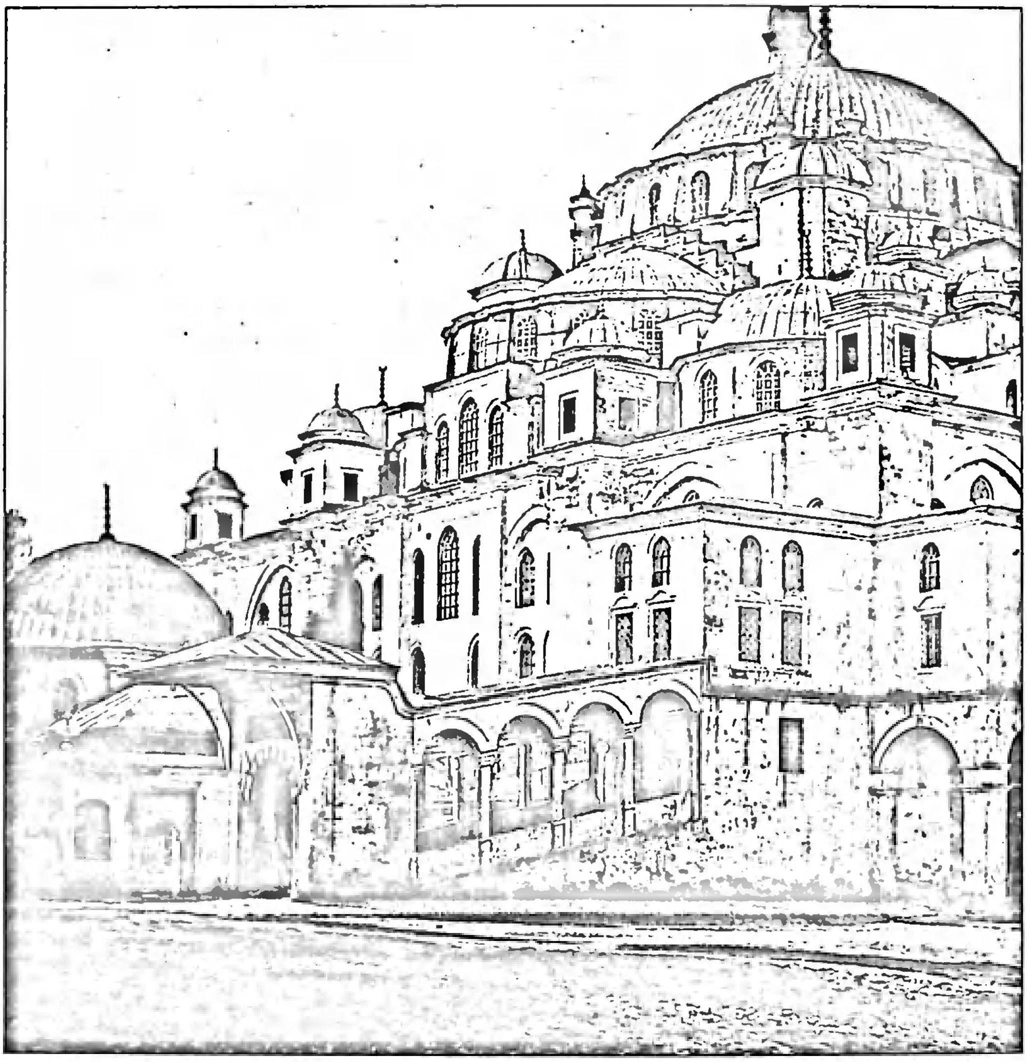
- ليس أستاذَك وحدَك، إنه أسـتاذي أيضًا، كنت أستاذًا في مدينة أفيون، ولكن ليسـت لدي إجازة علمية، وكان في زماننا مَن لم يحصل على إجازة علمية من إستانبول فكأنه ليس بعالم، فاشتعَلَت نار حُب إستانبول في قلبي، وعقدت العزم على زيارتها، وطلب العلم، والحصول على إجازة فيها، ولما نزلتها أخذت أتجوَّل في مساجدها الكبرى، وأقف على حلقات العلم فيها.

أستاذ حلقة شاب في جامع الفاتح:

كان عند كل سارية من سواري جامع الفاتح أسـتاذٌ جلس يقرأ كتابًا من كتب العلم علـى الطلبة الذين تحلَّقوا حوله[1]، وقفـت على جميع الحلقات

= كامل ميراث في عشر سنوات. انظر: نسـيمي يازجي، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة كامل ميراث (٣٠: ١٤٥).

(١) كان من عادة النظام التعليمي القديم أيام الدولة العثمانية تعيين عشـرين عالمًا جديدًا كل سنة في جامع الفاتح، فيحضر إليهم الطلاب الوافدون حديثًا من الولايات، ويختارون أيَّ عالم يريدون، فيَشْـرَعون بالطلب عليه بدءًا بعلم الصرف والنحـو، ويتدرجون في العلوم بحسب المقرر في كل سنة، إلى أن يصلوا في مدة خمس عشرة سنة إلى مراحل النهايات، فيُجيزه شيخه إجازة ملفوظة ومكتوبة، ويكون الطالب بذلك قد تم تكوينه العلمي، وتخرَّج =

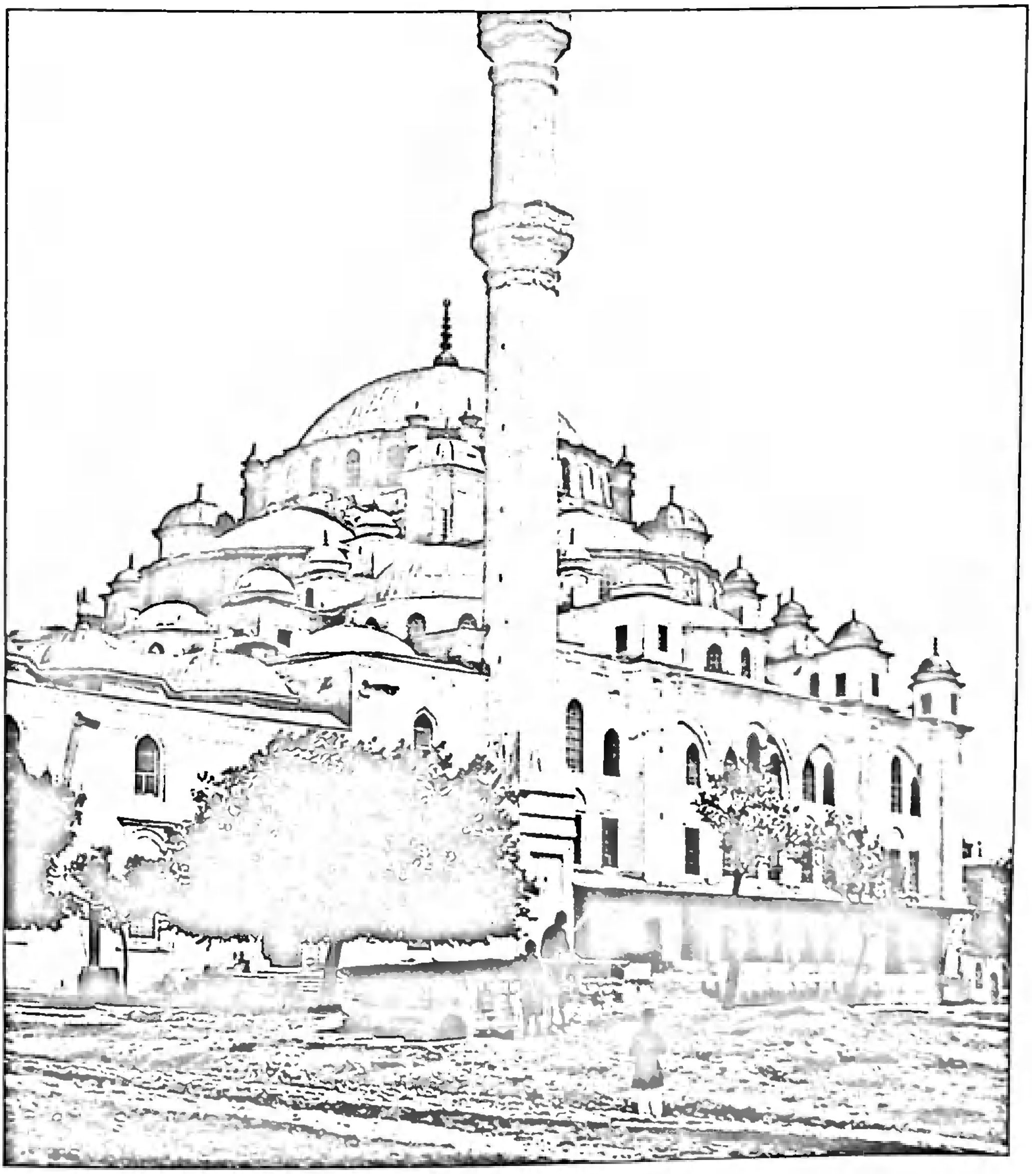


▲ صورة لجامع الفاتح سنة ١٨٥٠

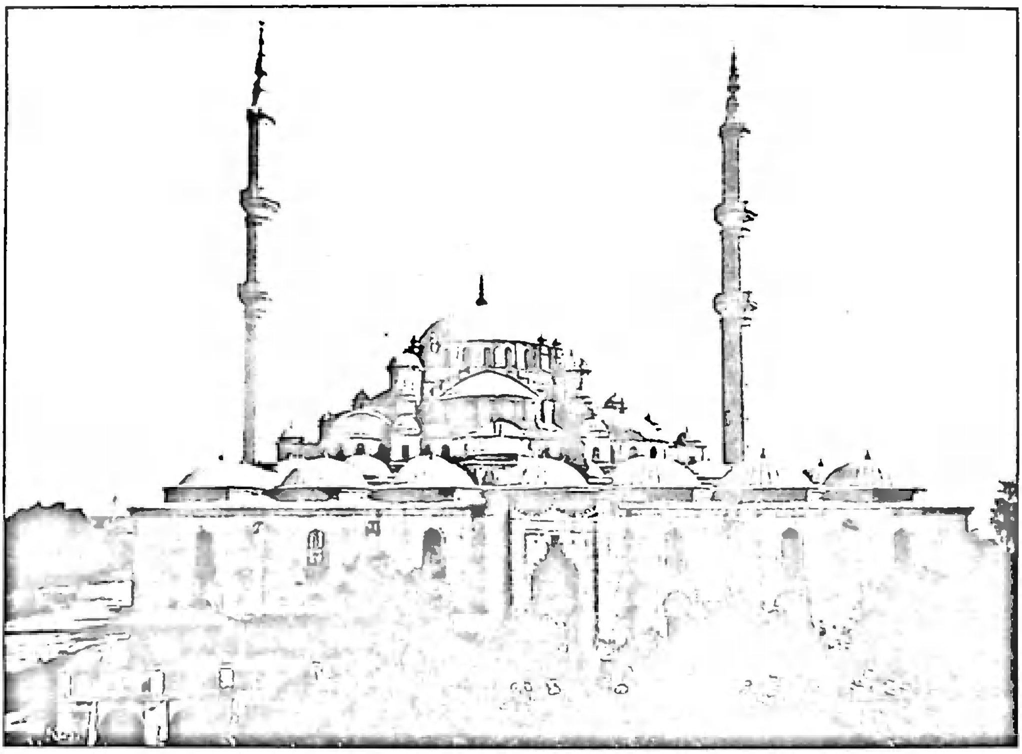
أستمع إلى كلام الشيوخ، وذهبت إلى جامع بيازيد والسليمانية، واطلعت على كل حلقات علمائها، وبقِيتُ أسبوعًا أبحث في هذه الحلقات عن أستاذ

= في أغلب العلوم على شيخ واحد تخيَّره بكل حرية في مبدأ أمره، ويكون الأستاذ طوال تلك المراحل لا يشتغل كل يوم إلا بدرسين فقط، فتكون همته كلها مصروفة إلى إعداد الدرسين في كل يوم، فينشأ الطالب نسخة مصغَّرة عن أستاذه في العلم والخلق. انظر: تعليق عبد الفتاح أبو غدة، التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز ص١٥.

أقرأ عليه، وأخيرًا ساقتني الأقدار إلى حلقة كان يُلقي فيها أستاذٌ شابٌ درسًا في البلاغة، وكان يقرأ كتاب «المطول» للسعد التفتازاني، وكان يمتاز بشرحه الأخّاذ لأبيات الشعر العربي، فيُضفِي عليها معاني رائعة، ورأيت من أسلوبه ما لم أره عند غيره من الأساتذة في الحلقات الأخرى.



▲ صورة لجامع الفاتح سنة ١٨٦٠



▲ صورة لجامع الفاتح سنة ١٨٨٣

كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقرأ البيت فيُفسّر غريبَه، ثم يشرح البيت شرحًا أدبيًا يأخذ بمجامع النفوس، حتى إنه لو سمعه الشاعر قائلُ البيت لما وَسِعَه إلا أن يقول: «والله صدق، ما أردت بشعري غير هذا».

فسلَّمت عليه عقب الدرس وقبّلت يدَيه، ولَزِمته، فقرأت عليه البلاغة حتى أجازني بها.

كان رجل كفاح:

عندما رأى الأستاذ صبري حبي وغيرَتي وتطلُّعي لتعلُّم الأدب العربي، كان يجلس معي وحدي بعد انفضاض الطلبة، ويُحلِّل لي بعض أبيات الشعر التي لا زالَ كثير منها محفورًا في ذاكرتي لم تُبلِه الأيام على تَقادُمها، وكانت

كل الأبيات التي يناقشـني فيها ويُحلِّلها معي أبياتًا في شعر الحماسة والقوة والشـجاعة، وكان واضحًا منذ تلك الأيام أنه سـيكون رجل كفاح ونضال، لا يغمد له سيف ولا تَنْضُب له كنانة.

ثم توجَّه كامل ميراث أفندي إليَّ مستطلِعًا:

ـ لا بد أنه كان في مصر كذلك أيضًا، رجل دعوة وجهاد.

ـ صدقتم يا سيدي، كان كذلك.

ـ كان من الأبيات التي يُحلِّلها معي أبيات للمتنبي يقول فيها:

إذا كانَـتِ النُّفُـوسُ كِبـارًا ... تَعِبَـتْ فـي مُرادِها الأجْسـامُ

ويقول:

إذا غامَـرْتَ في شَـرَفٍ مَرُومٍ ... فَـلا تَقنَـعْ بمـا دُونَ النُّجُومِ

فَطَعْـمُ المَوْتِ في أمْـرٍ حَقِيرٍ ... كَطَعْـمِ المَوْتِ في أمْـرٍ عَظِيمِ

ومنها:

يَـرَى الجُبَناءُ أنّ العَجـزَ عَقْلٌ ... وتِلكَ خَديعـةُ الطَّبـعِ اللَّئيمِ

وكلُّ شَـجاعةٍ في المَرْءِ تُغنِي ... ولا مِثلُ الشَّجاعةِ في الحَكيمِ

وكَمْ مِن عائِبٍ قَـولًا صَحِيحًا ... وآفَتُـهُ مِـنَ الفَهْـمِ السَّـقِيمِ

ومنها:

لا افْتِخـارٌ إلّا لمَـنْ لا يُضامُ ... مُـدْرِكٌ أوْ مُحـارِبٌ لا يَنـامُ

لَيسَ عَزْمًا ما مَرَّضَ المَرْءُ فِيهِ ... لَيسَ هَمًّا ما عـاقَ عَنهُ الظَّلامُ

واحتِمـالُ الأذَى ورُؤية جانِبـ ... ـهِ غِـذاءٌ تَضْوَى به الأجْسـامُ

ذَلَّ مَــنْ يَغْبِطُ الذَّلِيــلَ بعَيشٍ رُبَّ عَيشٍ أَخَفُّ مِنــهُ الحِمامُ
كُلُّ حِلْــمٍ أتَــى بغَيــرِ اقْتِدارٍ حُجّــةٌ لاجِــئٌ إلَيهــا اللِّئــامُ
مَنْ يَهُنْ يَسْــهُلِ الهَــوانُ عَلَيهِ مــا لجُــرْحٍ بمَيِّــتٍ إيــلامُ

ومنها:

عَلى قَدرِ أهْلِ العَزمِ تَأتِي العَزائِمُ وَتَأتِي عَلى قَدْرِ الكِرامِ المَكارِمُ
وَتَعظُمُ في عَينِ الصَّغِيرِ صِغارُها وَتَصغُرُ في عَينِ العَظِيمِ العَظائِمُ

❊ ❊ ❊

مكتبة قصر يِلْدِز[1]

يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي: لم يَكَد يمرُّ وقتٌ طويلٌ بعد أن ولجت حياة التعليم والتدريس حتى عُيِّنتُ مديرًا لمكتبة السلطان عبد الحميد الثاني في قصر يِلْدِز.

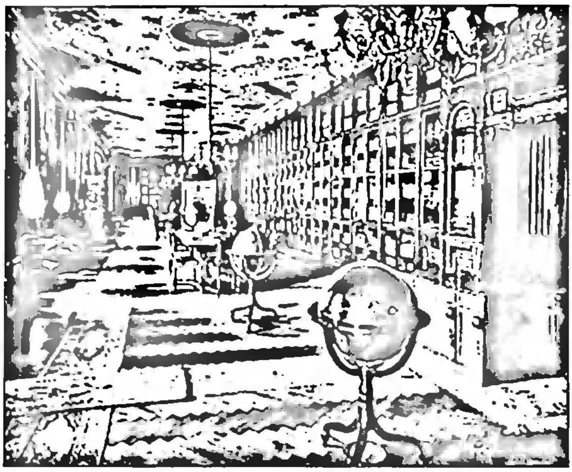
وقد استمعت - خلال السنوات العشر التي قضيتها في القصر - لمؤذِّني القصر وقُرّائِه، وطرِبتُ لأصواتهم العذبة، وانفعَلَت نفسي بأدائهم المؤثِّر، وانشغلت في هذه الفترة بقراءة ودراسة أدب الديوان[2].

---

(١) المكتبة الشخصية التي أنشأها السلطان عبد الحميد الثاني في قصره بعد اعتلائه عرش السلطنة، ويغلب على الظن أن تاريخ إنشائها يرجع إلى عام ١٨٧٦، حيث بدأ السلطان يجمع كل مكتباته الشخصية المتفرقة في مكان واحد، ومرّت المكتبة بمراحل حتى أخذت شكلها النهائي في مكتبة قصر يلدز المعروفة، التي انتهت أعمال تأثيثها في عام ١٨٩٧، وكان فهرسها يتكون من اثنين وعشرين مجلدًا، قُسّم بحسب اللغات والموضوعات، وتولّى إدارتها كثيرون، منهم مصطفى صبري أفندي، وسليمان حسبي، ومحمد لطفي، وبعد عزل السلطان عبد الحميد عن العرش أُحيلت المكتبة إلى عهدة وزارة المعارف، فنُقلت إليها عام ١٩١٠، ثم نُقلت إلى دار الفنون عام ١٩٢٤، ثم نُقلت عام ١٩٢٥ إلى بناء مكتب النواب في الطريق الواقع بين جامعي السليمانية وبيازيد، وأما اليوم فصارت قسمًا من مكتبة جامعة إستانبول للكتب والوثائق النادرة. انظر: طوبى جافدار كارتبه، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة مكتبة قصر يلدز (٤٣: ٥٤٤).

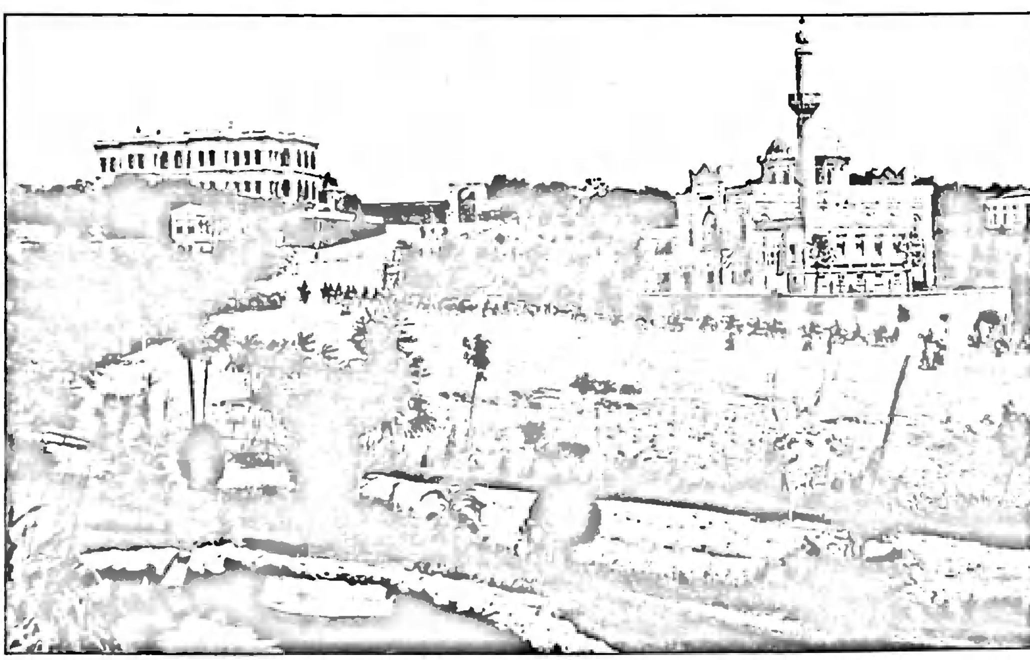
(٢) أحد أشكال الأدب التركي الذي أبدعه الأتراك في ظلال الإسلام تأثُّرًا بالأدبين الفارسي والعربي، واتباعًا لتقاليدهما، وبدأ بالظهور في القرن الثالث عشر، واستمر إلى نهاية القرن التاسع عشر، حيث بدأ يخسر مكانته في عصر الحداثة أمام أشكال الأدب المتأثرة بالحضارة الغربية، وصار يطلق عليه اسم الأدب التركي الكلاسيكي، ومن أهم ما يميّزه كثرة استخدامه للمفردات العربية والفارسية، ونظمه القصائد وفق القافية وأوزان العروض التركي، وتأثره بفنون نظم الشعر الفارسي، ومن أشهر أعلامه شعراء مثل: شيخي وفضولي وباقي ونديم ونابي ونفعي ونائلي وذاتي. انظر: عمر فاروق أقجون، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة أدب الديوان (٩: ٣٨٩).

وكان أحد أئمة القصر الحافظ سامي إمامًا رائع الأداء رخيم الصوت عذب النغمة، كان من قرية شيله، وكنا نسميه بلبل شيله، ويكاد يوازي بجمال صوته أشهر قرّاء ذلك العصر الحافظ الشهير حسين بيرقلي، ولكن للأسف فقدناه في وقت مبكر.

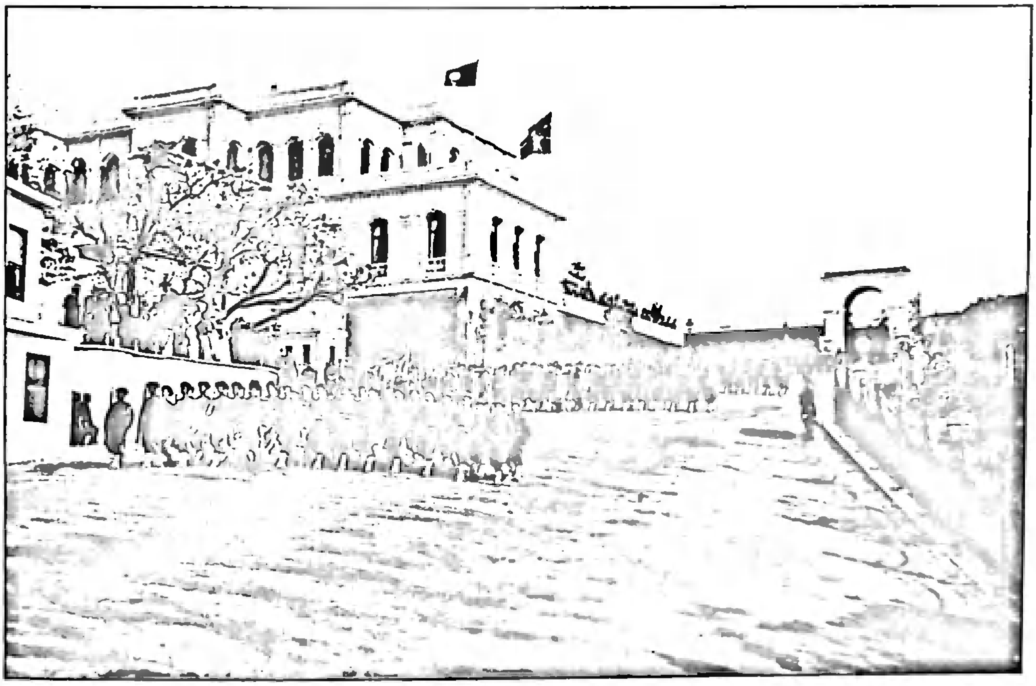


▲ مكتبة قصر يلدز

ولا أتذكر أن الأستاذ ـ خلال توليه وظيفة إدارة مكتبة قصر يلدز ـ قد أتى على شيء ذي علاقة بالسلطان عبد الحميد، فلم يتحدث عن زيارة السلطان للمكتبة أو لقائه بالسلطان.



▲ قصر وجامع يلدز بين عامَي ١٨٨٠ ـ ١٩٠٠



▲ السلام العسكري أمام قصر يلدز بين عامي ١٨٧٠ ـ ١٨٨٠



▲ قصر يلدز عام ١٩٢٢

❁ مصطفى صبري أفندي وانبهاره بأداء القارئ سامي أفندي[١]:

كان يحرص مصطفى صبري أفندي أيامَ الجمعة على زيارة تكية (كلامي دَرْكاه) النقشبندية بصحبة بعض علماء إستانبول مثل حمدي يازر أفندي وعاصم أفندي وزين العابدين أفندي، فيحضرون مجلس الذكر النقشبندي (ختم الخواجكان) الذي يقيمه الشيخُ محمد أسعد أربيلي[٢]، حيث كان يغصُّ المجلس بأهل العلم من المفتين والمدرِّسين والقُرّاء والصوفية، وكان يُختم المجلس بتلاوة طويلة من القرآن الكريم يعطِّر بها سامي أفندي أجواء المجلس ويُفيض عليه نفحاتٍ علوية تسمو بأرواح السامعين إلى عوالمَ قدسية، فتفيض المآقي وتسيل، وتتأوَّه الأفئدة وتحترق، حتى إنّ بعض الحاضرين كان لا يملك نفسَه، فتندُّ عنه استغاثاتُ مُضْطرٍّ قد ارتمى على أعتاب ربِّه الرحيم، فيناديه باكيًا: يا أرحم الراحمين، يا أرحم الراحمين.

وكثيرًا ما كان صبري أفندي بعد هجرته إلى القاهرة يستعيد ذكرى القارئ سامي أفندي، ويُثني على إتقان أدائه وجمال صوته، وما إن يسمع صوتًا عذبًا في تلاوة القرآن الكريم إلّا ويقارنه بصوت القارئ سامي أفندي، وكان مما رواه لنا من ذكرياته مع سامي أفندي الحادثة الآتية:

---

(١) أورد علي علوي هذه القصة في موضع آخر من مذكراته (٤: ٨٥، ١٧١).

(٢) محمد أسعد أربيلي(١٨٤٧-١٩٣١): ولد في أربيل، وكان جده من خلفاء خالد البغدادي فيها، طلب العلم منذ صغره وفي شبابه أخذ الطريقة النقشبندية عن طه الحريري، ولازمه حتى خلفه في مشيخة الطريقة، ثم انتقل إلى استانبول فكان من ألمع شعراء الصوفية وشيوخهم فيها، وكان يدرس ديوان حافظ في جامع الفاتح، وتسلم مشيخة تكية (كلامي دركاه) والتي كانت قائمة بجانب المقر الحالي لوالي استانبول، ولكن ما لبث أن نفاه السلطان عبد الحميد الثاني إلى بلده أربيل، فبقي فيها إلى أن عُزل السلطان عبد الحميد عن العرش فرجع إلى استانبول وصار عضوا في البرلمان، وتسلم رئاسة مجلس المشايخ المسؤول عن شؤون الطرق الصوفية في الدولة العثمانية، واستمر في نشاطه الصوفي إلى أن صدر قرار مصطفى كمال بإغلاق كل التكايا والزوايا ومنع الطرق الصوفية ومظاهرها، فاعتزل يربي المريدين في بيته، وفي عام ١٩٣٠ لفقت له حكومة الجمهورية تهمة التخطيط لاغتيال مصطفى كمال، فحُكِم عليه بالإعدام مع ابنه وعدد من خلفائه. انظر حسن كامل يلماز، مادة أسعد أفندي، موسوعة شؤون الديانة التركية، ٣٤٨/١١.

صبري أفندي ومفتي رومانيا العام

عندما أقمت في رومانيا هربًا من ظلم الاتحاديِّين وملاحقتهم كان للمفتي صالح أفندي أيادٍ بيضاء كثيرة عندي، وخاصة في الحرب العالمية الأولى، عندما اعتقلَني الألمان ـ بعد دخولهم رومانيا ـ بطلب من حكومة الاتحاد والترقِّي، وكان المفتي في هذه الفترة يتفقَّدني ويتعهَّدني بالزيارة في السجن، ويأتيني بما أحتاج، ويرعى شؤون عائلتي، ويسعى في قضاء حوائجهم.

وعندما أُطلِق سراحي وتجدَّدَت مجالسنا معه كان يأتي إلى المجلس ببعض الحُفَّاظ فيُسمِعني تلاوتهم، فكنت أهمس في أذنه:

ـ فضيلة المفتي، إن قدَّر الله تعالى ورجَعْنا إلى إستانبول يومًا فسأُسْمِعك تلاوة القارئ سامي أفندي.

مفتي رومانيا العام ضيف شيخ الإسلام في إستانبول:

وتوالت الأيام، وتعاقبت الأحداث، وقَدَّر الله لي الإياب إلى إستانبول، وتولَّيت منصب شيخ الإسلام، فوصَلَني من المفتي صالح أفندي تلغراف يهنِّئني فيه بالوظيفة الجديدة، ويُعْلِمُني بموعد قدومه إلى إستانبول.

فلما شرَّفَنا في إستانبول أقمت في داري مائدة عشاء احتفاءً بقدومه، ودعوت إليها بعض القراء، مثل القارئ سامي أفندي، والحافظ علي أفندي إمام جامع «يارألتي»، والحافظ نجاتي، وقد كان القارئ سامي وحده يَسُدُّ مَسَدَّ الجميع، فإن شئت أن تسمع تلاوة خاشعة أسمعك، وإن تاقَت نفسك

لسماع قصة المولد النبوي شنَّفَ مسامعك، وإن تشوَّقَت نفسك لسماع بعض الأناشيد والابتهالات حلَّق بك في سماء النغم والطرب، فقد كان قادرًا على أداء كل هذا وحده.

وكان من بين المدعوِّين بعض الوزراء وكبار رجال الدولة، وبعض كبار أهل العلم، مثل زين العابدين أفندي، وحمدي إلماليلي أفندي، وعاصم أفندي، ونعيم بك، ومحمد عاكف بك، وغيرهم كثير ممن تشرَّف بهم مجلسُنا الحافل.

وبعد رفع مائدة الطعام صلَّى بنا الحافظ علي صلاة العشاء، فقد كان سامي أفندي مُتعَبًا ويعاني من أعراض مرضٍ ألمَّ به يومها، فتعلَّل بذلك عن إجابة الدعوة، وكانت ليلة شديدة المطر، كأنّ السماء تصب ماءها على الأرض صبًّا، فلما رأى الحضور غياب سامي أفندي طلبوا من علي أفندي أن يتلو عَشْرًا من القرآن الكريم عَقِب الصلاة، فأخذ يقرأ من سورة يوسف، وإذ بالباب يُطرَق، فلما فُتح كان سامي أفندي يقف بالباب وقد أصابه المطر حتى بلّ ثيابه، ووقع في أثناء قدومه فغاصَ في طين الطريق ووحله، على كلٍّ، لما رأيناه على هذه الحال أعطيناه ملابس نظيفة، فغيَّر ملابسه، واتخذ له مكانًا في المجلس إلى جانب المدفأة ليسري الدفء في أوصاله، فلما رآه الحافظ علي قطع تلاوته، وقدَّمه مكانه، فتابَع سامي أفندي تلاوة علي أفندي عند قوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠]، وأخذ يتلو تلاوة حلَّقَت بالحاضرين إلى عالم روحاني بعيدًا عن هذه الدنيا وكل ما فيها، وأشعل بأدائه قلوب السامعين، وأسال مآقِيَهم، واستلّ تأوُّهاتهم، ولم تَمضِ على قراءته إلا بضع آيات حتى مال المفتي صالح أفندي عليَّ يهمس في أذني:

ـ ما هذا الصوت يا فضيلة أستاذنا؟ أهذا صوت رجل مريض! ما شاء الله، والله إنه أُوتِيَ مزمارًا من مزامير داود، صوته قد ألهب فؤادي، ولامَسَ أوتار قلبي، وأخذ عليَّ مجامع نفسي، والله لولا حُرمة الحاضرين لأطفأت نيران قلبي بالصراخ والعويل، أكاد أفقد عقلي، فكيف لهذا الرجل أن يحتمل سِحر صوته كلَّ هذا العمر؟! لو كنت مكانه لغِبتُ عن نفسي وسَكِرتُ عن الدنيا بأسْرِها.

❊ ❊ ❊

أبٌ للطلبة

كان مصطفى صبري أفندي يتصرَّف معنا ـ نحن الطلبةَ ـ في منتهى اللُّطف والرِّقة، ويُولينا كلَّ اهتمامه وعنايته، ويُظهِر لنا من الودِّ والاحترام ما لا يَنضُب مَعِينه ولا يَغُور ماؤه، ولا يفتأ يدعونا مرارًا وتكرارًا إلى زيارته، فكلما زُرناه قال لنا في ختام الزيارة:

ـ أنتظركم، لا تُطيلوا الغياب عني.

فجَعَلَنا ذلك نحمل له في نفوسنا عميق الحب وبالغ الإعجاب.

كانت أيام الجمعة عطلة في مدرستنا، وكنا نترقَّب أمسيات الخميس بفارغ الصبر، وننتظرها على أحرَّ من الجَمر، وبينما كان زملاؤنا الآخرون يُعِدّون العُدّة للسهر والسَّمَر على ضفاف نهر النيل، وفي ظلال حدائقه الغَنّاء، ويدعوننا لمرافقتهم، كنا نحن نرد بقلوب تفيض شغفًا وترقُّبًا:

ـ سنزور صبري أفندي، ونستمع إلى حديثه، وننهل من مَعِينه.

ومع تقدُّم سِنِّه وكمال شخصيته وعلوِّ كعبه في العلم والأدب، فإنه كان يتحدث معنا بصدق وعفوية، ويحلِّق بنا في عوالم الشعر والأدب واللغة والعلم والذكريات، إضافة إلى أن تواضُعه في التعامل وتبسُّطَه في الحديث وحسن استقباله لنا كان يُسهِّل علينا كثرة الترداد عليه والزيارة له.

الصلوات في القاهرة[١]:

عندما نكون في مجلس الشيخ ويَحِين وقت صلاة المغرب أو العشاء كان يطلب مني أو من مصطفى رُنيون أن نرفع الأذان، ثم يقوم الشيخ فيؤُمُّنا في الصلاة.

وذات مرة توجَّه إليَّ عقب الصلاة، وسألني:

- عليَّنا الصغير، هل تعرف بأي مقام قرأتُ في الصلاة؟

- غالبًا مقام الحسيني يا سيدي.

- ما شاء الله، ما شاء الله، من الواضح أن أيامك في تكية المولوية قد أفادتك كثيرًا، إنه لمَدعاة للإعجاب والثناء أن يعرف شابٌّ مثلُك قد فارَقَ وطنه في سن صغيرة المقام الذي يسمعه.

المقام الحسيني:

وعلَّق عندئذ أستاذنا الشيخ مصطفى صبري أفندي على مقام الحسيني في علم الموسيقى تعليقًا مهمًّا لا أنساه أبدًا، حيث قال:

- يا أبنائي، مقام الحسيني مقام تركي بامتياز، فعندما يَطْرُقَ هذا المقام سمعَكم تتداعى أمام عيونكم كروم الأناضول المبعثَرة، وجبالها وقد عَلَتها سُحب الدخان، وسهولها الصماء الخاوية.

وما إن قال فضيلته هذه الكلمات حتى ساد الصمت، وعمَّنا جميعًا سحابةٌ من الحزن والكآبة، فتجرَّأت وقلت:

---

(١) أورد علي علوي هذه الفقرة في موضع آخر من المذكرات (٤: ١٠١).

- لا بد يا سيدي أنّ ابنكم إبراهيم أفندي قد نظم قصيدته «فيضان النيل» وهو يستمع إلى هذا المقام، فعندما يصوِّر ارتفاع مستوى نهر النيل وسقيه لأراضي مصر على ضفتَيه فكأنما تراءت له من البُعد أراضي الأناضول.

ثم قرأت أذكار ما بعد الصلاة وعشرًا من القرآن بمقام الحسيني، وقلت للأستاذ:

- يا سيدي، إن القارئ سعد الدين بك له بعض الألحان بمقام الحسيني أيضًا، فقال الأستاذ:

- هاتِ، أسمِعنا.

قصيدة محشر:

كانت أُلفة مصطفى صبري أفندي مع الشعر وصُحبته له وثيقة عميقة، ولا عجب، فقد كان هو نفسه شاعرًا، نظم بعض القصائد التي وصف فيها غُربته، وما عاناه فيها من شدائد ومِحَن، وقد نُشِرت بعض قصائده السابقة في مجلة «بيان الحق»، ولعلَّ من أجمل شعره قصيدةً تسمى «المحشر»[1].

فضلًا عن أنّ الأستاذ صبري أفندي كان حافظًا مجوِّدًا للشعر، يحفظ آلاف الأبيات منه، ويُتقن فنَّ العَروض إتقانًا تامًّا، ولما كان بعض زملائنا الذين لا يعرفون العَروض يقرؤون الشعر فيُخطئون فيه، كان فضيلته يكتفي بالتبسُّم، ويُحجِم تَلطُّفًا عن تصحيح أخطائهم، ثم يطلب مني قراءة القصيدة مرة أخرى، ويقول:

- عزيزي، إن الشعر لا يُسمع إلا من شاعر.

---

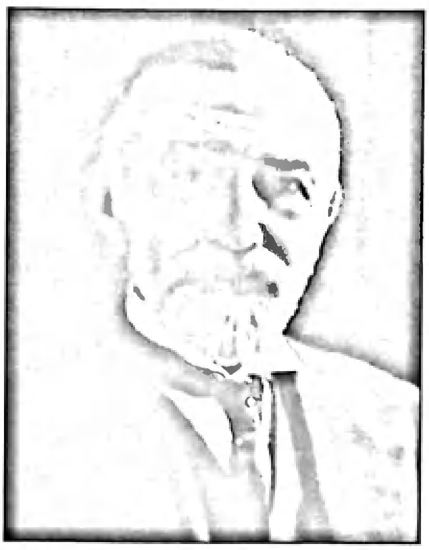
(١) أورد علي علوي في مذكراته قصدتين للشيخ مصطفى صبري أفندي، الأولى يهاجم فيها الاتحاديين، والثانية يرثي فيها أحمد نعيم بابان زاده أفندي.

سخطه على عبد الحق حامد(١)

وكان مصطفى صبري أفندي واسع الاطلاع، كثير القراءة لأشعار كبار الشعراء



▲ عبد الحق حامد في أيام شبابه



▲ عبد الحق حامد

(١) عبد الحق حامد طرخان (١٨٥٢ ـ ١٩٣٧) شاعر وكاتب مسرحي تركي، يُعَدُّ من الجيل الثاني الذي ظهر في فترة التجديد الأدبي التي أعقبت عصر التنظيمات في القرن التاسع عشر، وُلد في إستانبول لعائلة علمية، وإلى جانب التحاقه بالتعليم الرسمي تلقى بعض العلوم على علماء إستانبول، وبدأ بقراءة الشعر في سن مبكرة، سافر إلى فرنسا وتعلّم اللغة الفرنسية، ثم سافر مع والده الذي عُيّن سفيرًا في طهران، ثم رجع إلى إستانبول، وترقى في سلك الوظائف الحكومية، وعُيّن قنصلًا في الهند، ثم أمينًا عامًا لسفارة الدولة العثمانية في لندن، وكان لإقامته فيها أثر واضح على أدبه وفنه، فنشر أعمالًا أدّت إلى عزله من منصبه، ثم أُعيد إليه بتوسط بعض معارفه، فتوقف عن نشر الشعر بعدها إلى عزل السلطان عبد الحميد، حيث بدأ ينشر قصائد تعبر عن توجُّهه الجديد، وعُين عضوًا في البرلمان، ثم في فترة مصطفى كمال عُين نائبًا في البرلمان عن مدينة إستانبول إلى وفاته. انظر: إنجي إنجين أون، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة عبد الحق حامد طرخان (١: ٢٠٧).

المتقدِّمين، مثــل فضولي[١]، ونائلــي قديم[٢]، ومعلم ناجــي[٣]، وأما من الشعراء المعاصرين فكان يُقدِّر ويُعجَب بكثير من قصائد عبد الحق حامد، ولكنه يقول عنه:

ـ لم يكن رجلًا، بل لم يكن إنسانًا حتى.

---

(١) فضولــي (ت ٩٦٣ ـ ١٥٥٦)، أحد أكبر شــعراء الأدب العثماني الكلاسـيكي، اسـمه محمد بن سليمان، ولقبه الشعري المستعار فضولي، واختاره حتى لا يشاركه فيه أحد غيره من الشــعراء؛ لما في اللقب من معنًى سلبي عادةً، لا تُسعفنا المصادر بمعلومات كثيرة عن حياته، إلا أنها تتّفق على ولادته في جوار مدينة بغداد، ويغلب على الظن أنه وُلد في كربلاء لعائلة شـيعية تركية، بينما اسـتدل بعض الباحثين على سُـنِّيته، أتقن العربية والفارسية، وكتب بهما بعض القصائد، وعاش في ظل حكم الصفويين للعراق ومدحهم، ثم عاش في ظل حكم العثمانيين للعــراق وتقرّب منهم، وتُوفِّي في كربلاء بســبب وباء الطاعون الذي انتشــر في بغداد وجوارهــا. انظر: عبد القــادر قره خان، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة فضولي (١٣: ٢٤٠).

(٢) نائلي قديم (ت ١٠٧٧ ـ ١٦٦٦) أحد مشاهير شعراء الأدب التركي الكلاسيكي، وُلد في إستانبول، واســمه مصطفى، ولُقب بنائلي القديم تمييزًا له عن نائلي المانســتيري في القرن التاسع عشر. انظر: عائشة جول يشيل أوغلو، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة نائلي (٣٢: ٣١٥).

(٣) معلم ناجي (١٨٤٩ ـ ١٨٩٣) شاعر وناقد أدبي، عُرف بأعماله المشهورة في اللغة وتاريخ الأدب، وكان يُعَدُّ أحد أعلام الأدب التركي الكلاسيكي والداعين للتمسك به وإحيائه بعد عصر التنظيمات، هو عمر بن علي بك الســراج، وُلد في إستانبول لعائلة مهاجرة من فارنا، تلقّى تعليمه الابتدائي فــي حي الفاتح، إضافة لتعلُّم الخــط واللغة العربية والفارســية، ثم عاد إلى فارنا، وبدأ بكتابة الشــعر، واتخذ لقب «ناجي» لقبًا شــعريًا مســتعارًا له، ولكنه مع بداية الحرب العثمانية الروســية رجع إلى إســتانبول، وصار سكرتيرًا شخصيًا لسعيد باشا الكردي، وتنقَّل معه في مدن كثيرة مثل حلب وديار بكر وطرابزون وســيواس، وكان ينشــر قصائده في هذه الفترة فــي الصحف والمجلات، ودرَّس الأدب التركي واللغة الفارســية في المدارس الحكومة العالية، وكلَّفه السلطان عبد الحميد الثاني بكتابة تاريخ آل عثمان، وتفرَّغ له إلى وفاته. انظر: عبد الله أوجمان، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة معلم ناجي (٣٠: ٣١٣).


الشاعر معلم ناجي

وقد بلغ من حَنَقِه عليه أن قال ذات مرة:

ـ لقد رأيت في حامد ضَعفًا وذِلّةً لا تليق بسمعته، فكتبت مقالة أخاطبه فيها، لكن إلماليلي حمدي أفندي منع نشرها متذرِّعًا بقسوة لغتها، وقال لي: يا سيدي، لقد أغلَظتُم له القول، وأسرفتم في النقد، فرأيت من الأفضل ألّا تُنشر هذه المقالة.

ومما قلت لحامد في هذه المقالة:

تزعمون أن علائق وثيقة من الصداقة والمحبة تربطكم بكمال بك، أما والله لو كان كمال بك حيًّا وعايَنَ ذِلَّتَكم وخساسة نفسكم لما وَسِعَه إلّا أن يَبصُق في وجهكم، ولئن لم يفعل لبَصَقتُ أنا في وجهه، لقد أفاض عليكم الخَلْقُ لقب (شاعرنا الأعظم)، ولكنكم في شعركم الذي بلغ بكم هذا المقام السامي تمدحون وتتزلّفون لأشخاص لا همَّ لهم إلا تحقير وإهانة وتشويه أحفاد السلطان محمد الفاتح، فهل هذا يَلِيق بإنسان كريم؟ إنّ مما يرتقي بالإنسان إلى مدارج الإنسانية خصلتَين اثنتَين؛ الوفاء والشجاعة، وأنتم بفعلتكم هذه تهبطون عن مقام الإنسانية، وتغيبون في مَهاوِي الذِّلّة والخنوع بتمجيدكم مَن لا يعرف فضل أجدادنا العظماء، ولا يُقدِّر مكانتهم.

وقد كتب مصطفى صبري أفندي هذا المقال بعد أن مدح عبدُ الحق حامد في شعره الاتحاديين، وأسرف في الثناء عليهم، حتى بلغ بهم أجوازَ

السماء، ويبدو أنه وقف أيضًا على بعض جوانب ضعف حامد الأخلاقية، ولكن الأستاذ بدايةً لم يكشف عن كل التفاصيل التي دفعته لكتابة هذه المقالة، إلا أنه قال لاحقًا:

إن حامدًا لم يكتفِ بالمبالغة في مدح الاتحاديين، بل تَذلّل وتزلّف لمصطفى كمال في شعره، وأسرف في مدحه وتعظيمه.

* * *

عن توفيق فكـرت


▲ توفيق فكرت

وكان مصطفى صبـري أفندي يحب قصائد توفيق فكـرت[1] التي هاجم فيها الاتحاديين، ويتغنَّى في قراءتها، ويَطرَب لها أيَّما طرب، وكان إبراهيم صبري بك أيضًا يذكرها ويحبها كثيرًا، حتى إنه على

(١) محمد توفيق فكرت بن حسين (١٨٦٧ ـ ١٩١٥) من شعراء مدرسة الأدب التركي الجديد، وُلد في إستانبول لأب يعمل في السلك الدبلوماسي، درس الثانوية في مدرسة غلطة سراي السلطانية، وأثرت على توجهاته الفكرية لاحقًا، وظهرت موهبته في الأدب والشعر، وبعد تخرُّجه بدأ العمل في رئاسة الوزراء (الباب العالي)، ثم عمل في تدريس اللغة الفرنسية والتركية والخط، ثم استلم تحرير مجلة ثروة الفنون الأدبية التي كانت من أشهر المجلات في تلك الفترة، وأخذ مع مجموعة من الأدباء تشكيل تيار أدبي جديد في الأدب التركي، ونشروا نتاجهم الأدبي في هذه المجلة، وانتقد فكرت سياسة السلطان عبد الحميد الثاني، حتى إنه أشاد بالأرمن الذين حاولوا اغتيال السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٦، وعانى مصاعب كثيرة في فترة حكمه، ولم يلبث بعد إعلان المشروطية الثانية أن أشاد بالعهد الجديد، فعرضت عليه جمعيةُ الاتحاد والترقي تعيينه وزيرًا للمعارف ولكنه رفض، وصار مدير مدرسة غلطة سراي السلطانية، ودرَّس في دار الفنون ودار المعلمين، ولكنه لم يلبث أن اعتزل كلَّ وظائفه ورجع إلى التدريس في كلية روبرت، وأخذ يكتب أشعارًا كثيرة في نقد الاتحاديين وسياستهم، وعارض دخولهم الحرب العالمية الأولى، وهاجمه الشاعرُ الوطني محمد عاكف بعد نشره لقصائد يعلن فيها إلحاده ومعارضته لجميع الأديان، توفي متأثرًا بمرض السكر. انظر: عبد الله أوجمان، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة توفيق فكرت (٤١: ٩).

تعصُّبه ومحبته لمحمد عاكـف[1] أضاف هذه القصائد إلى رسـالته التي كتبها في النقد الأدبي، فالأب والابن كانا يُكثِران من ذِكر توفيق فكرت؛ لجُرأته وموقفـه المعارض للاتحاديـين، مع انتقادهم لإلحـاده وأفكاره وأسلوب حياته.

وكان صبري أفندي يصف إلحاد فكرت بقوله:

ـ قد ابتُلِي فِكرت بالبلاء الذي أصاب رشاشُـه متنوِّري العصر الحديث، ولكنّ الفرق أن معظم هؤلاء المتنوِّرين كان يُضمِـر إلحادَه، أما فِكرت فكان رجلًا حُرًّا جريئًا، لا يفيض لسـانُه إلا بما يُضمِره قلبُه، وكما قال ضياء باشا: «صلبان الآخرين كانت مخفيةً تحت آباطهم»، إذ يقول في بعض شعره:

لا تنتظر الوفاء من أي شخص منافق..

فكثير من الحجاج كان يُخفِي صليبًا تحت إبطه.

ففي ذلك العصر كان جميع المتنوِّرين ـ باستثناء قلة قليلة ـ يُخفون من الأفكار مثل التي كان يجاهِر بها فكرت.

عزيزي، أكرِّر هذه الآية في كل مناسبة، ففيها تتجلَّى عظمة الله وجماله وكماله الذي لا يَخفَى إلّا على مَن غابت بصيرته وغار عقله:

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٠ ـ ٣٢].

---

(١) وقد كان بين عاكف وتوفيق سجالات وخصومات، وكان عاكف يسخر منه في شعره وينبزه ببعض الألقاب.

أسِفت على فكرت كثيرًا:

إن الإنســـان ليتألم على حال مثـــل هؤلاء، لم أجتمـــع بفِكرت، ولكني سمعت أنه كان رسّامًا يعشق الجمال في الصورة والصوت والكلمة، ولذلك كان يأنَس بالطبيعة كثيرًا.

وليس ثمة فرق بين فِكرت والاتحاديِّين في مسألة الإيمان، فجميعهم كانوا غير آبِهين بالدين، كانوا أناسًـــا لا يحتل الدين فـــي أولويات حياتهم أكثر من المرتبة الثالثة أو الخامسة، ولكن فِكرَت على توافُقه مع أصدقائه في الإلحاد فإنه عارضهم وجاهدهم؛ لطبيعته التي كانت تنفـــر من الظلم وتكرهه، ولكن الكارثة الحقيقية والبلاء الأعظم إنما ينتج من الإلحاد الذي يأتي على كل خير في نفس الإنسان فيذَرُه قاعًا صفصفًا.

لا تذهبوا بعيدًا، كنا نظن أن الإلحاد ـ أو ما نســـميه الفلســـفة الوضعية والمادية ـ كانت تُحكِم خناقها على بلادنا فقط، إلا أني عاينت البلاء نفســـه في مصر أيضًا، البلد الذي يتحدث أهله بلغة القرآن، وينشـــرون نوره للعالم بأسره، وفيه الأزهر قلعة الإسلام، الذي يَبُثُّ نور العلم في كل بقعة من عالمنا الإســـلامي، ففي مثل هذا المكان يصعُب على المرء أن يصدِّق اعتناق بعض الشباب للفلســـفة الوضعية، ورفعهم للكفر والإلحاد رايات ورايات، ولكنها الحقيقة للأسف!

شعر رضا توفيق[1]

وذات مرة قرأت قصيدة رضا توفيق التي يخاطب فيها السلطان عبد الحميد الثاني بعد وفاته، ويَبُثُّه شكواه مما آلَت إليه حال البلاد بعده، ويتحسَّر على أيام حُكمه حين كان يضبط إيقاع البلاد وفق نظام مُحكَم، فقال الشيخ:

ـ إن من الشعر لسِحرًا، والله يا بني ينبغي على كل طالب علم أن يُتقِن الشعر، فموسيقاه جميلة، وعَروضه ميزان، تُعلِّم الإنسان كيف يقرأ، وأنت ـ ما شاء الله ـ تقرأ الشعر قراءة شاعر مُتقِن، فإلقاء الشعر لا يتقنه كلُّ أحد، إن لرضا توفيق من جودة النظم ودقة التعبير وروعة التلميح ما لعاكف.

وكان مما قرأت عليه من القصيدة:

ها قد انفرطَت حَبّات العِقد، فقد نظمناها في خيط وهى

لستَ أنت المجنون أيها السلطان، بل نحن من غَيَّبْنا عقلَنا

ولسنا معتوهين فحسب، بل أناسٌ غار فيهم الأدب

بَصَقْنا في قِبلة أجدادنا، واستدبرناها بدل أن نستقبلها

فعلَّق صبري أفندي:

ـ هذا هو الشعر وإلا فلا، خيالٌ يُفضِي إلى خيال، ومعانٍ يأخذ بعضها برقاب بعض، كأنه شيء من السحر، يفيض حُبًا، ويأخذ بلُبِّ الرجل العاقل.

---

(١) أورد علي علوي هذه الفقرة في موضع آخر من ذكرياته (٤: ١٨٦).

ذو الإحسان المؤيد[1]:

أنشدت مرةً قصيدة الشاعر المشهور شيخ غالب[2] في مجلسٍ ضمَّ بعض الشعراء العرب عندما كنت في مصر، وذات مرة أنشدتها بحضرة أستاذنا الشيخ مصطفى صبري أفندي:

يا سيدي يا رسول الله، أنت سلطان الرسل، السيد الممجَّد
يا سيدي يا رسول الله، أنت الملاذ لمن ضاقت به السبل
يا سيدي يا رسول الله، أنت المؤيَّد بالقسم الإلهي (لعمرك)
يا سيدي يا رسول الله، أنت من يتقدم الخلق جميعًا في حضرة الله
يا سيدي يا رسول الله، أنت أحمد، ومحمود، ومحمد
يا سيدي يا رسول الله، أنت لنا من الحق تعالى السلطان المؤيَّد

فعلَّق الأستاذ على قول الشاعر قائلًا:

ـ قد وُفِّق الشاعر أيَّما توفيق، وأصاب كَبِدَ الحق في قوله: «السلطان المؤيَّد»، فهو يقول: يا سيدي يا رسول الله، أنت إمامنا وقدوتنا وسلطاننا

---

(١) أورد علي علوي هذه الفقرة في موضع آخر من مذكراته (٤: ٩٩).

(٢) شيخ غالب (١٧٥٧ ـ ١٧٩٩) من كبار شعراء الشعر التركي الكلاسيكي في القرن الثامن عشر، وُلد في إستانبول لعائلة تنتسب للطريقة المولوية، وسمّاه شيخ التكية المولوية محمد أسعد، وقد تلقَّى تعليمه الأوَّلي على رجال من الطريقة المولوية، فدرس العربية والفارسية، وقرأ الشعر والأدب منذ صغره، ثم ذهب إلى قونية لدخول الخلوة المولوية في التكية المركزية، ثم عاد إلى تكية المولوية في يني كابي وتولى مشيختها، ثم مشيخة تكية غلطة المولوية، وتوفي مبكرًا، ودُفن في فناء تكية غلطة المولوية، واشتهر بقصائده الصوفية التي كان لها دور مهم في تطوير الأدب التركي في القرن الثامن عشر. انظر: محمد محسن كالكيشيم، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة شيخ غالب (٣٩: ٥٤).

المؤيَّد من الحق جلَّ وعلا، أنت يا رسول الله المسدَّد بقوة الله تعالى ومَدَدِه، فهل يُهزَم مَن أمدَّه الله بمعونته؟ أبدًا، وأنت يا سيدي يا رسول الله لا تُهزم أبدًا، وكذلك دعوتُك المؤيَّدة من الله تعالى لم تُهزَم ولن تُهزَم، ولو تكالَبَت عليها جيوش الكفر وجحافل الظلام، لماذا؟ لأنك يا سيدي يا رسول الله السلطان الذي تجلَّت فيه صفة الله تعالى الناصر الغالب على أمره.

ثم تابَعَ الأستاذ قوله:

ـ ولَيتَه أضاف إليها (ذو الإحسان المؤبَّد)، فالنبي ﷺ مَظهَر كرمِ الله تعالى اللامتناهي، وإحسانه ولطفه وإعزازه على الخلق أجمعين.

❁ اتركه، فلعلَّه ممن ينصر هذا الدين بشِعره[1]:

عندما نشرت أول قصيدة لي في مجلة علي كمال بك، أخذ مصطفى رُنيون أول نسخة خرجت من المجلة، وقدَّمَها لطاهر بك المولوي، وقال:

ـ أستاذي، وصلَت إلى يدي قصيدة، وكأنها قصيدة هرَبَت من العصور السالفة، فلا أكاد أرى شعرًا كهذا يُكتَب في هذه الفترة.

فقرأها طاهر المولوي:

ـ هذا أسلوب محمد عاكف!

فقال مصطفى رُنيون:

ـ أستاذي، كاتب هذه القصيدة كان صديقي في أيام الدراسة بالأزهر الشريف، ولشدة عشقه للأدب وانشغاله به شكوتُه مرةً إلى شيخ الإسلام مصطفى صبري، فسألَني:

---

(١) أورد علي علوي هذه الفقرة في موضع آخر من المذكرات (٤: ٣٥٧).

ـ «هل يُضيِّع وقته ويُمضِيه دون فائدة؟».

فقلت له: أستغفر الله أســتاذي، لم أُرِد هذا، ولكنه لا يفتَأ يُجِيل نظره في دواوين الشعر، فأجابني شيخ الإسلام:

ـ «إذن، دعه يا رجل، فلعله يكون ممن ينصرون هذا الدين بشِعرهم، انظر إلى محمد عاكف، كيف بكى وأبكى بشــعره، وفعل بشعره ما عجز غيرُه عنه!».



القسم الثاني

مذكرات علي علوي كورجو
مع الشيخ زاهد الكوثري



الإمام محمد زاهد الكوثري
(١٨٧٩ ـ ١٩٥٢م)

زاهد بن حسن بن علي الكوثري (١٨٧٩ - ١٩٥٢)[(١)]



وُلِد في ١٦ـ ٠٩ ـ ١٨٧٩ في قرية حاج حسن (اسمها الحالي: كاراشالي) في مدينة دُوزجَه، لأسرة ذات أصول شركسية، حيث وُلِد أبوه في مدينة شـيبزر في القوقاز سنة ١٨٢٩، وكان مدرسًا في مدينتـه، إلا أنه اضطـرَّ للهجرة مـع طلابه بعد اسـتيلاء روسيا على القوقاز عام ١٨٦٣، وبنى قرية جنوبي دُوزجَه سُـمِّيت باسـمه، وانتسب لشيخ الطريقة النقشـبندية الشيخ دولت، وخلَفَه في مشيخة الطريقة عام ١٨٦٥، وفي عام ١٨٦٧ أنشأ مدرسة في القرية، وبدأ يُدرِّس فيها العلوم الشرعية.

وفي عـام ١٨٧٠ سـافر إلى إسـتانبول، وحضـر مجالس ضيـاء الدين الكُموشْخانَوي، وأخذ إجازة منه في كتاب دلائل الخيرات، وفي العام التالي قصد الحجاز حاجًا، ولَزِم شـيخ الطريقة النقشبندية الشـيخ موسى المكي، وأجازه بخلافته.

وفي عام ١٨٨٥ بنى وُجَهاء مدينة دُوزجَه مدرسـة كبيـرة في المدينة، فطلبوه للتدريس فيها، فانتقل من قريته إلى المدينة، واشتغل بتدريس الطلبة

---

(١) نقلًا عن موسوعة شؤون الديانة التركية باختصار، يوسف شوقي يافوز، مادة زاهد الكوثري، موسوعة شؤون الديانة (٤٤: ٧٧).

في المدرسة الجديدة، وفي عام ١٨٨٧ دخل الخلوة النقشبندية في تكية ضياء الدين الكُموشْخانَوي، وخلَفَه في مشيخة الطريقة، ثم رجع إلى مدينته دُوزجَه، ولزم مدرسته يعلِّم الطلبة ويُسَلِّكهم في الطريقة النقشبندية حتى وفاته سنة ١٩٢٦.

وفي هذا البيت العلمي الصوفي نشأ العلامة زاهد، فدرس على أبيه وبعض علماء المنطقة، مثل المفتي حسين وجيه أفندي الأسكوبلي، ثم انتقل عام ١٨٩٣ إلى إستانبول، وتابع تحصيله العلمي في مدرسة دار الحديث التي أنشأها قاضي العسكر حسن أفندي، وتلقّى دروسًا في اللغة العربية وآدابها على عمه موسى كاظم، إضافةً إلى حضوره دروس بعض علماء جامع الفاتح، مثل يوسف ضياء الدين أفندي، وإسماعيل زهدي أفندي الشكمجه لي، وخليل أفندي الكارين آبادي، وعلي رضا فكري أفندي، ومحمد أسعد دده، وعلي زين العابدين أفندي الألصوني، وإبراهيم حقي أفندي، وكان للأخيرَين الأثر الأوضح في تشكُّل شخصيته العلمية كما صرَّح هو نفسه، وإضافةً إلى تحصيله العلمي انتسب إلى صديق والده وأحد خلفاء ضياء الدين الكموشْخانَوي الشيخ حسن حلمي القسطموني، وأخذ عنه الطريقة النقشبندية وسلك فيها.

اجتاز الامتحان العلمي عام ١٩٠٦، فعُيِّن في وظيفة مدرس عام في جامع الفاتح، وعضوًا في لجنة إصلاح المدارس التي كان له دور مهم فيها لاستصدار قرارات جريئة تتعلّق بالتعليم، وذلك مع معارضته الشديدة لجمعية الاتحاد والترقي، وفي عام ١٩١٣ اجتاز امتحان العالِمية (امتحان الرؤوس)، الذي أهَّله لتدريس الفقه في دار الفنون، إلا أن معارضته للاتحاد والترقي حالت دون حصوله على المنصب، وأرسلَته الحكومة إلى مدينة قاسطمونو للتدريس في مدرسة افتُتِحَت حديثًا، وأقام فيها ثلاث سنوات،

رجع بعدها إلى إستانبول، ونجا في طريق عودته من الموت إثر غرق السفينة التي كان يركبها.

عُيِّن في إستانبول مدرسًا في دار الشفقة، ثم أستاذًا في مدرسة المتخصِّصين بالسليمانية، وفي ١٥ ـ ٠٨ ـ ١٩١٩ عُيِّن وكيل درس شيخ الإسلام، ثم أُبعِد عن الوظيفة؛ لموقفه المعارض ضد جمعية يترأسها الصدر الأعظم أحمد توفيق باشا، التي كانت تسعى في هدم مدرسة السلطان مصطفى الثالث.

ظلَّ إلى نهاية حياته على موقفه المعارض لجمعية الاتحاد والترقي وكل أعضائها، الذين احتلوا مناصب هامة في الدولة والسياسة، ولذلك صدرت مذكرة اعتقال في حقه عام ١٩٢٢، اضطر بعد أن وصله خبرها للسفر مباشرةً دون إخبار عائلته، وركب السفينة إلى الإسكندرية، ثم انتقل منها إلى القاهرة، ثم بيروت، ثم دمشق، وأقام في دمشق عام ١٩٢٣ يدرس مخطوطات المكتبة الظاهرية، ثم عاد إلى القاهرة عام ١٩٢٦، والتقى بعلمائها، وحصل على إجازات من كثيرين، مثل الدجوي، وأحمد رافع الطهطاوي، وكذلك حصل على إجازة من المحدِّث المشهور جعفر الكتاني.

عمل في دار المحفوظات المصرية مترجِمًا، ثم أحضر عائلته من إستانبول، وقد كان تُوفِّي ابنٌ وابنة له في إستانبول، فقَدِمت زوجته مع ابنتَيه إلى القاهرة، وتوفيت ابنته سنيحة عام ١٩٣٤، ثم توفيت ابنته مليحة عام ١٩٤٧.

كانت فترة وجوده في القاهرة غنية بالنفع والإفادة، واجتمع حوله كثير من الطلبة من كل الجنسيات، كان منهم عبد الفتاح أبو غدة، وعبد الحميد الكتبي المصري، وأحمد أفانج حسين، وأحمد خيري باشا، ومحمد رشاد عبد المطلب، وأبو الفضل بن الصديق، وعلي علوي كورجو، ومصطفى زُنيون، ومحمد إحسان أفندي، وغيرهم كثير.



▲ صورة الشيخ زاهد الكوثري بصحبة تلميذه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة

وكان يأمل في العودة إلى إستانبول بعد وصول عدنان مندريس للحكم[١]، إلّا أن اشتداد المرض به حالَ بينه وبين تحقيق رغبته في العودة إلى الوطن، فتُوفِّي في القاهرة في ١١ ـ ٠٨ ـ ١٩٥٢، فعادت زوجته بعد وفاته إلى تركيا، وتوفيت فيها بعد خمس سنوات.

وترك الأستاذ زاهد الكوثري آثارًا كثيرة، نذكر منها:

ـ «إرغام المريد في شرح النظم العتيد لتوسل المريد برجال الطريقة النقشبندية الخالدية الضيائية»، ودافع فيه عن رجال سلسلة الطريقة النقشبندية الخالدية التي انتسب لها، وقد طبع الكتاب في إستانبول عام ١٣٢٨.

ـ «تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب»، ردَّ فيه ما نُسِب إلى الإمام أبي حنيفة من أكاذيب وافتراءات، ودافَع عنه وبيَّن فضله ومكانته الفقهية، طُبع في القاهرة عام ١٩٤٢.

ـ «نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام قبل الآخرة»، ويرُدُّ في هذا الكتاب على الشيخ محمود شلتوت في إنكاره نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض قبل يوم القيامة، وطُبع الكتاب في القاهرة عام ١٩٤٣.

ـ «النكت الطريفة في التحدث عن ردود ابن أبي شيبة على أبي حنيفة»، وردَّ فيه على ابن أبي شيبة في ادِّعائه مخالفة أبي حنيفة الحديثَ الصحيح في ١٢٥ مسألة من مذهبه، طُبع الكتاب في القاهرة عام ١٩٤٦.

---

(١) حيث تولى رئاسة الوزراء بين عامي ١٩٥٠ ـ ١٩٦٠ منهيًا بذلك فترة حكم الحزب الواحد وقمع الحريات، وتنفس الشعب التركي المسلم الصعداء في فترة حكمه التي لم يلبث الجيش أن أنهاها بانقلاب عسكري بذريعة تهديده لعلمانية الدولة التركية.

ـ «الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار»، ويردُّ في الكتاب على مَيل الشـــيخ مصطفى صبري أفندي إلى القول بالجبر المتوسط في مسألة أفعال العباد، وقد طُبع الكتاب في القاهرة عام ١٩٥١.

ـ «مقالات الكوثري»، وقد جمعها بعض طلابه من المجلّات والجرائد التي كان ينشر فيها الشيخ مقالاته الدورية، وطُبع الكتاب عام ١٩٥٢ في القاهرة.

ـ «محق التقوُّل في مسألة التوســل»، وأثبت فيه بالأدلة الشرعية جواز التوسل ومشروعيته، وردَّ على مُنكِريه.

وغيرها من الكتب والرسائل التي نَيَّفَت على الثلاثين، إضافة للمقدمات المهمة التي كتبها لكثير من الكتب.

زاهد الكوثري

من الأساتذة الذين صَحِبناهم ـ مدة إقامتنا في مصر ـ فانتفعنا بتوجيهاتهم وإرشاداتهم، وأفَدنا مما أفاضوه علينا من علوم وأحوال لسنوات مديدة شيخُنا الأستاذ زاهد الكوثري، الذي كثيرًا ما كان يتلطّف ويتنزّل بزياراته إلى غرفتنا المتواضعة في سكن الطلاب، فيُشَرِّفنا بجلوسه معنا، ويبعث في نفوسنا الأُنس والسعادة، وكأنما حِيزَت لنا الدنيا بحذافيرها.

وكثيرًا ما كان يقول لنا هو والشيخ مصطفى صبري أفندي عندما يزورونا في السكن: يا أولادي، إني ما إن أقترب من مكانكم هذا إلا وأشعر بحال روحانية تَهُبُّ نسماتها عليَّ، وتنبعث السكينة والطمأنينة في روحي، فأنتم في هذا المكان مشغولون بطلب العلم، آهٍ، لو عاد بي الزمن إلى مثل سِنِّكم، ورجعت طالبًا مثلكم[1]!

ففي مجالس هؤلاء العظماء كنا دائمًا ما نستشعر أرواحنا تَنهَل من مَعِين أفئدتهم، وتستلهم من فيض هِمَمهم، ونتحسّس أثر دعواتهم وكلماتهم تُلامِس شَغاف قلوبنا، إذ يخاطبوننا:

«يا أيها الفتى التركي، الذي هجرتَ أهلك ووطنك في سبيل تحصيل العلم، جِدَّ واجتهِد، وكن رجلًا جَلْدًا على الأهوال، يتَّخذ الإقدام والصبر رِكابًا في سبيل بلوغ المعالي».

---

(١) ذُكِر هذا الكلام في موضع آخر من ذكريات علي علوي كورجو (٤: ١٧٦).

العلامة العظيم ابن مدينة دوزجه[١]:

كان الشـيخ زاهد الكوثري من أهل مدينة دُوزْجَـه، كما هو معروف، وقد شغل منصب وكيل شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، فكان نائبًا لشيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي، وكان يسمّى صاحب هذا المنصب بـ«درس وكيلي»[٢].

وبعـد هجرة مصطفى صبـري أفندي مـن تركيا، وصُدور قـرار إغلاق المدارس الدينية بموجب قانون التدريس الموحَّد «توحيد تدريسات»[٣]، أدرك الشـيخ زاهد الكوثري أنه لم يَعُد في تركيا أجواء مواتية للعمل أو الكتابة أو التدريس الديني، فاضطر لمغادرة البلاد.



منظر عام لمدينة دوزجه عام ١٩٣٠

---

(١) مدينة تقع في الجبهة الداخلية من منطقة غربي البحر الأسود في تركيا.

(٢) كانت وظيفة وكالة الدرس في المشيخة الإسلامية تُعنى بالإشراف العام الفعلي على شؤون العلم والعلماء. انظر: زاهد الكوثري، التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز ص٦٧.

(٣) علمًا أن هذا القانون صدر بتاريخ ٠٣ ـ ٠٣ ـ ١٩٢٤، ويقضي بتوحيد نظام التعليم في الجمهورية التركية، وإلحاق مختلف المدارس بوزارة المعارف، وإغلاق كل المدارس غير الرسمية ومنها الدينية، وقد ذكرت في الترجمة التي أوردتها آنفًا للشـيخ أن سـفره كان عقب صدور مذكرة اعتقال بحقه، فيبدو ـ والله تعالى أعلم ـ أن التواريخ اختلطت على الأستاذ علي علوي.

بين الشام والقاهرة:

قصد الشيخ زاهد الشام أولًا[1]، لكنه لم يُطِل فيها المُقام، فما لَبِث أن انتقل منها إلى القاهرة، واتخذ له فيها قرارًا، وعندما سُئل عن سبب عدم استقراره في الشام، أجاب:

ـ رأيت في علماء الشام الحرص على العمل والعبادة، والميل للصلاح والتقوى، أما في علماء مصر فكان الاهتمام بالعلم، والتعمُّق فيه، والتبحُّر في مسائله أوضح وأجلى.

ولا غرابة، فقد كان زاهد أفندي عالِمًا نحريرًا، فمن الطبيعي أن يختار مصر على غيرها من المدن، ويجد فيها سَلْوَته ورِيَّه، إلا أنه طوَّف في البلاد، وزار كثيرًا من مكتباتها، واجتهد في الاطلاع على أهم مخطوطات الكتب العلمية، فقد دفعه شَغفُه بالعلم أن يزور روسيا وبيروت وحلب، وغيرها من حواضر الإسلام الكبرى.

فكان في كل مكان يزوره يُدوِّن في دفتره ما يطَّلع عليه من مخطوطات ذات صلة باهتماماته، مع ذِكر مكانها ورقمها.

علمه وقوة ذكائه:

كان رَحِمَهُ اللهُ يتمتَّع بقوة حافظة عجيبة، تبعث على الدهشة والإعجاب، فعندما كُنا نسأله عن كتاب ما يجيبنا جوابًا في غاية الدقة، كأنما يقرأ في كتاب، فيقول: «تجدونه في مكتبة كذا، في مكان كذا».

---

(١) ذكرت في الترجمة التي سقتها للشيخ زاهد آنفًا أنه سافر عقب صدور مذكرة الاعتقال بحقه إلى الإسكندرية ثم القاهرة ثم بيروت ثم وفد إلى دمشق وبقي فيها عام ١٩٢٣، فيبدو أن تنقلات الشيخ بين هذه المدن غابت عن الأستاذ علي علوي.



▲ محمد طاهر البورصلي

وكان إذا ما كتب أو تكلَّم في مسألة عرضها بأسلوب مُحكَم رصين، وكأنه قد أحكم قبضته عليها، فلا يكاد يَنِدُّ عنه من شواردها صغيرةٌ ولا كبيرة.

وخاصة فيما يتعلق برجال الحديث والمذاهب الفقهية، والأحاديث التي اعتمد عليها أئمة المذاهب، ودرجة صحتها وضعفها، كان يمتلك في هذه المجالات معرفةً واسعة عميقة.

شكا له بعضُنا ـ في إحدى زياراته إلينا ـ ضَعْفَ ذاكرتهم، فحكى لنا إحدى ذكرياته:

ـ كان طاهر أفندي بورصلي[1] ـ مؤلف كتاب «عثمانلي مؤلفلري»:

---

(١) طاهر أفندي بن رفعت بن محمد طاهر البورصلي (١٨٦١ ـ ١٩٢٥) مؤرخ طبقات تركي، وصاحب الكتاب الشهير «المؤلفون العثمانيون»، وُلد في مدينة بورصة، وبعد إنهاء دراسته في الثانوية الرشدية الحكومية أرسله جده إلى الثانوية العسكرية ليكون ضابطًا في الجيش العثماني مثله، اهتم في فترة تكوينه بالتصوف والتاريخ والأدب، وكان معجبًا بشخصية ابن عربي، وبعد استشهاد والده في الحرب الروسية العثمانية التحق بالكلية الحربية في إستانبول، وازداد تعلُّقه بالتصوف أثناء إقامته فيها، فتعرَّف على كثير من شيوخ الطرق، فانتسب إلى الشيخ كمال الدين حريري زاده مؤلف الكتاب الشهير في تاريخ الطرق الصوفية «تبيان وسائل الحقائق»، فتأثر بشيخه، وأخذ يجمع تراجم الشعراء والأدباء والصوفية، ثم وسع الدائرة لتشمل كل المؤلفين العثمانيين، وكان يزور قبورهم، ويدوِّن ما كُتِب على شواهدها، وانتسب في عام ١٩٠٦ إلى جمعية الحرية العثمانية التي استمر فيها بعد أن تحولت إلى جمعية الاتحاد والترقي، وبعد إعلان المشروطية الثانية دخل البرلمان نائبًا عن بورصة، ولكنه لم يلبَث أن انفصل عن الحزب والحياة السياسية، وتفرَّغ لعمله العلمي، =

«المؤلفون العثمانيون» ـ يكرّر السؤال حول المسألة الواحدة عدة مرات، فقلت له ممازحًا ذات مرة:

فضيلة الأستاذ، أعانكم الله! كيف ستكتبون مثل هذا العمل الموسوعي بهذه الذاكرة الكليلة؟ ألم تسأل هذا السؤال نفسه قبل الآن عدة مرات؟

فأجابني:

ـ يا سـيدي، أنا رجل عملي، أجتهد مثل النملة، فالنملة لا تفتأ تحاول رفْعَ حبة الطعام، ولو كرَّرَت ذلك أربعين مرة إلى أن تستطيع رفعها في المرة الواحدة والأربعين، ولكنها في النهاية ترفعها، وأنا كذلك.

= الذي طُبع في ثلاث مجلدات عام ١٣٣٣ في إستانبول. انظر: عمر فاروق أقجون، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة طاهر البورصلي (٦: ٤٥٢).

بين الشيخَين مصطفى صبري أفندي وزاهد الكوثري

لم يكن الشيخ زاهد الكوثري يشبه شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي، فصبري أفندي كان لطيف الحديث خفيف الظِّل، نتجاذب معه أطراف الحديث في كل باب، أما الشيخ زاهد فكان رجلًا مهيبًا جليلًا جادَّ الحديث، لا يُمكِن لأحد في مجلسه أن يُكثِر الكلام، أو يُفِيض في التعليق، أو يعرض فكره الخاص، وإنما يطرح أحد الحاضرين السؤال، ويكتفي الجالسون بما يسمعون من جواب.

حتى من الناحية الجسدية ما كانا يُشبهان بعضَهما، بل كانا على النقيض تمامًا، فالشيخ مصطفى صبري كان نحيل الجسم رقيق العود، وأما الشيخ زاهد فكان جسيمًا طويلًا.

❁ سعة علم الشيخ زاهد:

كان الشيخ زاهد واسع المعرفة، عميق الاطلاع، عظيم التبحُّر في العلوم، وخاصة علمَي الحديث والفقه، فكان يقف على أدقِّ تفاصيل تراجم رواة الحديث وأعلام التاريخ، مع استحضار فضائلهم ومثالبهم، كأنه يعيش معهم في أزمانهم.

وكنا كلما ذهبنا إلى زيارته في منزله لا بد أن نلتقي عنده بعدد من علماء مصر قَدِموا لزيارته، والاستفسار عن بعض الأسئلة بين يدَيه، وكان بعضهم يأتيه راجيًا منه كتابة مقالات في مواضيع معينة للنشر في مجلّاتهم وجرائدهم.

وكان الشيخ مصطفى صبري أفندي يُثنِي على علم الشيخ زاهد ويمدحه، حيث يقول:

ـ لم أكن قد وقفت على غزارة علم الشيخ زاهد وغَوصِه في الفنون حين عيَّنتُه وكيلًا لي في الدروس، لكني كنت مطمئن النفس وقتها أني أقَمتُ الرجل الثقة في المكان الذي يستحقه، ولكنه ـ على ما يبدو ـ بينما كنا مشغولين بالسياسة ومعاركها كان هو يُكِبُّ على علومه، ويهتم بالتعليم، وزيارة المكتبات، وتدوين مشاهداته وملاحظاته حول آثارها العلمية القيمة، ويعمل على تصنيفها وترتيبها، حتى وقف على أسرار نوادر الكتب النفيسة وسَبَرَ أغوارها.

❁ احترام الشيخ زاهد الكوثري وإجلاله لشيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي:

كان إذا جاء أحدُهم يستفتي مصطفى صبري أفندي، أو يعرض عليه مسألة فقهية يُرسِله إلى الشيخ زاهد الكوثري، ويقول بكل تواضع وإنكار لذاته:

«أيُفتَى وزاهد أفندي هنا؟ كتبُه كلُّها معه، أجابك وإلّا نظر فيها عند الحاجة».

وكان زاهد الكوثري ـ على سعة علمه وعظيم فضله ـ يحترم مصطفى صبري أفندي ويُجِلُّه أيّما إجلال، وإذا اجتمعا في مجلس وقف الشيخ زاهد الكوثري له وقبَّل يده، وجلس بين يدَيه كتلميذ له؛ رعايةً لما بينهما من مودة وصُحبة قديمة.

فقد كان مصطفى صبري أفندي أكبر سنًّا من زاهد الكوثري، ولكنهما كانا زميلَي دراسة عند علي زين العابدين أفندي الألصوني[1].

---

(١) علي زين العابدين بن الحسن بن موسى الألصوني (١٨٥١ ـ ١٩١٧)، وُلد في مدينة ألاصونيا، تلقى مبادئ العلوم في بلده، ثم رحل إلى إستانبول، وتابع تحصيله العلمي فيها على علمائها، منهم رجب الأرنؤوطي، وأحمد شاكر الكبير وبه تخرج، وحسن القسطموني شيخ تكية الكُموشخانَوي، ثم اشتغل بالتدريس في جامع الفاتح، وتخرجت به طبقتان من الطلاب، واشتهر فضله وذاع صيته بين طلبة العلم في إستانبول، وعُين عضوًا في مجلس =

❁ محبة وثقة متبادلة:

كنت مأخوذًا ـ خلال السنوات الست التي قضيتها في القاهرة ـ بما اشتمل عليه الأستاذان من المودة واللطف، والتراحم والإجلال، وكانا عندما يجتمعان تمرُّ ساعاتٌ وساعات وهما غارقان في أحاديث علمية ومناقشات فكرية، وتقييم لما أصاب الأمة من أحداث في الآونة الأخيرة.

قد اتَّسَم كل منهما بالصدق والإخلاص في علاقته مع الآخر، ولم يختلِفا أبدًا خلا موضعين لم يتفقا عليهما، أو يصلا فيهما إلى رأي واحد، وسآتي عليهما في الصفحات القادمة.

ولم يكن هذا الإخلاص في المحبة والصدق في المودة وَليدَي إقامتهما في القاهرة، بل حتى عندما كان مصطفى صبري أفندي في منصب شيخ الإسلام في إستانبول، كان عظيم الثقة بالشيخ زاهد أفندي، وشديد المحبة له، وذات مرة وقعَتْ بينهما الحادثة الآتية:

قال الشيخ زاهد الكوثري لمصطفى صبري أفندي:

ـ مولانا، إن مفتي مدينتي دوزجه رجلٌ مشوَّش الفكر، غير متَّزِن، وقد كَثُرت شكاية الناس في حقه، فلو أنكم تعزلونه، أو تنقلونه إلى وظيفة أخرى؟

فأجابه شيخ الإسلام:

ـ زاهد أفندي، سامحك الله، وهل مثلك يسأل هذا؟ أنا أعطيك ختمي الرسمي، لستَ في حاجة لاستئذاني، افعل ما تراه مناسبًا، وضَعْ ختمي عليه.

❁ ❁ ❁

= وكالة الدرس في مشيخة الإسلام، ثم عُين وكيل درس لشيخ الإسلام، وبقي فيه إلى وفاته. انظر: زاهد الكوثري، التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز ص٦٧.

أحوالٌ اختصّ بها الشيخ زاهد

يبدو أن الشيخ زاهدًا الكوثري ـ بما أوتيه من سعة العلم وغزارة المعرفة ـ لم يكن يحظى بإعجابه وتقديره أيُّ أحد، ولقد شهدنا ما يشير إلى ذلك.

فذات مرة كان في القاهرة زاوية للطريقة التيجانية، يقوم عليها الشيخ محمد حافظ أفندي، كان رجلًا عالِمًا عارفًا، وقد عرف كلًّا من مصطفى صبري أفندي وزاهد الكوثري أفندي من خلال أعمالهما، ثم انعقدت أواصر المودة بينهم، فكان يزورهما بين الحين والآخر، ويدعوهما لزيارته في الزاوية أحيانًا.

ذهبنا ذات مرة بصحبة الشيخَين إلى الزاوية، فأعدَّ لنا الشيخ محمد حافظ طعامًا جزائريًّا، وبعد أن انتهينا من تناول الطعام، وأثناء شُربنا الشاي ساقَنا الحديث إلى ترجمة أحمد نعيم بابان زاده أفندي لكتاب «التجريد الصريح»[1]، فقال مصطفى صبري أفندي مُبدِيًا إعجابه بأحمد نعيم وعمله:

ـ ما كان يدور في خلدي أبدًا أن يُوَفَّق أحمد نعيم أفندي في كتابته حول علم الحديث ورجاله وأصوله كما وُفِّق فيما كتبه حول الفلسفة والتصوف، ولكنه فاجأني وأثار إعجابي بعمله هذا... أليس كذلك يا زاهد أفندي؟

(١) ترجم أحمد نعيم أفندي كتاب «التجريد الصريح» للزبيدي بتكليف من رئاسة الشؤون الدينية في عهد الجمهورية، ونشر ٤٧٧ حديثًا في مجلدَين عام ١٩٢٨، وتوفي قبل نشر المجلد الثالث الذي وصل فيه إلى الحديث رقم ٥٨٩، فتابع كامل ميراث مهمة الترجمة، وانتهى منها عام ١٩٤٨، وتُعَدُّ ترجمة أحمد نعيم أهم ترجمة للكتاب في اللغة التركية، وقد ذكر فيها مقدمة عن أصول الحديث وعلم الرجال تُعَدُّ من أهم ما كُتب في أصول الحديث باللغة التركية، وطبعت عادة كتابًا مستقلًا. انظر: حسين هانصو، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة التجريد الصريح (٤٠: ٢٥١).

فعقَّب زاهد أفندي على كلام الأستاذ مصطفى صبري أفندي قائلًا:

ـ إن الرجل الذي يتقحَّم مجالًا ليس من اختصاصه لن يفلح فيه مهما بذل من جهد، فإنه بذلك يُرهِق نفسَه فيما لا يُحسِنه، ولم تكن علوم الحديث اختصاص أحمد نعيم أفندي، فقد فتح على نفسه بابًا، وتناول مسائل تحيَّر فيها العلماء، وتعرَّضوا للنقد بسببها، فعِلمُ رجال الحديث من الصعوبة بمكان.

❁ الظفر بإعجاب الشيخ زاهد عسير المنال:

في زيارتي التالية لمصطفى صبري أفندي ذكَّرتُ فضيلته بكلام الشيخ زاهد أفندي، وقلت:

ـ يبدو أن أستاذنا الشيخ زاهدًا لم يكن معجبًا بعمل أحمد نعيم أفندي.

فأجابني مصطفى صبري أفندي قائلًا وقد أمسك بياقة قميصه يهزُّها:

ـ ما لك ولهذا يا بني! إن الظفر بإعجاب الشيخ زاهد أمرٌ عسير المنال.

ثم أشار الأستاذ إلى أن أسبابًا كثيرة كانت تحمل الشيخ على مثل هذا التشدُّد في الثناء على العلماء، وأتى على ذِكر بعض الحوادث التي تدل على شيء من ذلك، فقال:

ـ قرأت في الأيام الماضية حوارًا أجرَته إحدى المجلات مع الشيخ زاهد، فسألوه: «مَن العلماء المشهورون في إستانبول؟»، فذكر بعضهم، ثم وصف إسماعيل حقي أفندي المناستيري[1] بـ «الواعظ الشهير».

---

(١) إسماعيل حقي المناستيري (١٨٤٦ ـ ١٩١٢)، وُلد في مدينة مناستير لعائلة ترجع أصولها إلى مدينة قونية، انتقل إلى إستانبول لطلب العلم، فدرس اللغة العربية والعلوم الإسلامية على كبار علمائها، وتنقل في الوظائف الدينية، فكان خطيبًا ومدرسًا في جامع الفاتح والسليمانية =



△ إسماعيل حقي المناستيري

حسنًا يا سيدي، إسماعيل أفندي انضم للاتحاديين، وعمل معهم، ولكن هل يصح أن تَصِف الرجل بأنه واعظٌ لمجرد خلافِك معه في التوجُّه السياسي؟! هذا الرجل كان رئيس لجنة العلماء التي امتحنتني أنا وزاهد أفندي في فترة المشروطية على عهد السلطان عبد الحميد الثاني، فهل يصح أن يقال لرجل عالم كهذا: إنه واعظ، وليس لسبب إلا لأنه كان في صفِّ الاتحاديين وليس في صفِّنا، وخالفنا في آرائنا السياسية؟

وقد فوجئت أيضًا أن زاهد أفندي قال عن إلماليلي حمدي أفندي: «ليس بمفسِّر»، وأضاف معبِّرًا عن عدم إعجابه بعمله في التفسير: «إنه يعرف الفقه، والفلسفة، ويُتقِن المقارنة، فمثلًا يجيد المقارنة بين القوانين الأوروبية وأحكام الفقه الإسلامي، ويُثبِت بالدليل والبرهان تفوُّق الفقه، ويعرف كذلك الكلام والمنطق، لكنه ليس مُفسِّرًا...».

فيبدو أن مثل هذه الحوادث كانت وراء شكوى مصطفى صبري أفندي من مسلك الشيخ زاهد أفندي.

= والسلطان أحمد وأيا صوفيا، وكان مشهورًا بخطبه المؤثرة في جامع أيا صوفيا، وعمل مدرسًا للغة العربية والعلوم الشرعية في كلية الحقوق، حتى مُنح الوسام السلطاني على جهوده في التدريس لمدة ربع قرن، وانتخب عضوًا في مجلس المبعوثان عام ١٩٠٨، وكانت له مساهمات في الرد على فكر التغريب استفاد منها من جاء بعده. انظر: صالح صبري يافوز، موسوعة شؤون الديانة التركية، مادة إسماعيل حقي المانستيري (٢٧: ٥٦٣).

❁ ثقته المطلقة بعلمه:

كان زاهد أفندي يروي قصة طريفة عن العلامة التفتازاني، تشير إلى أهمية ثقة الإنسان بما أحكمه وأتقنه من علم، وضرورة اعتماده عليه، واعتقاده بصوابه.

يُروى أنّ عالِمًا زار رجلًا صالحًا، فقرأ الرجل الصالح قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، ولكنه قرأ «ذي الجلال والإكرام» بدلًا من «ذُو الْجَلال والإكْرامِ»، فسارع العالم للاعتراض على الرجل الصالح قائلًا:

ـ لا يصح هذا يا سيدي، الآية «ذُو الْجَلال والإكْرامِ»، وليس ذي «الجلال».

فما كان من هذا الرجل الصالح إلا أن فتح سِتارة الغيب ـ على سبيل الكرامة ـ وأشار إلى الآية في اللوح المحفوظ، وقد كُتِبَت «ذي الجلال والإكرام»، فصاح العالم دون أن تهتز ثقته بما يعرف:

ـ أرجوكم سيدي، لا تُغلِقُوا الستارة، دعونا نصحّح الآية في اللوح المحفوظ!

❁ إتقانه اللغة العربية:

تميَّز الشيخ زاهد الكوثري بإتقانه الفريد لِلُّغة العربية، خلافًا لكثير من أقرانه، أما الأستاذ مصطفى صبري أفندي فمع أنه ألَّف كتبًا باللغة العربية فإنه ـ لتواضُعه وبُعدِهِ عن الدعوى ـ كان يتحرَّج أحيانًا من الكتابة بالعربية، ويفضِّل الكتابة بلغته الأم، حتى قال ذات مرة عن كتابه ذي المجلدات الأربعة:

ـ كان عليَّ أن أكتب هذا الكتاب باللغة التركية، أو أن تكون العربية لغتي الأم، فلا لغة توازي لغة الإنسان الأم أبدًا، إن كلماتها وتعابيرها تمتزج بخَلَجات فؤاده، وهمسات روحه منذ الطفولة، فأيُّ تركي تعلَّم العربية لا يَخفَى على أحد أنها لغته الثانية التي تعلَّمَها لاحقًا.

ولما سألْنَا الشيخَ زاهد أفندي عن سرِّ إتقانه المتميز للغة العربية:

ـ أستاذنا، لم نسمع منكم شكوى من الكتابة بالعربية كما سمعنا من الأستاذ مصطفى صبري أفندي، فما السر في ذلك؟

ـ ما يميِّزني عن الأستاذ صبري أفندي هو أن والدي[1] كان مدرِّسًا، ولما ذهبت من دوزجه إلى إستانبول لمتابعة تحصيلي العلمي قال لي وقتها: «يا بني، لقد تعلَّمتَ اللغة التركية ولن تنساها بعد الآن، فهي لغتك الأم، ولكن العربية ليست كذلك، عليك أن تكتب لي رسائل من إستانبول، وستجتهد أن تعتني بلغة رسائلك حتى تحوز إعجابي، فلا بد أن تكون لغةً عربية عالية، فستكتب بالعربية منذ الرسالة الأولى حتى آخر رسالة سترسلها إليَّ ما دمت على قيد الحياة».

وبهذه الطريقة كنت أكتب بالعربية، وكان أبي يجيب بالعربية، وهكذا مع الامتزاج باللغة دائمًا تطوَّرَت عربيتي إلى هذا القدر، فأكتب بالعربية كما أكتب بالتركية، لا يَعسُر عليَّ شيءٌ من ذلك أبدًا.

---

(١) والده حسن بن علي الكوثري (١٨٢٩ ـ ١٩٢٦) مرَّ ذِكره في فاتحة ترجمة الشيخ زاهد قبل صفحات، وأفرده ابنه الشيخ زاهد بترجمة وافية. انظر: زاهد الكوثري، التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز ص٧٥.

احترامٌ للدين والتاريخ

كان من أجلَى ما ميّز هؤلاء العلماء الذين عرفناهم واستفدنا منهم احترامُهم لمباحث الدين والتاريخ ومعالمه المقدسة على نحو منقطع النظير، إضافةً إلى صِدق محبّتهم، وإجلالهم للعظماء الذين حفَل بهم تاريخُنا وثقافتنا، وخاصةً أعلام الصدر الأول، ومؤسّسي علومنا الإسلامية، فلا يذكرونهم إلا بكل حرمة وتعظيم، بل يغضبون ويَضِيقون بمن يتهاون في تعظيمهم، أو يذكرهم في معرض التمثيل، أو ينتقص منهم على سبيل التهكُّم والسخرية.

ذات يوم عاد مصطفى رُنيون من الامتحان، ثم ما لبث بعد دقائق أن طرق الشيخ زاهد الكوثري باب غرفتنا في طريق عودته من المكتبة، حيث كان يعمل على مخطوط فيها، رحمه الله كان جمَّ التواضع يُؤنسُنا بزيارته لنا في غرفتنا المتواضعة.

❁ سؤال خارج عن حدود الأدب:

فحضَّرْنا الشايَ، وشربنا مع الأستاذ، وفي هذه الأثناء سأل الشيخ أخانا رُنيون:

ـ لديكم امتحانات في هذه الأيام، أليس كذلك؟

ـ بلى، يا سيدي، أتيت قبل قليل.

ـ ما الامتحان اليوم؟

ـ كان امتحانًا في التفسير، سيدي.

ـ عن أي آية سألوكم اليوم؟

ـ عن قوله تعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، في هذه الآية الكريمة يخاطب الله ﷻ أزواج النبي ﷺ محذِّرًا: يا نساء النبي من ترتكب منكن معصية ظاهرة تُضاعَف لها العقوبة.

عندما أخذ زُنيون يعرض جوابه الذي ذكره في الامتحان، شعرنا بالشيخ زاهد أفندي قد تغيّر وجهه وثارت سَورة غضبه، وقال:

ـ عجبًا والله! ما قلة الأدب هذه عند بعض الأساتذة المصريين؟ أيُّ نوع من الأساتذة هؤلاء؟ هل هؤلاء مسلمون؟ ألم تبقَ آية أخرى في القرآن الكريم غير هذه تُسأل للطلبة، هؤلاء النسوة هُنَّ أمهاتُنا وزوجات نبينا، والأدب معهن واجب على كل مسلم، عجبًا لمثل هؤلاء الأساتذة!

❋ ❋ ❋

زيارة علماء مصر للشيخ زاهد الكوثري

كنا كلما ذهبنا لزيارة الشيخ زاهد نصادف عنده ضيوفًا من العلماء المصريين، وكثير منهم من علماء الأزهر، وكنا نرى أحيانًا محرِّري بعض المجلات والجرائد جاؤوا يستكتبون الشيخ مقالات في موضوع ما.

وكنا نلحظ أن الأساتذة يأتون للسؤال عن رجال الحديث وكتب طبقاتهم، ومصادر تراجمهم خاصة، فمعرفة الشيخ بأحوال رواة الحديث كانت عميقة واسعة حقًّا، يعرفهم كما لو كان فردًا من أفراد عصورهم، عاش بينهم وشهد أحوالهم.

فكثيرًا ما كان يقول لهم: «سيدي الكريم، تجدون هذا الراوي في ذاك الحديث، ودعك مما قيل في هذا الحديث هنا، ستجد عُمقًا أكثر وتحليلًا أوسع في كتاب كذا وكذا وكذا».

ثم يُملِي عليهم أسماء الكتب ويخبرهم بمظانِّها، فيقول: «تجدون تفصيلًا أوفى حول المسألة في مجموعة الرسائل كذا»، والعلماء يدوِّنون كل كلمة ينطقها الشيخ ليبدؤوا بعدها رحلة البحث والدراسة.

ولعل أثر الشيخ ومكانته بين علماء مصر من أدلِّ ما يشير إلى علوِّ كعبه في العلم ورسوخ قدمه فيه، فمن الصعوبة بمكان أن يأتي رجلٌ غريب عن البلد، وليس عربيًّا أيضًا، إلى مدينة كالقاهرة التي يعتزُّ علماؤها بما لديهم من علوم تراكمت عبر عصور وعصور، حتى إنهم لا يكادون يُلقُون بالًا لغيرهم من علماء المدن الأخرى، ثم يَحتَلّ هذا الرجل الغريب الأعجمي مكانةً

مرموقة بينهم، بما تميَّزَت به شخصيته العلمية من سعة الاطلاع، ودقة النظر، وعمق المعرفة، فهذا مما لا يستطيعه إلا كل بطل.

❁ لقاءٌ مع صاحب مجلة الإسلام:

التقينا ذات مرة ـ وهذه ذكرى لا أنساها أبدًا ـ مع صاحب مجلة الإسلام، الشيخ عبد الرحمن، وكان رجلًا لطيف المعشر، جليل القدر، حَسَن الحديث.

وكان الشيخ زاهد يكتب من حين لآخر مقالات حول الأيام والليالي الفاضلة، مثل موسم الحج، وشهر رمضان، وليلة المعراج، والنصف من شعبان، وليلة الرغائب.

فجاء الشيخ عبد الرحمن يطلب مقالة لمجلته، إلا أن وقت الشيخ زاهد ما كان يسمح بذلك فقال معتذرًا:

ـ يا شيخ عبد الرحمن، أنا مشغول جدًّا في هذه الأيام، ولا يمكنني كتابة مقال على عَجَل كما تُكتَب رسائل الأهل إلى أبنائهم في الجندية، لا بد لي أن أبحث وأتتبَّع الموضوع من كل جوانبه، إن لم أجتهد في المقال فلن يستفيد منه القراء، ولن يقدِّم لهم جديدًا، فألتمس العذر من جنابكم الكريم.

ولكن الشيخ عبد الرحمن استمر في إلحاحه، ولم يفتَأ يُصِرُّ على الشيخ، ويقول: «سيدي، تصلنا طلباتٌ من القُرّاء عبر البريد والهاتف، ويُكرِّرون الرجاء تلو الرجاء أن تكون مقالاتكم في كل عدد، سيدي، لن أخرج من عتبة داركم حتى تَعِدوني بكتابة مقال، بماذا عساي أن أجيب القراء؟».

❁ إجابة مضحكة:

فبدا الضيق والامتعاض على وجه الشـيخ زاهد، ولكنه لم يُرِد أن يجرح رجلًا لطيفًا رقيقًا مثل الشيخ عبد الرحمن، فأعاد عليه بيان معذرته مرة ثانية:

ـ يا بني! إني حقًّا مشغول في هذه الأيام بتأليف كتاب حول الإمام الأعظم أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ، ولهذا لا أجد سعة من الوقت لأقدِّم مقالة لمجلتك، أرجو أن تُعفُوني هذه المرة لو سمحتم.

فما كان من الشيخ عبد الرحمن بعد جواب الشيخ زاهد إلا أن عقَّب بكلام بعثَنا على الضحك جميعًا، فقال:

ـ فضيلة مولانا، لست أنا وحدي من يُلِحُّ في طلب مقالاتكم، بل إن القراء لا يفترون عـن الكتابة لي ينتظرون مقالتكم على أحرِّ مـن الجمر، اكتبوا أي شـيء، ولو كانت كلمات قليلة، أيًّا ما تقدِّمونه سـنضعه تاجًا على رؤوسنا، ونقرؤه شِفاءً لأرواحنا، أصدُقُكم القول يا سيدي ولا أبالغ فيه، لو أنكم كتبتم تخاطبونني: (يا بني، عجبًا لك من امرئ غاضَ فهمه وقلَّ أدبه، انصرِف قبَّحَك الله من رجل)، فإني سأنشر هذه الكلمات كمقالة في مجلَّتي، وأكون بذلك قد لبَّيتُ رغبة قُرَّائي وأثلجت صدورهم.

❁ ❁ ❁

قد صار العلم غريبًا

قضى المرحوم الشيخ زاهد كلَّ عمره لحظة لحظة في طريق العلم فِعلًا لا قولًا، وكأنه فَنِي في العلم حتى عُجِنَت به روحُه وأنفاسُه، كان يقول:

ـ يا أولادي، لقد كانت أيامنا ـ في فترة انتشار العلم وإقبال الشباب والشيبة عليه ـ تفيض بالكتب الرصينة، والعلماء الأجِلّة، وتحفل بالتحفيز والتشجيع، أما اليوم فيا للأسف! صار العلم غريبًا مهمَّشًا، لا يلتفِت إليه أحد، ولا تشجِّع عليه جهةٌ أو فئة.

لم يقل رسول الله ﷺ في دعائه: اللهم زِدنِي عقلًا وإيمانًا، ولكنه قال: «اللهم زِدنِي علمًا»، واليوم كلنا على اختلاف مشاربنا نتمنَّى ونتطلَّع أن يعود المسلمون إلى سالف مجدهم وعِزِّهم، وأن يتمثَّلوا الإسلام مرة أخرى كما تمثَّله السلف الصالح، ولكن كيف سيعيش المسلم ويتمثل شيئًا لا يعرفه؟

❁ العلم أفضل من العبادة النافلة:

ولذلك فإني أُمضي كل أوقاتي في طريق العلم، حتى إنه ليمنعني من كثير العبادة، فلا أكاد أجد وقتًا لأداء نوافل العبادات، حيث إن وقتي يمضي دائمًا بين الكتب، ومَن يأتيني ليطرح سؤالًا أو يستشكل مسألة دائمًا ما يقول عندما أشيِّعه إلى الباب: «سلَّمَكم الله أستاذنا، إن شاء الله تُتحِفونا بالجواب الشافي في زيارتنا القادمة».

فعَلَيَّ أن أُجوِّد في الجواب على أسئلتهم بما يُثلِج صدورهم، كما أحرص على التجويد في كتابة المقالات وتأليف الكتب.

لذلك يا أولادي، قد استقرَّ في نفسي ورسخ في عقلي أنّ العلم أفضل من نوافل العبادة، فنوافل العبادات تنفع المرء في نَجاته وخلاصه الفردي، وترفع ـ تكرُّمًا من الله تعالى ـ مقامه ودرجاته في الجنة بعد أن يُكرمه الله بها، أما العلم فيُنقِذكم ويُنقِذ إخوانكم المسلمين، وينتشلهم من النار، ويحميهم من سلوك مَهاوِي الكفر والضلال.

❁ كيف يُطلَب العلم؟

يا بني، إن الميل للعقائد المنحرفة والخرافات الباطلة له من الضرر والخطر ما للكفر تمامًا، ولا يمكن للمرء أن يواجه كل هذه المخاطر ويكفَّ عنه أذاها إلّا بالعلم، ولذلك كان يُعَدُّ العلم أعظم العبادات، فاجتهِدوا وشمِّروا عن ساعد الجد، واسلُكوا الطريق التماسًا للعلم وسعيًا في تحصيله.

وإن عَسُر عليكم فَهْم مسألة، أو غاب عنكم وجه الصواب فيها، فلا تتحرَّجوا أبدًا من أن تُلقُوا كلَّ ما يدور في خَلَدِكم من أسئلة وإشكالات على معلِّميكم.

وإياكم أن تمُرُّوا على مسألة دون أن تفهموها على وجهها الصحيح، ولا يمنعنَّكم الحياء أو السآمة من السؤال المرة تلو المرة، فالسؤال مفتاح العلم، ولن تَلِجوا خزائن العلم إلا به.

وعندما كنا صغارًا ما زلنا نقرأ في كتاب البناء لتصريف الأفعال كان معلِّمونا لا ينفَكُّون يكررون هذه المقولة: «تعلَّمتُ العلم مسألةً بعد مسألة».

فلا يجاوز الطالب إلى مسألة حتى يُتقِن ما قبلها، وهكذا العلم يُتَلقَّى بالتدرج والتسلسل والسكينة.

وأيضًا، احرصوا على التخصُّص في العلم أو الفن الذي تتفتَّق على أعتابه قرائحكم، وتتبلـوَر في رحابـه اسـتعداداتكم، وتتَّقِـد عند قراءة مسـائله حماسـتُكم، حتى تبلغوا قمته، وتَسـبُرُوا أغواره، ولا تَطلُبوا التعمُّق في كل علم، فهذا دونه خَرطُ القَتاد، وقد مضى زمنُه، وجاء زمن التخصص في علم واحد، بل زمن التبحُّر في فرع من هذا العلم، خـذوا مني هذه الوصية؛ فقد ضرَسَتني السنون وأعجمتني التجارب.

وكان يختم حديثه بقوله:

هيا يا أبنائي، أَفَضتُ في الحديث وأسرَفتُ، كفاكم ما سمِعتُموه من كلام المخلوق الحادث، فلنستمع الآن إلى كلام الخالق القديم ﷻ، ولْيَقرأ أحدُكم آيات من كتاب الله ﷻ نُرهِف آذان القلوب جميعًا إليها.

☼ ☼ ☼

أيهما حدث أولًا؟

في يوم ما ألقَيتُ بين يدَيه سؤالًا عما يُقترَف من أعمال مخالِفة للشريعة في بلاد المسلمين، فقلت:

ـ سيدي، إن ارتكبت أمةٌ أو مجتمعٌ مسلم مثل هذه المخالفات الشرعية فهل تكفر؟ وهل توجب مثل هذه المخالفات تكفيرَهم؟

فكان جوابه:

ـ لو صِيغ هذا السؤال على النحو الآتي لكان أفضل: هل كفروا وخرجوا من الدين بارتكاب مثل هذه المخالفات، أم أنهم كفروا وخرجوا من الدين فارتكبوا هذه المخالفات؟

لا بد من التوقف عند هذا السؤال والتأمل فيه طويلًا اليوم في عالمنا الإسلامي، فهناك اليوم من يُجبِر الناس على ارتكاب هذه المخالفات، وهناك مَن يأتيها مُكرَهًا لا يَسَعه التفلُّت منها، ففرقٌ كبير بين من أُكرِه ومَن رَضِي، بين من أتى هذه المحرَّمات مُجبَرًا مضطرًا لا يملك اختيارًا في رَدِّها، ومن اقترفها راضيًا مسرورًا، ولذلك كان الأولى أن يُطرح السؤال على النحو الذي ذكرت.

❁ قبل لُبسها أم بعده[1]:

ومرة سألت الشيخ عن حُكم لبس القبعة الغربية، فقد كان يلبسها بعض الشباب في القاهرة ممن درس في الجامعات الأوروبية، أو الجامعة الأمريكية في بيروت، فسألته عن حكم هؤلاء:

---

(١) أورد علي علوي هذه الفقرة في موضع آخر من المذكرات (٢: ١٤٩)، ولعل السؤال الوارد في هذه الفقرة هو السؤال السابق نفسه، ولكنه ذكره مرة مُجملًا ومرة مُبيَّنًا.

ـ أستاذي، لو أنّ أحدهم لبس هذه القبعة الغربية راضيًا بها، فهل يؤثّر هذا على إيمانه؟

فأجابني بإجابة لطيفة:

ـ ينبغي أن يكون السؤال على غير هذا النحو، وبناءً عليه يكون الجواب، هل أُصيب مرتدي القبعة في إيمانه فلَبِسها، أم لَبِسها فأصيب في إيمانه، وهل خرج من دينه فلَبِس القبعة، أم لَبِسها فخرج من دينه؟

❊ ❊ ❊

طلب الدعاء دون الجد والسعي

ذات يوم زُرنا الشيخ زاهدًا مع بعض الأصدقاء، كان بينهم علي يعقوب ومصطفى رُنيون وبعض الأصدقاء البوسنيين.

سأل الشيخُ عن حال بعض الطلاب، فقال رُنيون:

ـ يرجون دعواتكم سيدي.

ففَهِم الشـيخ زاهد من هذا الجواب أنهم لم يكونوا يعملون بجد كما ينبغي، فأجاب قائلًا:

ـ أولادي، كان أستاذي الشيخ علي الألصوني بين الفَينة والأخرى يذكر لنا قصة تاريخية، يبدو أنه سـمعها من بعض أسـاتذته، كان يقصُّ علينا هذه القصة لتحفيزنا، وبَعثِ هِمَّتنا من الرماد، وليصنع منا رجالًا، تقول القصة:

❁ السلطان محمد الفاتح والمدارس:

جمع السلطان محمد الفاتح ـ نوَّر الله ضريحه ـ وزراءه في مجلس الحكم للنقاش حول ميزانية الدولة.

وقبل أن يبدأ الاجتماع كتب السـلطان على طرف الورقة التي كانت بين يدَيه مبلغًا كبيرًا من المال للإنفاق على المدارس.

بدأ النقاش، وأخذ كلُّ وزير يُدلِي بدَلوِه، ويبيِّن احتياجات وزارته، ولكن وزير المالية بعد أن لاحظ هذا المبلغ المرقوم على طرف الورقة لزم الصمت، فأدرك السلطان بسرعة بديهته سرَّ صمت الوزير، فبادره بالسؤال:

ـ خيرًا يا وزيري الأثير، نحن في اجتماع مناقشـــة ميزانية الدولة، وأولى مَن ينبغي له الحديث في هذا المجلس وزير المالية، ولكنكم آثرتم الصمت كما أرى!

ـ لا شيء يا مولاي السلطان، أستمع وأستفيد.

ـ ربما لاحظتم المبلغ الذي دوَّنتُه على طرف الورقة هنا للإنفاق على المدارس، واستعظَمتُموه، لا بد أن هذا هو ما حملك على التزام الصمت.

بعدما كاشَف السلطان وزيرَه بهذا الكلام انطلق لسان الوزير بالحديث، فقال:

ـ نعم مولاي السلطان، في الوقت الذي تنوء الدولة بأعبائها واحتياجاتها الكثيرة تكرمتم بتخصيص كلِّ هذا المبلغ الضخم لجانب واحد فقط، فوجدته أكثر مما يستحق.

❁ جلالة مهنة العلم:

فلم يرغَب السلطان الحصيف أن يسيء معاملة وزيره، أو يجرح مشاعره بإجباره على تخصيص هذا المبلغ، ولكنه حــاول أن يتأتّى لذلك بالحُجّة والتلطف حتى يضع الوزير هذه المخصّصات ضمــن الميزانية عن رِضًا وطيب نفس، فسأله:

ـ يا وزيري الأثير، وكأنكم تقولــون: ما الداعي أن تُنفَق كلُّ هذه الأموال على مدارس لا ندري كم سيتخرج فيها من الطلبة في نهاية المطاف؟

ـ نعم سيدي السلطان، هذا ما أردته، وهو مبعث قلقي.

فتابع السلطان حديثه:

ـ لكلِّ مهنة هامش خسارة لا بد منه، ولكن هذا الهامش في مهنة التعليم أوسع منه في غيرها، فهذه مهنة وراثة النبوة، وليس في الدنيا وظيفة أجلّ وأصعب منها، ولذلك ليس كلُّ مَن انتسب إلى هذه الطريق بلغ نهايتها، فترى كثيرين ينقطع بهم السبيل في أثنائها، ولأضرب لك مثالًا يوضح المقصد أكثر:

لو أنك غمست قماشًا رماديًا أو بُنِّيًا أو أسود في ماء قذر، فلن تظهر القذارة على القماش بعد أن يَجِفّ، بل حتى لو لففته عمامةً على رأسك فلن يدرك أحدٌ أنه قماش وسخ، لكن القماش الأبيض، حتى لو حطَّت عليه ذبابة فقط فستترك أثرًا يلاحظه الناظر، وسِلكُ التعليم يشبه القماش الأبيض؛ شديد النقاء ويتلوث سريعًا، ولذلك هامش الخسارة فيه كبير.

لكن لديَّ سؤال واحد فقط، وبناءً عليه نقرِّر المبلغ المخصَّص.

هل يمكن أن نستخلص في نهاية المطاف من طلاب هذه المدارس أساتذة عظماء، أقْنَع أنا وأنت بهم، بمعدل خمسة في المئة على الأقل؟

فأجاب الوزير:

ـ عفوًا مولاي السلطان، وهل يمكن أن نقبل بأقل من ذلك!

فأجابه السلطان:

ـ إذا كان بإمكاننا أن نحظى من كل طلبة هذه المدارس بأساتذة مؤهَّلين وعلماء راسخين بنسبة خمسة في المئة فقط فهذا نجاح عظيم، ونكون بذلك قد حصلنا على الربح الذي نرجوه من كل هذه الأموال المخصَّصة، فنحن في الحقيقة يا وزيري الأثير في سبيل الظفر بخمسة في المئة ننفق على الخمسة والتسعين الباقين.

فلم يملك الوزير إزاء هذا البيان إلا أن يقول:

ـ سيدي السلطان، إذا كانت نسـبة الخمسة في المئة مقبولة ومُرضية كما ترون، فلنمضِ على بركة الله، وأتراجع عن اعتراضي.

❁ الرضا بواحد في المئة:

بعد أن نقل زاهد أفندي عن أستاذه علي الألصوني أفندي هذه الحكاية قال:

ـ يا أولادي، هذه الحكاية جرت قبل خمسمئة سنة، فإن كان السلطان الفاتح في ذلك العصر الغني بالعلم والعلماء قد رضي بنسبة الخمسة في المئة، فبِكَم يجب أن نرضى اليوم؟

ففي عصر اليوم الذي شـاعت فيه مظاهر الترف وتنوَّعَت سُـبل المتعة، ومالت النفوس للدَّعة واللَّذة، وهُجِر العلم وأُهمِل أهلُه، يجب علينا أن نرضى ولو بواحد في المئة بدلًا عن الخمسة.

لذلك تنبَّهوا جيدًا يا أولادي لما أقامكـم الله فيه هذه الأيام، واعرفوا لمسلك العلم الذي سـلكتموه قَدْرَه، وجِدُّوا فيه حتى تكونوا أهلًا لوراثة النبي ﷺ، فاجتهِدوا واغتنِموا وقتكم، ولا تنسوا إخوانكم المقصِّرين من دعواتكم بظهر الغيب.

وكي لا نقع في اليأس نحن المشـتغِلين بالدعوة إلـى الله ـ هذه الأيام ـ علينا أن نتخذ من قصة السـلطان محمد الفاتح دسـتورًا ونِبراسًا في طريقنا هذه، فإذا فعلنا ذلك ستنبعث الحماسة في قلوب الدعاة والمعلمين، ويتفانون بكل همة واجتهاد في تربية الجيل وتنشـئة الشباب، وسـيُقبِل الناشئة على الدعوة بكل محبة وتعطُّش، إياكم أن تغفلوا عن ذلك فإنه جدُّ مهم.

❁ غروب الشمس وشروقها:

ـ أولادي الأحبة، قد شـــهد جيلُنا غروب الشـــمس، لذلك ســـارع إلينا الانهيار، كانت قلوبُنا تتفطّر ونحن نرمق شمس الإســـلام تغيب شيئًا فشيئًا، فخارت قوانا واستبدَّ بنا الإنهاك، ها أنا ذا أُعاني من مرض السكر الذي يزداد شراســـةً يومًا بعد يوم، والوهن يُطِلُّ برأســـه في كل عضو من أعضائي، وكم وكم لديَّ من آمال ومشاريع أريد تدوينها وتحقيقها، ولكني للأسف الشديد لا أكاد أستجمع نفسي وأستعيد قواي.

كانت هذه الزيارة والحديث الذي أتحفَنا به حضرة الشيخ في الأشهر الأخيرة من إقامتي في القاهرة قبل فراقها، وأنهى الشيخ كلمته بالدعاء لنا جميعًا:

ـ آمُل أن يُقِرَّ الله عيونَكم برؤية شروق شمس الإسلام من جديد، فالشمس تغيب، ولكنها لا محالة ستُشرق مرة أخرى، وها هي علائم قُرْب بزوغ شمس الإسلام تتراءى في الأفق، الدلائل تشير إلى ذلك، فالفجر بدأت خيوطه تشق حُلكة الظـــلام الدامس، إنه قريب إن شـــاء الله، لذلك فعالم الإســـلام ينتظر خدماتكم الجليلة، لا تفقِدوا حماســـتكم عندما يُشـــرق هذا اليـــوم المنتَظر، واعملوا بكل ما أوتيتم من جَلَد وهمة حتى تُدرِكوا ذلك اليوم بقلوب متعطشة لنور الصباح، أســـأل الله تعالى لكـــم جميعًا أيامًا مباركـــة بخدمة هذا الدين العظيم، بعون الله تعالى ومَنِّه.

❁ ❁ ❁

رسالة التعزية التي كتبتها

كنت في السنوات التي تلت انتقالي من القاهرة إلى المدينة المنورة لا أفتأ أخُطُّ رسائل مُفعَمة بالمحبة والشوق لأساتذتي وأصدقائي، ولمن أسرَتني آثارُهم من الشعراء والأدباء، ولم يكن الضعف قد تسرَّب آنذاك إلى يدي بعد.

لم يكُن للشيخ زاهد الكوثري إلا ابنة واحدة[1]، كانت متزوجة من شيخ شركسي يُدعى الشيخ أحمد جوجونوك، كانوا يقيمون في بيت واحد معًا، ومع أن الشيخ أحمد كان من الأساتذة الذين تربَّوا في الأزهر، فإنه ما كان يرتدي الزي الأزهري، وإنما يضع طربوشًا وربطة عنق، كان أحمد بك في هذه الفترة يتولَّى إدارة سكن محمد أبو الذهب للطلاب، وعندما عرفناه كان في السبعينيات من عمره، ويَكبُر ابنة الشيخ زاهد الكوثري بخمس وعشرين إلى ثلاثين سنة تقريبًا.

وبعد وصولي إلى المدينة المنورة توفيت كريمة أستاذنا الشيخ زاهد الكوثري، وكنت أستطيع أن أُخمِّن مدى الحزن والألم الذي استبدَّ به وبزوجه الفاضلة عليها.

فكتبت لهما رسالة تعزية بثَثتُ في تضاعيفها أصدق مشاعر الود والحب، وتركت لفؤادي أن يفيض بخالص العزاء والمواساة لهما، وختمت الرسالة بقولي:

---

(١) يقصد أنه لم يكن مع الشيخ في القاهرة في فترة وجود علي علوي إلا ابنة واحدة، وهي مليحة، وإلا فالشيخ كان له ثلاث بنات وابن، توفي ابنٌ وابنة له في إستانبول، وقدِمت زوجته مع ابنتَيه إلى القاهرة، فتوفيت ابنته سنيحة عام ١٩٣٤، ثم توفيت ابنته مليحة عام ١٩٤٧. انظر: يوسف شوقي يافوز، مادة زاهد الكوثري، موسوعة شؤون الديانة (٤٤: ٧٧).

«أســتاذي العزيز، لئن غابت أختُنا الكريمة ابنتُكم الفاضلة عن حياتكم، فاعلموا علم اليقين أنّ لكم ابنًا هنا في المدينة المنــورة، أنا ابنكم يا والدنا الغالي، فمُرُوني لو أحببتم حتى آتي وأشرُف بخدمتكم في القاهرة».

❁ جواب شيخي ودعاؤه لي:

وفيما يبدو أن رســالتي التي نســجتها بلوعة الفؤاد وتنهُّدات القلب قد لقيت من أســتاذنا وزوجه الفاضلة كل تقدير، ووقعت منهما موقعًا حســنًا، واستلَّت من نفسَــيهما شــيئًا من ألَمِ الغربة والفراق، لدرجة أنّ الشيخ زاهد الكوثري على ما كان يتمتع به من وقار في الحديث، وجلال في السَّــمت، ورصانة في العلم، أرسل لي جوابًا غاية في الجمال والتأثير.

ولشــدة روعة رســالته كنت لا أفتأ أُكرِّر قراءتها المرة تلــو المرة حتى اخضلَّت بدموعي، وكم كنت أترنَّم بقراءتها أمام الآخرين حتى كادت تَذوِي بين يدي، ولكن للأسف في زحمة الأيام ضاعت مني، ولم أظفر بها ثانية.

كان مما قاله الشيخ زاهد في هذه الرسالة:

«يا بني، كنت أعــرف منذ ســنواتِ تلمذتِك أنك تحب الشــعر وقراءة قصائده وتذوُّق روائعه، واستشعَرت من إنشــادك لبعض أبياته كم أنك شاعِر مرهف الحس، وقدَّرت ذلك فيك، ولكنني لم أكن أعلم أنك كنت تُخفي بين أعطافك أديبًا عظيمًا بهذا القدر.

لم أكن أعلم أنــك تملك موهبةً نادرة فــي الكتابة، وقلمًــا فيّاضًا، وبيانًا ساحرًا يمكنه ببلسم كلماته أن يَسكُب السكينة والرضا في قلب أبوَين عجوزَين غريبَين، غيَّب الموت ابنتهما الوحيدة، وأن يمســح مــن فؤادَيهما آلام الغربة والفراق، وأن يأخذ بأيديهما لِيتَلقَّيا قضاء الله بابتسامة الرضا والتسليم، أصدُقك

القول يا بُني، أني لم أكن أعرف من قبل أنك تُمسِك بيمينك قلم أديب فَذٍّ على هذا النحو...

وإنــي مَدِينٌ لرســالتك أنها أوقفَتني علــى مزاياك، وعرَّفَتنــي بك؛ لذا، لا يملك لســاني أن يقول إلا: أعزَّك الله في الدارَيــن، واعذرني فلا أملك أن أكتب أكثر من ذلك، بل إن قواي خارت وأنا أَخُطُّ لك هذه الرسالة، وفي ختام كلامي إليك أســأل المولى الكريم أن يأخذ بيدك، ويُوفِّقَــك لكتابة وترجمة أعمال نافعة تفيد أمَّتَنا ووطننا المعذَّبَين، في رعاية الله يا ولدي العزيز».

أفكارٌ متباينةٌ بين الشيخَين

كان بين الشــيخَين مصطفى صبري أفندي وزاهد الكوثري أفندي خلافٌ في وجهات النظر حول مسألتَين، تتعلق الأولى بمسألة القضاء والقدر، والثانية بالفكرة القومية.

حين كتبت نسخةً من كتاب «القول الفصل» لصبري أفندي قبل تقديمه للطباعة، بدَت بعد مدة من الزمن ضرورة أن نكتب أيضًا بحثًا من كتاب «موقف البشر تحت سلطان القدر» الذي تناول فيه أستاذُنا مسألة القضاء والقدر، قال الشيخ لي وقتها:

ـ يا بني، لئن كتبت هـذا أيضًا فســتنقذني، وسيكون لك من دعائي نصيب.

فكتبت هذا البحث أيضًا، ولفَتت انتباهي فيه هذه الجملة:

«بعد مغادرتي البلاد ساقني ســير الأحداث من حولي إلى القول بالجبر المتوســط في مســائل أفعال العباد وأعمالهم، بينما ســاق زاهد أفندي إلى مذهب الاعتزال، فافترقَت آراؤنا في هذه المسألة...».

❁ مسألة القدر.. صعبة أم سهلة؟

وقد حمَلَت كلمات أستاذنا صبري أفندي هذه الشيخ زاهد الكوثري على كتابة رسالة سمّاها «الاختصار في مذهب الجبر والاختيار»[1].

---

(١) هكذا أثبت المؤلف عنوان الرســالة في مذكراته، ولكن الاســم المعروف للرسالة هو «الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار».

كان صبري أفنــدي رجلًا حرَّ التفكيــر إلى أبعد الحــدود، فلا يغضب ولا يَســتاء من أيِّ نقد يُوَجَّه إليه، بل كان يحب ذلك ويشكر عليه، ولذلك كان الإنسان يتكلم مع الأســتاذ صبري أفندي براحة تامة دون أي تخوُّف أو تحرُّج.

كان يقول دائمًا: «يا عزيزي، نحن بشر».

وأما زاهد أفندي فكان رجلًا جاوز الحدَّ في اعتزازه بمعرفته وثقته بعمله، فبمجرد أن قال مصطفى صبري أفندي مقولته: «قلت بالجبر المتوسط، وقال زاهد أفندي بالاعتزال»، رد عليه الشيخ زاهد برســالة كاملة يفنِّد فيها قوله، ويدافع عن الصواب الذي يعتقده، ومما قاله في الرسالة:

(قد تناول أستاذنا مفتي الأنام مصطفى صبري أفندي مسألةً واضحة كل الوضوح وكأنها سرُّ الأســرار، وأعقد المشاكل، وأظهر البديهيات في ثوبِ أعوَص المعضلات)[1].

وكان مصطفى صبري أفندي يقول إزاء ذلك:

ـ ما هذا يا عبد الله! ما هذا يا شــيخنا المبارك زاهد أفندي! كيف يمكن لمسألة القدر أن تكون أوضح الواضحات؟ والنبي ﷺ يقول: «سر من أسرار الله»، ولشدة أهميتها أصبحت من شروط الإيمان، فيجب أن تؤمن بالقدر كما تؤمن بالله والملائكة المغيبين والكتب والأنبياء، فما القدر؟ خيره وشــره من الله تعالى، إذن هو موقف الإنســان تحت ســلطان القدر، فأحوال الإنســان وتقلباته تحت سلطة القدر وتأثيره وتوجيهه.

---

(١) لم أهتد إلى هذه العبارة في رســالة الاســتبصار لا بلفظها ولا بمعناها، فيبدو أن بُعد عهد الأستاذ علي علوي بالرسالة حال دون ضبطه في النقل عنها.

❁ لا تُلِحّوا عليَّ كثيرًا، فلن أصير جبريًّا:

عندما قرأ زاهد أفندي كتاب صبري أفندي هذا أرسـل له كتبًا تناول فيها إمام الحرمين والغزاليُّ وعلماء آخرون مسألة القضاء والقدر، وكان مصطفى صبري أفندي يقول:

ـ أرسل لي هذه الكتب وكأنه يقول لي انظر ماذا كتب هؤلاء الكبار حول المسألة، ولا داعي أن تُتعِب نفسك في هذا البحث بعد كل ما كتبوه.

وقد شـهدت بنفسـي بعض المحاورات التي جرت بينهما في عدة مجالس عن مسألة القضاء والقدر، بل إن زاهد أفندي في إحدى المرات قال ضاحكًا:

ـ سيدي، لا تُلِحُّوا عليَّ كثيرًا في هذا الموضوع، فلا يمكنني أن أكون جبريًّا!

وكان زاهد أفندي يشير في كلامه إلى أنّ مصطفى صبري أفندي قد اقترب من فكر الجبرية نتيجة ما مرَّ فيه من تجارب شخصية مؤلمة في حياته، وكأنه يريد أن يقول:

ما الذي حدا بالشيخ أن يميل في مسألة القضاء والقدر عن الجادة؟ فمع أنه كان صاحب قلم بليغ، وعقل راجح، ومنطق مُحكَم، وحُجّة دامغة؛ فإنه لم يتمكن من إعادة الملحِدين إلى جادة الإسـلام، فمـا كان منه إزاء هذا المشـهد إلا أن يقول: إن كان الأمر على هذا النحـو فلا فائدة إذن للحجة والإقناع والمنطق والبيان، وجنح نحو الجبر.

❁ رعاية الأدب(١):

كان الشيخ إبراهيم الختني المدني يُكِنُّ مودة عظيمة للشيخَين مصطفى صبري أفندي وزاهد الكوثري أفندي، ويسارع لاقتناء كتبهما ما إن تصدر عن المطبعة، حتى إن الشيخ زاهد الكوثري كان إذا ألّف كتابًا أرسله ـ بمجرد أن يصله من المطبعة ـ لبعض علماء المدينة المنورة، وفي مقدمتهم الشيخ إبراهيم الختني.



▲ إبراهيم الختني المدني

وعندما كتب الشيخ زاهد كتابه «الاستبصار» في الرد على الشيخ مصطفى صبري أفندي حول مسألة القدر، قال الشيخ إبراهيم بعد قراءة الكتاب:

ـ الشيخ زاهد يقول عن الشيخ مصطفى صبري: «أستاذي»، ولكن ليس من الصواب أن يستخدم التلميذ مع أستاذه مثل هذه اللغة القاسية في الجواب، هذا ما يسمى إساءة أدب، فالشيخ زاهد لم يَرعَ حدود الأدب، وخرج عنها.

❁ لا خلاف في الأصول

ـ لا مشكلة في النقد البتة، فالعلماء منذ القديم يكتبون الكتب ويَخُطُّون الرسائل، يُدوِّن فيها آراءهم ويعرضون أفكارهم ردًّا وجوابًا على بعضهم،

---

(١) أورد علي علوي كلام الشيخ إبراهيم الختني في حق الشيخين في موضع آخر من مذكراته. انظر: (٥: ٤٣).

والخلاف بين الشـيخَين في هذه المسألة خلاف في مسـألة فرعية، ليس ذا علاقة بأركان الإيمان والإسلام، فلا خلاف بينهما في أصل من أصول الإيمان، بل هما متفِقان عليها جميعًا.

الشيخ مصطفى صبري أفندي يقول: «عندما هاجرت من دياري صرت أميل للقول بالجبر المتوسط، وأما الشيخ زاهد فرجَّح رأي المعتزلة في المسألة...».

فكيف بعد هذا القول يستَلُّ الشيخ زاهد قلمه ويُشهِر يَراعه ليَخُطَّ به مثل هذا الرد؟! هذا خلاف مراعاة الأدب[1].

رحمهم الله جميعًا وغفر لهم.

❁ سِرٌّ من أسرار الله:

هذا الموضوع عميق جدًّا ومهم للغاية؛ لهذا فمن العسـير سَـوق جميع الأدلة التي اعتمد عليها الشـيخان في الدفاع عن رأيَيْهما، وإن اكتفينا ببعضها لم نوفِّ المسألة حقَّها، ولم نكشف القناع عنها، لا سـيما أنها مسألة خطيرة تَزِلُّ فيها الأقدام إن فُهِمَت على غير وجهها الصحيح، خاصَّةً أنها مسألة إيمان، لا يصل كثرة التفكير فيها بالمرء إلى حل.

إضافة إلى أن الإنسـان يمرُّ في بعض لحظات حياتـه بمواقف وأحداث يشعر فيها بإرادته تُوَجِّه الأحداث، أو بعجزه المطلَق إزاءها، وعندئذ يدرك أن هذه المسألة مشكلة، وسر من أسرار الله.

فمن يسـترعيه الفضول ولديه المقدرة والوقت الكافيان للغَوص في هذه المسألة من المسلمين يستطيع قراءتها من كتب علماء أهل السُّنة.

---

(١) هنا ينتهي كلام الشيخ إبراهيم الختني رحمه الله كما أورده علي علوي في المذكرات.

النقص في عقولنا:

عندما كنت على وشك مغادرة القاهرة متجهًا إلى المدينة المنورة زرت مصطفى صبري أفندي لأُقَبِّل يدَيه المباركتَين، وأطلب دعاءَه، وأُكحِّل ناظري برؤيته في لقاء الوداع الأخير، ولم يكن في مجلسه أحد غيري، فطال بيننا الحديث، وافترقنا تغمرنا الدموع وتُظلِّلنا الدعوات، وفي هذا اللقاء الأخير فتح باب مسألة القدر أيضًا، وسألني عن رأيي، فأجبته:

- سيدي، لقد قرأت - العبد الفقير - كتابكم مرارًا وتكرارًا، ومن المعلوم أن هناك آيات تشير إلى أنه لا يقع في الكون شيء إلا بإذن الله، وإلى جانب هذه الآيات، نعم، لدينا آياتٌ تشير إلى أن الله يهدي لنوره من يشاء، ويحرم نورَه مَن يشاء، فهذا سرٌ مبني على حِكمة لا يمكن فتقُ حُجُبِها ولا استشفاف كُنهِها، ولكن تمام الآية يقول لنا أيضًا: إنكم ستُسألون عن أعمالكم.

سيدي، لا يمكن أن يقع تناقُض بين تدبير الله ومُلكه من جهة، وبين إرادته وصفاته من جهة ثانية، إنه بريء تمامًا من كل تناقُض أو تعارُض أو اختلاف، ومع ذلك، فإن عقل الإنسان يقف عاجزًا عن إدراك غَور هذا الأمر، ولا يقدر وحدَه على استجلاءِ كُنهِ هذا السرِّ الإلهي.

بالتأكيد، ليس ثمة ظلمٌ أو تناقضٌ البتة، وإنما يكمن النقص في عقولنا التي تعجز عن حلِّ الإشكال أو فهم مَكْمَنه، فالقدر مثل الروح، مثل الولادة والموت، هو سِرٌّ من أسرار الله.

بيت من شعر محمد عاكف:

قال الشاعر الراحل محمد عاكف في قصيدته «توحيد أو استصراخ»، بعد أن استعرض صفحات حياة الإنسان وأخلاقه وأفعاله، فذكر كيف يقف العقل أمام هذا كله دون أن يستطيع إدراكه وفهمه قائلًا:

«أنا لست جبريًّا يا إلهي، لكن لو كنت كذلك بعد كل هذا فما ذنبي؟».

عندما قلت هذا ردَّ مصطفى صبري أفندي قائلًا:

ـ قد أدرك الشاعر المسألة على نحو أفضل من العالِم، إيمان الشاعر أقوى.

وبعد أن انتقلت إلى المدينة المنورة وكان هو في القاهرة كتب مُتَلَطِّفًا معي ومشجِّعًا لي:

ـ لم يكن يفهم ويتقبَّل رأيي حول مسألة القضاء والقدر أحدٌ غيرُك من علماء العصر.

۞ مزالق الأقدام:

كنا قد تكلَّمنا مع أستاذنا إحسان أفندي حول هذه المسألة التي أثارت هذا السجال الطويل بين مصطفى صبري أفندي والشيخ زاهد الكوثري، فعقَّب بقوله:

ـ يا أولادي، لقد قلت لكم منذ سنوات عبارةً يصحُّ أن تُطلَق على مثل هذه النقاشات «مزالق الأقدام»، وتعني مجازًا تلك المسائل العلمية الدقيقة والخطيرة التي يعتورها احتمال كبير للانزلاق إلى الخطأ أثناء النقاش والجدال، ومسألة القدر واحدة من تلك المسائل.

فهناك مئات آلاف المسائل الدينية والعلمية يتفق العلماء عليها، ولكن إلى جانبها أيضًا بضع مئات من المسائل المهمة، وغالبها مسائل تفصيلية، لا يمكنهم التوصل إلى توافُق بشأنها، فكلٌّ من الطرفَين يُدلِي فيها بدليل وحجة.

ولهذا السبب ظهرت كلُّ هذه المذاهب التي يَعُدُّها المسلمون مذاهب حقٍّ وصواب، وفي النهاية ـ كما تعلمون ـ اجتمعت هذه الاختلافات

تحت مظلّة المذاهب الأربعة، وجميعها تستقي من مَعِين كلام الله ﷻ، وسنة النبي ﷺ.

حتى بين أولئك الذين ينتمون إلى المذهب نفسه، ويتفقون على الآراء نفسها، قد تظهر اختلافاتٌ قليلة في بعض المسائل الدقيقة، على سبيل المثال، حدثت نقاشاتٌ بل وخلافاتٌ بين الإمام محمد والإمام أبي يوسف؛ الإمامَين الكبيرَين للمذهب الحنفي.

ستظل مسألة القدر سِرًّا:

فكانت مسألة القدر إحدى المسائل المهمة التي تسبَّبَت في اختلاف وجهات النظر بين أستاذَينا مصطفى صبري أفندي وزاهد الكوثري أفندي، حيث اتفقا في آلاف المسائل، إلا أنهما لم يصلا إلى رأي واحد في مسألة القدر.

ولم يكن ثمة اختلاف بينهما في مسائل الأصول، أو الفرائض أو السنن، أو حتى في الأعمال المندوبة والمستحبة في الدين، إلا أنهما تبايَنَت آراؤهما في هذا الموضوع، وينبغي ألّا يَثلُم هذا التباين بين الشيخَين في مسألة القدر شيئًا من عظمة شخصيتَيهما، واحترامنا وإعجابنا بهما.

وكما قال الشاعر ضياء باشا:

كم قافلة مرت، من حكماء وفضلاء ولم يحلَّ سِرَّ هذا اللغز أحد

فمسألة القدر ستظل سِرًّا دائمًا؛ لأنها لغز يَفُوق مستوى تفكير الإنسان وإدراكه.

قضية القومية(١)

المسألة الثانية التي اختلف فيها الشيخان الجليلان، ولم يلتقيا، هي مسألة الفكرة القومية.

فلم يكن مصطفى صبري أفندي يسأل أحدًا عن جنسيته، ولا يتعقّب ذلك أو يُوليه أي أهمية، فقد كان ابن عائلة تركية من مدينة توقاد، يُكِنُّ

(١) في اتهام الشيخ زاهد الكوثري بالتعصب لقوميته الشركسية مجانبة للصواب ومبالغة نأت بالأستاذ علي علوي عن الإنصاف، كما كان يرى ذلك الأستاذ العلامة محمد أمين سراج آخر مدرسي جامع الفاتح باستانبول، وأحد طلاب الشيخ زاهد الكوثري، فكان الأستاذ محمد أمين سراج يتعجب من هذه التهمة ولا يرى في الفترة التي قضاها بصحبة الشيخ زاهد في القاهرة أو فيما سمعه عن طلاب الشيخ القدامى ما يدل عليها أو يوحي بها، كما أخبرني بذلك الشيخ فروخ أرن إمام جامع تشله خانه في أسكودار، والدكتور فاتح قايا أستاذ الحديث بكلية العلوم الإسلامية في جامعة السلطان محمد الفاتح، وقد أردت بإيراد هذه الشهادة عن الأستاذ أمين سراج إثبات رأي آخر لطلبة الشيخ زاهد الكوثري، حتى يكون الباحثون على بينة من الأمر ولا يقتصر حكمهم في المسألة على رأي الأستاذ علي علوي فقط.
وقد حارب الشيخ نفسه نعرة القومية ونعى على من يثيرها أو يدعو إليها، فيقول: (وإنما المُنكَر هذه الدعوى، دعوى الجاهلية الأولى والدعاية لها... وطرْق أبواب القوميات الممقوتة فخٌّ نصبه الغرب للشرق فتردى في هذه الهوة السحيقة من أراد الله هلاكه من الشعوب، وليس من مصحلة الإسلام ولا من مصلحة العروبة ولا من مصلحة الشعوب في شيء طرق هذه الأبواب، ولا هذا من شأن من يعتقد انتهاء شعوب البشر إلى نفس واحدة أو يرى الإخاء الإسلامي شيئًا يُذكَر)، ويرى الشيخ أن تذكير كل قوم بمزاياهم سبب من أسباب استثارة هممهم للعلياء وليس وسيلة للتعصب المقيت، فيقول: (وما من شعب إلا وله مناقب ومثالب، والرجل المخلص لشعبه وللإسلام هو من يذكر مناقب أسلافهم ومفاخر آبائهم من غير بخس لحقهم استنهاضًا لهممهم إلى المعالي، وينبههم على مثالبهم من غير تحريف، ليتوقَّوها فيخلد لهم المجد على منصة الدهر). انظر صفعات البرهان على صفحات العدوان ص٢٩، ٣٠.

الحبَّ لكلِّ شاب مسلم يقيم فرائض دينه، ويؤدي حقوق الله عليه، أيًا كانت قوميته أو عِرقه.

وأما الأتراك الذين لا يؤدُّون فرائض دينهم ولا يحتلُّ الدين في حياتهم الأولوية القصوى فلم يكن يلتقي بهم، بينما كان يُفضّل اللقاء بالشباب المتدين، أيًا كانت أصولهم وأعراقهم، ألبانًا أو أكرادًا أو بوسنيين أو شراكسة أو عربًا أو أفارقة، فيزورهم في مساكنهم، ويجتهد أن يُدخل السرور عليهم بمُجالستهم والاستماع إليهم.

وبالمقابل كان هؤلاء الشبان يشعرون بالفخر عندما يشرِّفهم «شيخ الإسلام» بالزيارة، ويَسْعَدون بذلك أيَّما سعادة، ويقولون:

«لقد شرَّفَنا فضيلة شيخ الإسلام اليوم بالزيارة».

وكانوا يَعجَبون لشدة تواضع هذا الشيخ الجليل وقد ناهز التسعين من العمر قائلين:

«كيف لهذا الرجل الجليل القدر، آخر شيوخ الإسلام، وهو في هذه السن التي قاربت التسعين أن يتنزَّل ويتفضَّل بزيارتنا في غرفتنا البسيطة؟».

بالطبع، لم يكن هذا أمرًا سهلًا، ولم تأتِ مكانة الشيخ مصطفى صبري أفندي وجلالته من فراغ، لم يكن رحمه الله يُعِير الاسم والمكانة والشهرة والمقام أيَّ اهتمام، بل كان يفيض قلبُه حُبًا وتعظيمًا لكل صالح متديِّن حَسَن الخلق، ولا يتحدث أو يتصرف لمصلحة شخصية، ولا يُخفِي بُغض أحد ولا حُبَّه.

شركسية الشيخ زاهد الكوثري:

بينما كان الشيخ زاهد الكوثري يميل لكلِّ مَن هو من أصل شركسي، ويدعمُه دون تمييز بين صالح وطالح.

كان «رُواق الأتراك» مكان إقامة الطلاب الأتراك المنتسِبين للأزهر، وكان يُطلَق على مدير هذا المكان «شيخ رواق الأتراك»، عندما ذهبت إلى القاهرة كان شيخ الرواق آنذاك رجلًا تقدَّمَت به السن، اسمه أحمد جوجونوك، صهر أستاذنا الشيخ زاهد الكوثري، وكان من أصل شركسي، ولذلك كان في السكن طلاب شركس أيضًا.

وعندما توفي أحمد جوجونوك كان يُراد وقتها تعيين إحسان أفندي مكانه، فإن لم يقبل فتعيين صهر مصطفى صبري أفندي علي زكي أفندي القونيوي، وكان الطلاب يريدون تولي إحسان أفندي للوظيفة؛ لأنهم بذلك يستفيدون منه أيضًا في القراءة عليه.

وفي هذه الأثناء جاء بعض الشركس، وحثُّوا زاهد الكوثري أفندي للتوسط لهم مع رجال القصر لتولِّي إدارة المكان، حيث كانت تربط زاهد أفندي برجال القصر الشراكسة علاقة جيدة، مثل مُديرَي قصر الملك فاروق، وإسماعيل تيمور باشا المسؤول عن تشريفات القصر، وكان محبوبًا ومقرَّبًا من الملك فاروق.

عندما توسط زاهد أفندي للشراكسة لدى إسماعيل باشا، وأبلغه مرادهم، سارع الباشا لتحقيق ذلك، ونشرت الصحف قرار القصر بتعيين عبد الحميد طاهر، وهو عالِم أزهريٌّ من أصل شركسي، مكان الشيخ المتوفى.

۞ أمور تافهة لا تليق برجل جليل:

كان عبد الحميد طاهر من أساتذة الأزهر، إلا أنه لا يُقارَن علمًا وفضلًا وعملًا بإحسان أفندي الذي كان يبزُّه بأشواط.

وعندما زرت مصطفى صبري أفندي، قال:

ـ لا يليق برجل جليل القدر أن يشتغل بمثل هذه الأمور التافهة! فزاهد أفندي يعرف حق المعرفة قدر إحسان أفندي، وأنه يفوق عبد الحميد طاهر بمراحل، سامحه الله، كيف طاوَعَته نفسه أن يسعى في حرمان إحسان أفندي من هذه الوظيفة برجاء ثُلّة من عوامِّ الطلبة؟

إن مثل هذه الأمور التافهة لا تليق برجل جليل القدر كالشيخ زاهد أفندي، فهل يَلِيق بي الآن أن أتجاهل علي يعقوب أفندي وحسين لطيف أفندي وفاضل أفندي، وأُعرِض عنهم لأنهم يوغسلافيون أو ألبانيون؟ وأُقرِّب الأتراك وأدعمَهم مع أنهم لا يأتون المسجد ولا يحترمون آداب الإسلام، ولا يباركون لي بأعياد المسلمين؟ إذن أين نحن من جوهر الإسلام يا عزيزي، هل سيبقى منه شيء في حياتنا اليوم!

ما كتبه المؤرخ المصري:

وقد اتَّضح أنّ انحياز زاهد أفندي للشركس، وإيثارَه إياهم دون غيرهم، قد أثر أيضًا على رؤيته للتاريخ؛ إذ لم يكن مثل هذا الأمر معروفًا من قبل، إلا أن ذلك ظهر في رسالته التي ردَّ فيها على مصطفى صبري أفندي حول مسألة القدر، حيث اتَّضح أنّه كان يحمل في نفسه شيئًا على مصطفى صبري أفندي جرّاء حادثة وقعت سابقًا.

وذلك عندما تناقلت الصحف المصرية أخبار تجاهُل تركيا مدَّ يدِ العَون والمساعدة لبعض البلدان الإسلامية المنكوبة.

فكتب ـ على إثر ذلك ـ المؤرخ المصري محمد عبد الله عنان مقالًا في جريدة الأهرام اليومية[1]، وختمها بالقول:

(١) نشر المقال في مجلة الرسالة تحت عنوان «حرب منظمة يُشهرها الكماليون على الإسلام»، في العدد ٨٠ الصادر بتاريخ ١٤ يناير ١٩٣٥.

«ولن يضير الإسلام أن تسقط من عِداده تركيا الكمالية، وإذا كان الإسلام لم يعتزَّ قطُّ بتركيا يوم كانت دولةً قوية شـامخة، فكيف يحاول اليوم أن يعتزَّ بهذه البقية الضئيلة من تركيا القديمة؟».

فاستاء صادق صبري بك من المقال، وأرسله إلى الشيخ مصطفى صبري أفندي ملتمسًا منه الرد عليه، فردَّ الشيخ على المقال ونُشر لاحقًا.

❁ ماذا استعمر العثمانيون في هذه البلاد؟

واختتم شيخ الإسلام مقاله بالقول:

«لربما كان مفهومًا أن تأتي مثل هذه الدعاوى والاتهامات من المسيحيين والأوروبيين الذين ذاقوا حَرَّ سيف العثمانيين، أما أن يكتب مثل هذه المزاعم مسـلمٌ من الكُتّاب المصريين الذين عاشـوا في ظل الدولة العثمانية لقرون طويلة، فهذا أمر لم يدُر في خلدي يومًا».

«هل من أمة تعرَّضَت لكل هذه الاتهامات الظالمة والافتراءات الباطلة كما تعرض لها العثمانيون؟ هل من أمة جهل الناس قدرَها ومكانتها كالعثمانيين؟ ثم يأتي الكُتّاب العـرب المتأثـرون بالإنجليز، والمدفوعـون منهم ليَصِفوا العثمانيين بأنهم محتلون مستعمِرون...».

«أيها الناس، أسـألكم، ما الثـروات التي نهبهـا العثمانيون من هذه الأراضـي؟ وكم هي الأمـوال التي سـرقها العثمانيون من هـذه البلاد؟ وما الضرائب الظالمة التي فرضوها؟ ماذا كان في هذه البلاد آنذاك؟ فالنفط لم يخرج في عصر العثمانيين، ماذا كان فـي هذه البلاد يومها غير التمور والجمال والرمال؟».

❁ التضحية من أجل الخلافة:

«على العكس من ذلك، فإن السلطان سليم بتسلُّمه مقاليد الخلافة، وتحمُّله أمانة الدفاع عن كل المسلمين، قد استعدى العالم بأسره، ووقف سدًّا منيعًا في وجه القوى الراغبة بغزو العالم الإسلامي واحتلاله، وهكذا ضحَّى العثمانيون بكلِّ ما يملكون من أموال وأرواح وذُرِّية في سبيل حماية المسلمين على مرِّ العصور.

وكانوا يرون قيامهم بهذا الواجب أمرًا طبيعيًّا، فحُبُّهم لدين الله والجهاد في سبيله أنساهم كل ما سواه، ولم ينساقوا وراء الحسابات المادية والدنيوية، وقد تبنَّوا هذه الرؤية وتناوَبوا على حمل هذه الراية منذ عهد عثمان غازي، ومرورًا بأورخان ومحمد الفاتح وسليم الأول وسليمان القانوني... وصولًا إلى عبد الحميد».

فقد كانت التضحية في سبيل الإسلام والخلافة شعار العثمانيين الترك عبر التاريخ، وتحمَّلوه على كواهلهم واجبًا دينيًّا، ومهمة مقدسة لحماية المسلمين ومدنهم، وانصبغوا به، حتى صار بَذلُ الغالي والرخيص في الدفاع عن الإسلام وحماية الخلافة شعار الشعب التركي، ولذلك فإنَّ مَن يقف ضد العثمانيين موقف العداء والافتراء والتشويه إنما هم الكفار الذين وقف العثمانيون في وجوه أطماعهم عبر التاريخ، ولكن للأسف يبدو أن عدوى هذا الوباء قد سرت للمصريين أيضًا!».

وإذ بدفاع مصطفى صبري أفندي ومدحِه للأتراك عامةً، وللسلطان سليم خاصة، قد أزعج الشيخ زاهد وأثار حفيظته، ولذلك في ردِّه على موقف صبري أفندي من مسألة القدر يسوق الكلام إلى هذه النقطة ويقول:

«وقد مرَّت على مولانـا مفتي الأنام أحداثٌ أدَّت به إلى الاسـتقالة من قوميَّته في غير أسًى ولا أسف بقصيدة رنّانة نشرها في جريدته، ولكن سرعان ما انقلب مولانا الأستاذ، وتراجَع بعد أن حلَّ بمصر، حيث لم يصبر على نقد بعض الكُتّـاب، فأخذ يناصر الصقـر المنقضّ في القرن العاشـر على مصر الإسلامية أثناء انشغالها بالذبِّ عن السواحل اليمنية، فهل يُعقَل أن يُمدَح هذا الصقر المنقضُّ بعد كل ما اقترفه من مظالم، وخاصةً إعدامه لبطل عظيم مثل طومان باي؟ فيكون الأستاذ الهُمام قد أفلت بذلك من يده زمام الحكم النزيه في الحالتَين تحت تأثير العواطف العنصرية!».

❁ عظمة السلطان سليم الأول:

شـعر ميرآلاي صادق صبري بك بالحزن والاستياء الشديدَين لاستخدام الشـيخ زاهد عبارة «الصقر المنقض» في وصف السلطان سليم، وبقي ذلك غُصّة في قلبه طيلة حياته، فقال في يوم من الأيام:

«لم يكن السلطان سليم مجرَّد قائد شجاع فحسب، بل كان ـ مثل السلطان محمد الفاتح ـ سـلطانًا بعيد النظر، بصيرًا بعواقب الأمـور وأغوارها، وكان رجل دولة من الطراز الرفيع، يرى أمارات المخاطر، ويستشـعر مكامنَها قبل وقوعها، وهذه من أجلى الصفات التي ينبغي أن يتميَّز بها أهل السياسة ورجال الدولة عن غيرهم، القدرة على استشـعار الأحداث المستقبلية المحتملة من خلال بعض ما يستشِفُّونه من إشارات وأمارات، واتخاذ ما يلزم من إجراءات وتدابير احترازية.

وقد رأى السلطان سليم واستشـعر ببصيرته النافذة الأفخاخَ التي تنصبها إيران للدولة العثمانيـة، وتلمَّس خيوط مكائدها التـي تَحِيكها حول دولته،

وكانت دولة المماليك في مصر تُقدِّم يد العون لإيران في مساعيها ضد الدولة العثمانية، أملًا في هزيمتها وتدميرها، والتخلُّص من خطر توسُّعاتها.

فعلى إثر ذلك قاد السلطان سليم حملةً عسكرية ضخمة، وأوقع بإيران شرَّ هزيمة في معركة جالديران، إلا أن الشاه إسماعيل بعد فراره من المعركة، ونجاحه في استعادة زمام الأمور في عاصمة ملكه، استمر في المراسلة مع دولة المماليك للتعاون على الهدف نفسه».

خطر الشيعة:

«ولم تكن قد اكتملَت بعدُ وحدةُ أراضي الأناضول تحت راية العثمانيين آنذاك، وكانت التهديدات الشيعية تُطِلُّ برأسها دائمًا، ودولة المماليك تستمر في توسُّعاتها حتى وصلت حدودُها إلى الأناضول، وسيطرت على مدينة ملاطية، ولم يكن من الحكمة استصغار هاتَين القوَّتين؛ فإن اجتماعهما سيُحكِم الخناق على الدولة العثمانية، ويشكِّل تهديدًا حقيقيًا لها، ولذلك كان هاجس العثمانيين منع تحالُف هاتَين الدولتَين، وبعد عامَين فقط من معركة جالديران خاض العثمانيون معركةً شرسةً ضد الصفويين في إسكي قوج حصار قرب ماردين، وهزموهم هزيمة موجعة.

ثم حان الوقت للتعامل مع دولة المماليك المنافسة في مصر، فبعد عدة أشهر فقط من معركتهم مع الصفويين قرب ماردين انطلقت حملةٌ عسكرية نحو مصر، وحققت أولى انتصاراتها في مرج دابق على مشارف حلب، وأقامت الحملة في الشام فترةً من الوقت، تُعِدُّ العُدّة، وتهيئ جيشًا يقارب تعداده ستين ألف مقاتل ومئات المدافع لعبور صحراء التيه وسيناء بغية الوصول إلى القاهرة».

❁ إعدام سفراء الدولة العثمانية:

«في معركة مرج دابق مات سلطان المماليك قانصوه الغوري، وتولّى مقاليد الحكم مكانه في القاهرة طومان باي، فأرسل السلطان سليم ـ قبل انطلاق الجيش من الشام ـ إلى طومان باي وفدًا من السفراء بقيادة أمير شركسي، وعرضوا عليه البقاء في منصبه مقابل مبايعته السلطان والدخول تحت حكم الدولة العثمانية، ولكن للأسف قتل قادةُ المماليك هؤلاء السفراء بعد لقائهم بطومان باي، وخروجهم من مجلسه، ولم يكتفوا بذلك، بل قتلوا أيضًا وفدًا آخر من السفراء العثمانيين الذين أُرسِلوا إلى المماليك لاحقًا».

❁ لماذا أُعدِم طومان باي؟:

«نجح السلطان سليم ـ بعد تأمين إمدادات المياه بآلاف الجمال ـ في عبور الصحراء بسرعة خاطفة خلال أيام قليلة فقط، ودخل مصر، وهزَم طومان باي وجيشَه في معركة الريدانية.

لا شكّ أنّ طومان باي كان رجلًا شجاعًا، وبطلًا عظيمًا، حتى إنه نجح بعد هزيمته وفراره، في أن يستعيد زمام المبادرة، ويجمع جيشًا قارب العشرة آلاف مقاتل استعادَ بهم القاهرة مرة ثانية، إلا أنه لم يلبَث أن هُزِم وأُلقي القبض عليه، وسِيقَ أسيرًا إلى السلطان سليم، فاستقبله السلطان استقبالًا يليق ببطل مثله، واستضافه في القصر، وأُقِيمت الموائد العامرة على شرفه.

إلا أن انتشار شائعات تحوم حول فرار طومان باي من الأسر، ودعوته جندَه أن يجتمعوا مرة ثانية لاستعادة القاهرة من أيدي العثمانيين، أدّى لاندلاع بعض الاحتجاجات والاشتباكات هنا وهناك، فلم يكن أمام السلطان سليم لإخماد هذه الاضطرابات من بُدٍّ إلا إعدام طومان باي

وعَرْض جُثَّته أمام الخلق، ليكبح بذلك أي رغبة في التمرد، أو التفكير في مواجهة الدولة الجديدة.

هذه هي السياقات التي جرت فيها الحادثة تاريخيًّا، كم كنا نتمنى ألّا تنشَب مثل هذه الحرب بين دولتَين مسلمتين سُنيَّتَين، وليت بطلًا عظيمًا مثل طومان باي لم يُعدم، ولكن صفحات التاريخ لا تدوَّن بليت وليت، ما حدث كان نتيجة للظروف القائمة آنذاك، فنترحَّم عليهم جميعًا، هذا ما يجب علينا ويليق بنا.

أما الآن، وبعد مرور أربعمئة عام على تلك الأحداث، لا يزال هناك من ينطلق من مشاعر قومية وتعصُّب عِرقي ليدافع عن طومان باي، ويستدعي مظلوميته، ويشوِّه سمعة رجل عظيم مثل السلطان سليم الأول، بل ويتهمون مَن يمدحه ويُثني عليه، فهذا هو الخطأ بعينه، ولا يليق مثل هذا الموقف بشيخنا زاهد دوزجه لي».

❀ انتقال الخلافة الإسلامية إلى العثمانيين:

بعد أن عرض صادق صبري بك رأيه هذا شرح كيف انتقلت الخلافة الإسلامية من يد آخر خليفة عباسي ـ وكان مقيمًا في القاهرة تحت سلطة المماليك، ويحمل هذا اللقب شكليًا، وليس له أي تأثير فعلي على الأرض آنذاك ـ إلى السلطان سليم، وتسليمه الأمانات المقدسة إشارةً إلى تولِّيه مقاليد الخلافة، وتحمُّله لأعبائها، فقال:

«مع أن الخلفاء العباسيين كانوا يقيمون في القاهرة عاصمة المماليك لسنوات طويلة، فإنّ أحدًا منهم لم يفكر في نقل الخلافة إلى سلطان مملوكي، تحت ذريعة امتلاك المماليك القوة الفعلية على الأرض، وأن الخليفة الذي

لا يملك لا يحكم، وذلك لأنهم لم يـرَوْا فيهم القوة والسلطة التي تجعل لكلمتهم وقعًا وأثرًا في نفوس جميع المسلمين، ولكنهم لما رأوا هذه القوة والسلطة في السلطان سليم وفي العثمانيين، قرَّروا إيداع هذه الأمانة لديه، فعلينا بعد الآن أن نتعتق من أسْر تصوُّراتنا الشخصية عند النظر إلى هؤلاء العظماء الذين قدَّموا خدمة الإسلام على كلِّ شيء آخر».

❁ الاستقالة من القومية التركية:

أما مسألة «استقالة مفتي الأنام من قوميته التركية من غير أسف ولا أسًى...»، ثم عودته إلى تَبنِّيها مرة ثانية، كما طرحها الشيخ زاهد عندما انتقد مصطفى صبري أفندي، فجذورها على النحو الآتي:

عندما هاجر شيخ الإسلام السابق مصطفى صبري أفندي من تركيا بعد عام ١٩٢٢، أسَّس جريدة «يارين» (الغد) في مدينة إسكتشة، وعندما قامت حكومة أنقرة بحملات شرسة ضد الدين في تركيا، كتب الشيخ بعض المقالات والقصائد ضد هذه التوجهات الجديدة، وكان مما جاء فيها:

«إنهم مع هذه الحملات الممنهَجة يَسلَخون الشعب التركي عن إسلامه، ولا حاجة بي لانتمائي التركي حين ينفصل عن الإسلام، ولئن كان التخلِّي عن الإسلام شرطًا لاحتفاظي بهويَّتي التركية أمام هؤلاء فإني أُعلِنها مدويةً ترتَجُّ لها الآفاق، أنسلخ عن هويتي التركية ولا أنسلخ لحظة عن ديني وإسلامي.

أنا إنسان تشرَّبَت روحُه الإيمان بالحساب واليوم الآخر، ولن أُسأل يوم القيامة عن هويتي وقوميتي التركية، بل سأُسأل عن الإسلام، ولن أنادى يومئذ: تعالَ يا تركي، بل سأُنادى على رؤوس الخلائق: تعالَ يا مسلم».

فلما كتب مصطفى صبري أفندي ما كتبه آنذاك كان يرمي لإيضاح حقيقة مهمة لا بد أن تترسَّـخ في وجدان المسـلم التركي، وهي أن الهوية التركية لا يمكن فصلها عن الإسـلام بحال، وأن مقام الدين أعلـى وأَجَلُّ من مقام الهوية والانتماء للقوم عند التعارض، وليس كما حاول الشيخ زاهد الكوثري أن يعرضه ويصوِّره.

❊ ❊ ❊

من فضائل شيخنا زاهد الكوثري

إذن كما رأينا كان بين الشيخَين زاهد الكوثري أفندي ومصطفى صبري أفندي هذا الخلاف الذي عرضنا له في مسألتين اثنتين: مسألة القضاء والقدر، والفكرة القومية.

ولكنهما كانا في أحاديثهما ولقاءاتهما ومجالسهما يتعاملان فيما بينهما بغاية الاحترام والود، ولا يُظهر أحدهما للآخر سلوكًا مسيئًا أو كلمة جارحة أبدًا.

لقد زُرنا الشيخ زاهد الكوثري مرارًا وتكرارًا خلال ست سنوات ـ مدة إقامتي في القاهرة ـ واستفدنا من مجالسه ومواعظه ونصائحه، وكان يعاملنا نحن الطلاب الأتراك بكل لطف، ويُولِينا كلَّ رعاية، وعندما يَعُجُّ مجلسه بالعلماء والصحفيين المصريين كان يُجلِسنا في صدر المجلس ويقول:

ـ أقدِّم هؤلاء الشباب إلى صدر المجلس إجلالًا لما تشرَّفَت به قلوبُهم من القرآن الكريم، إنهم أهل القرآن، فأنا لم تُسعِفني الظروف ـ للأسف ـ لأكون حافظًا، ولكن فؤادي يفيض حبًا وإجلالًا للحُفّاظ.

وبعد أن تمضي ساعاتٌ من الحديث، كان يلتفت إلينا قائلًا:

ـ لقد خُضنا كثيرًا في أحاديث الدنيا، هيا أيها الحُفّاظ، عطِّروا مجلسنا بعَبَقِ كلام الله ﷻ، هلا أرَحتُم أفئدتنا بتلاوة عَشر من القرآن الكريم؟

ثم يطلب مني ومن مصطفى رُنيون بك صاحب الصوت الجميل أن نقرأ آيات من القرآن الكريم.

كنا دائمًا نُكِنُّ لشيخنا كلَّ محبة واحترام، ونعلم يقينًا أنّ ميله لأبناء قومه الشركس لا يُقلِّل من محبته لنا ولجميع إخوانه المسلمين.

۞ شيخنا زاهد أفندي والمذهب الحنفي:

كان شيخنا زاهد الكوثري مثلنا جميعًا، ومثل أستاذنا مصطفى صبري أفندي ينتسب إلى المذهب الحنفي، وفي ذات يوم حين كنت مع أصدقائي في مجلس شيخنا صبري أفندي وَرَدَت على خاطري نكتةٌ تتعلَّق باختيار زاهد أفندي لهذا المذهب دون غيره، وقُلتها، فضحك شيخ الإسلام كثيرًا، وقال:

ـ عفا الله عنك يا رجل، كيف لك أن تلقي مثل هذه النكتة؟ انتبه فهذا مما لا يليق، وإياك أن يسمعها زاهد أفندي، وإلا حنق عليك.

قلت حينها في نكتتي:

ـ كما تعرفون أن شيخنا زاهد أفندي كان شديد التمسك بالمذهب الحنفي والدفاع عنه، ولا يفتأ يقدم دلائل قوية لنُصرته والردِّ على منتقِصيه، وكان يقول: الإمام الأعظم أبو حنيفة أول فقيه في التاريخ، وبه بدأ الفقه، استوعب كل المسائل الشائعة في العالم الإسلامي آنذاك، وأفتى فيها اعتمادًا على الدين، ثم حدَّد مكانة كل مسألة فيه، فبَيَّن الواجبات والمستَحَبّات والسنن ومايَزَ بين مستوياتها.

كان دفاع شيخنا قويًّا، وحججه دامغةً مقنعة، لا شكَّ في ذلك، ولكن أرى أنّ هناك سببًا آخر لهذا.

وكأني بأستاذنا لو سألته عن سر انتسابه لهذا المذهب لقال: لو لم يكن المذهب الحنفي أفضل المذاهب لما انتسب إليه قومي النجباء

الشراكسـة، لا بدَّ أنّ المذهب الذي اعتنقه شـعبي وقومي هو بالضرورة أقوى المذاهب.

عندما قلت ذلك ضحكنا، فعقب شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ـ عفا الله عنك يا بني، انتبه، فهذا مما لا يليق، وإياك أن يترامى إلى سمع الأستاذ زاهد أفندي شيء من هذا، وإلا حنق عليك.

رحمهم الله جميعًا، وأنزل على قبورهم الضياء والرحمة والنور.

الفهارس العلمية للكتاب

- فهرس الأعلام
- فهرس الأماكن
- فهرس المؤسسات والجماعات والدول
- فهرس الكتب والمجلات
- فهرس الأحداث التاريخية
- فهرس التراجم الواردة في التعليقات
- فهرس المصادر والمراجع
- فهرس المحتويات

فهرس الأعلام

أ

- إبراهيم الختني المدني ٣٢٠.
- إبراهيم بن مصطفى صبري ٧، ٢٥، ٣١، ١٠٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٣، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ٢٠٧، ٢١٢، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٦٥، ٢٧٠
- إبراهيم تيمو ٦٤، ٦٥
- إبراهيم حقي القونوي ٩٨
- إبراهيم حقي أفندي ٢٨١
- إحسان اليوزغاتي ٢٣، ٢٥، ٦٠، ٦٣، ٨٧، ١٩١، ١٩٥، ٢٢٩، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٨٢، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٢٨
- إسماعيل الأزهري ٢٣
- إسماعيل الصفوي (الشاه) ٣٣٢
- إسماعيل تيمور ٣٢٧
- إسماعيل حقي الإزميري ٢٣٨
- إسماعيل حقي المناستيري ٢٩٥، ٢٩٦
- إسماعيل حقي بركت زاده ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤
- إسماعيل زهدي الشكمجه لي ٢٨١
- إسماعيل فني أرطغرل ٢٣٩
- إسماعيل كومولجينلي ٥٤، ٥٥، ٥٦
- أحمد أفانج حسين ٢٨٢
- أحمد بن إسماعيل الكوراني ١٤١، ١٤٢، ١٤٣
- أحمد توفيق باشا (الصدر الأعظم) ٢٨٢
- أحمد جوجونوك ٣١٤، ٣٢٧
- أحمد حمدي طوباش ٤١، ٤٣، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٣، ١٢٣
- أحمد خيري باشا ٢٨٢
- أحمد داود أوغلو ٢٣
- أحمد رافع الطهطاوي ٢٨٢
- أحمد زونيه زاده ٢٩
- أحمد عاصم الكومولجينيلي ٢٩، ٦٤، ١٦٤، ٢٦١

• أحمد نعيم بابـان زاده ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٦١، ٢٩٤، ٢٩٥
• أرطغرل دوز داغ ٢٦
• أمين الحسيني ١٨٥، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٤
• أنور باشا (وزير الحربية) ٨٢، ٨٤
• أوخان غازي (السلطان) ٣٣٠
• أويس أفندي ٤٦، ٩٩
• أبو أيوب الأنصاري ٨٣
• آدم (عليه السلام) ٩

ب

• بيازيد (السلطان) ١٠

ت

• توفيق فكرت (الشـاعر) ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢
• تيودور هرتزل ٢٠٨

ج

• ابن جرير الطبري ١١
• جعفر الكتاني ٢٨٢
• جلال (خطيب مسـجد حـي مصطفى صبري) ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩
• جلال الدين الرومي ١٤٥
• جمال عبد الناصر ١٨٦
• جناب شهاب الدين ١٩٨، ١٩٩
• الجويني ٣١٩

ح

• حسـن البنـا ٢٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨
• حسن بن علي الكوثري ٢٨٠، ٢٩٨
• حسن حلمي القسطموني ٢٨١
• حسين الشـريف ٨، ٣١، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣
• حسين بيرة لي (القارئ) ٢٥٧
• حسين جاهد يالجين ١٩٧، ١٩٨
• حسين سرت ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩
• حسين عوني ٨٤
• حسـين لطيف اليوغسـلافي ١٦٦، ٣٢٨
• حسين هيكل ٣٢، ٣٣، ١٧٩، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٤
• حسين وجيه الأسكوبلي ٢٨١
• حنظلة بن أبي عامر (غسـيل الملائكة) ٢٠٣، ٢٠٤
• أبو حنيفة ٦٩، ٣٣٨

خ

• خلوصي بايبال ٢٤٩
• خلوصي بك (الخطاط) ٩١
• خلوصي طوباش ٤٦، ٦٠، ٦٣

• خليل الكارين آبادي ٢٨١

د

• دولت أفندي النقشبندي ٢٨٠

ر

• رضا توفيق ٢٥، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٩، ١١١، ٢٧٣
• رضوان محمد رضوان ١٢
• رفعت باشا بيلي ١٠٧
• رفيق خالد كراي ١٠٤، ١٠٩

ز

• زفر (صاحب أبي حنيفة) ٦٩
• زكي بك (صهر مصطفى صبري) ١١٣، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٠، ١٨٦
• زنبيلي أفندي (شيخ الإسلام) ٢٣٧
• زين العابدين بن بهاء الدين بن مميش ٤١، ٤٦، ٥٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٩، ١١٨، ٢٦١

س

• سامي أفندي (القارئ) ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٠
• السرخسي ٩
• سعد الدين التفتازاني ٢٥٢، ٢٩٧
• سعد الدين بك (القارئ) ٢٦٥
• أبو السعود أفندي (شيخ الإسلام) ٢٣٧
• سعيد النورسي (بديع الزمان) ٣٠، ١٥٧، ٢٠١، ٢٠٣
• سليم الأول (السلطان) ١٤٣، ١٤٤، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥
• سليمان القانوني (السلطان) ٤٩، ٣٣٠
• سليمان شفيق ١٠٤
• سنيحة بنت زاهد الكوثري ٢٨٢

ش

• شعبان آغا ١١١، ١١٤
• شيخ غالب (الشاعر) ٢٧٤

ص

• صادق بك (أميرالاي) ١٠١
• صادق صبري بك (آميرآلاي) ١١٥، ١٢٤، ١٢٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٨٣، ١٨٤، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٤
• صالح القرمي (مفتي رومانيا) ٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٢٦٠، ٢٦١

ض

• ضياء الدين الكموشخانوي ٢٨٠، ٢٨١
• ضياء أفندي ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١
• ضياء باشا (الشاعر) ١٢١، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٤، ١٤٥، ٢٧١، ٣٢٤

ط

- طاهر البورصلي ٢٨٩
- طاهر المولوي ٢٧٥
- طاهري مطلو ٢٠١، ٢٠٣
- طلعت باشا (الصدر الأعظم) ٨١، ٨٢
- طومان باي (السلطان المملوكي) ٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٤
- أبو الطيب المتنبي ٢٥٤

ع

- عابدين طوباش ٦١
- عاطف إسكيليبلي ٣٠
- عباس محمود العقاد ٢٧، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤
- عبد الحق حامد ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٦٩
- عبد الحميد الثاني (السلطان) ٢٩، ٦٨، ٧٠، ٢٠٨، ٢١٤، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٧٣، ٢٩٦، ٣٣٠
- عبد الحميد الكتبي المصري ٢٨٢
- عبد الحميد طاهر ٣٢٧، ٣٢٨
- عبد الرحمن (صاحب مجلة الإسلام المصرية) ٣٠٢، ٣٠٣
- عبد الرحمن عزام ١٧٨، ١٨٠، ١٨١
- عبد الفتاح أبو غدة ١٢، ٢٨٢
- عبد الله بن المبارك ٢٠٥
- عبد الله بن مسعود ١٢
- عبد المجيد الثاني (السلطان) ١١٢
- عثمان أفندي الساعاتي ٩٨
- عثمان غازي (السلطان) ٣٣٠
- عدنان مندريس (رئيس وزراء تركيا) ٢٨٤
- العز بن عبد السلام ٦
- عقيل الشركسي (الخطاط) ١٩١
- علوية بنت أحمد عاصم الكومولجينيلي ٢٩، ٦٤، ١٦٤، ١٦٥
- علي أفندي (القارئ) ٧٦، ٢٦٠
- علي رضا فكري ٢٨١
- علي رضا كمال ١٠٥، ١٠٧
- علي زكي القونيوي ٣٢٧
- علي زين العابدين الألصوني ٢٨١، ٢٩٢، ٣٠٩، ٣١٢
- علي عبد الرازق ٣٢
- علي يعقوب جنكجيلر ٢٣، ٩٢، ١٢٩، ١٤٤، ١٤٨، ١٦٦، ١٧٠، ١٨٤، ١٩٢، ٢٠٦، ٣٠٩، ٣٢٨
- عمر أوز ألب ٣٢
- عمر فريد كام ٢٣٨

غ

- غاندي ١٨٥، ٢١٢
- الغزالي (حجة الإسلام) ٣١٩

ف

- فاتح بن إبراهيم بن مصطفى صبري ١٧٠

• فاروق بن فؤاد (ملك مصر) ١٧٩، ٣٢٧
• فاضل الألباني ٣٢٨
• فريد باشا (الصدر الأعظم) ٣٠، ١١٦
• فريد بك ٨٧
• فريد وجدي ١٢٦، ١٢٧
• أبو الفضل بن الصديق ٢٨٢
• فضولي (الشاعر) ٢٦٧
• فينزيلوس (رئيس حكومـة اليونان) ٨، ١٧٤، ٢١٣

ق

• قاسم أمين ٣٢
• قانصوه الغوري (السـلطان المملوكي) ٣٣٣
• قدير مصر أوغلو ٢٥، ١٢٥، ١٢٦

ك

• كارول (ملك رومانيا) ٧٦
• كامل ميراث ٢٤٩، ٢٥٤
• ابن كمـال باشـا (شيـخ الإسلام) ٢٣٧
• كيركور الأرمني ١٧٧

م

• محمد الفاتح (السلطان) ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ٢٦٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣٣٠، ٣٣١
• محمد أبو زهرة ١٣
• محمد أسعد أربيلي ١٥٩
• محمد أسعد دده ٢٨١
• محمد أسعد العبجي ١٢
• محمد أسعد يساري (الخطاط) ٩٠
• محمد أمين الديفريكلي ٢٩
• محمد بن الحسن (صاحب أبي حنيفة) ٦٩، ٣٢٤
• محمد جودت (المعلم) ١٩٠
• محمد جودت سيزر بك ٢٥
• محمد حافظ التيجاني ٢٩٤
• محمد حمدي يازر إلماليلـي ٨٦، ٨٧، ١٦٢، ١٦٤، ٢٣٨، ٢٦١، ٢٦٨، ٢٩٦
• محمد ذهني ٦
• محمد رجب بيومي ١٢
• محمد رشيد عبد المطلب ٢٨٢
• محمد عاطف ٢٩
• محمد عاكف (الشـاعر) ٢٥، ١٣٣، ١٩٦، ٢٢٠، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٦٠، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٦، ٣٢٢
• محمد عبد الله عنان ١٢٨، ٣٢٨
• محمد عبده ٦، ٢٠، ٢٧، ١٣٠، ١٣٣
• محمد علي بك (الخطاط) ٩٠، ٩١، ١٥٠، ١٧٠
• محمد علي بن توفيق (ولي عهد مصر) ١٧٩، ١٨٠، ١٨١

• محمد عوامة ١٢
• محمد فريد وجدي ٦، ٣٢، ١٣١، ١٣٣
• محمد يوسف البنوري ١٢
• محمود الثاني (السلطان) ٢٤
• محمود أسعد سيد شهري ٧٦، ٧٧
• محمود حمدي القيصرلي ١٦٢
• محمود شلتوت (شيخ الأزهر) ٢٨٤
• محمود شوكت ١٨٦
• مختار بك الشركسي ١٧٩، ١٨٠، ١٨١
• مراد (السلطان) ١٤٠
• مسروق بن الأجدع ١٢
• مصطفى المراغي (شيخ الأزهر) ٦، ١٩٣
• مصطفى بن أويس أفندي ٤٦، ٩٦، ٩٩
• مصطفى رنيون ٢٣، ٤٣، ٤٨، ٩٢، ١٦٦، ١٨٤، ٢٠٦، ٢٦٤، ٢٧٥، ٢٨٢، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٩، ٣٣٧
• مصطفى صادق الرافعي ٢٣٤، ٢٣٥
• مصطفى كمال (أتاتورك) ٧، ٢٠، ٣٠، ٣١، ١١٥، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٤، ١٧٤، ٢٢٨، ٢٦٩
• معلم ناجي (الشاعر) ٢٦٧
• معمر طوباش ٦٠
• مليحة بنت زاهد الكوثري ٢٨٢
• موسى المكي ٢٨٠
• موسى جار الله ٧، ٣٢، ٧٩، ٨٠
• موسى طوباش ٦٠
• موسى كاظم الكوثري ٢٨١

ن

• نامق كمال ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٧٢، ٢٦٨
• نائلي قديم (الشاعر) ٢٦٧
• نجاتي أفندي (القارئ) ٢٦٠
• نجيب فاضل ٢٥
• نور الدين أرتم ٢٤٣
• نوري طوباش ٤٦، ٦٠، ٦٣
• نوزاد أفندي (مفتي اليونان) ٦٦، ٧٨
• نيازي كوسه ٢٩

هـ

• هاشم نهاد ٣٢

و

• وحيد الدين (السلطان) ٧، ٣٠، ٣١، ٥٠، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ١٠٨، ١٠٩، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٣٤، ١٧٤، ٢١٠
• ورقة بن نوفل ٨٩
• أبو الوفا الأفغاني ١١

• ولد جلبي ١١٦، ١١٧، ١١٨

ي

• يعقوب قدري قره عثمــان أوغلو ١٩٧، ١٩٨

• أبو يوســف (صاحب أبــي حنيفة) ٦٩، ٣٢٤

• يوسف ضياء الدين ٢٨١

* * *

فهرس الأماكن

أ

• إستانبول ٥، ٦، ٧، ٩، ١٠، ١٣، ٢٥، ٢٦، ٢٩، ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٤٦، ٧٦، ٨١، ٩٨، ١٠٥، ١٠٧، ١١٢، ١٧١، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٦٠، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٩٣، ٢٩٨

• إزميت ١٠٧

• إسكتشه ٣٣٥

• الإسكندرية ٧، ٣١، ١٠٩، ١١٠، ١٢١، ١٨٣، ٢٨٢

• إيطاليا ١١٤، ١٢١

• أثينا ٣١، ٣٢، ١٠٩، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ٢١٢،

• أفيون ٢٥٠

• الأناضول ٩، ١١٥، ١٢٣، ٢٢٨، ٢٦٤، ٢٦٥، ٣٣٢

• أنقرة ٢٢٤، ٢٢٩، ٢٤٤

• أوروبا ٦١، ١٣٠، ١٥٤، ١٨٢

ب

• باتراس ٨

• باريس ٦، ١٣١، ١٨٦

• الباكستان ١٨٥

• بخارى ٩

• بغداد ١٧٥، ٢١٣

• بوخارست ٧٦، ٧٨

• البوسنة والهرسك ٦، ٦٦

• بيرا ١٠٩

• بيروت ٣٣، ٢٨٢، ٣٠٧

• بيشكطاش ٢٩

• بيلاجيك ٧، ٣٠

ت

• تركيا ٤١، ٤٥، ٦٦، ٧٥، ٩٦، ١٢٦، ١٢٨، ١٧٢، ١٧٤، ١٨٨، ١٩٧، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٤٦، ٢٤٩، ٢٨٧، ٣٢٨، ٣٣٥

• توقاد ٢٩، ٣٠، ٩٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٣٢٥

ج

- جامع إعصارية ٢٩
- جدة ١٠٩، ١١٠
- جناق قلعة ٢٠٨
- جهارشمبه ٦، ٢١، ٧١
- جيميلك ٨٤

ح

- حجاز ٣١، ٦١، ٦٣، ١٠٩، ١١٢، ١١٤، ١٧٤، ٢٨٠
- حلب ٢٨٨، ٣٣٢
- حلمية الجديدة ١٨٩

د

- داغستان ٢٠٩
- دمشق ٢١، ٢٨٢
- دوزجه ٢٨٠، ٢٨٧، ٢٩٣، ٢٩٨

ر

- روسيا ٧٩، ٢٨٨
- رومانيا ٦، ٣٠، ٣١، ٥٤، ٥٩، ٦٥، ٧٥، ١١٤، ١٢١، ١٦٥، ١٨٦، ٢٢٧، ٢٦٠

س

- سمرقند ٩
- سوريا ١٧٥، ٢١٣
- سيلسترة ٣٠
- سيناء ٣٣٢
- سينوب ٨٤

ش

- الشام ٩، ١٤٣، ٢٥٠، ٢٨٨، ٣٣٢، ٣٣٣
- شيبزر ٢٨٠
- شيله ٢٥٧

ط

- الطائف ١١١، ١٢١

ع

- العباسية ١٧٢

ف

- فاتح (حي) ٢١
- فرنسا ١٥٣، ١٨٧
- فلسطين ٢٠٨
- فيينا ٥٤، ٥٥، ٥٨

ق

- قادين خان ٤١
- قازان ٧٩
- قاسطمونو ٢٨١
- القاهرة ٦، ٧، ٣٢، ٣٣، ٦٣، ١٠٠، ١٢٨، ١٢٩، ١٧٨، ١٧٩، ١٨١، ١٨٥، ١٩١، ٢١٤،

٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٣٣، ٢٥٠، ٢٥٩، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٨، ٢٩٤، ٣٠١، ٣٠٧، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٧

- القدس ٢٠٦، ٢١٤
- القرم ٧٨، ٧٩، ٢٠٩
- القوقاز ٢٠٩، ٢٨٠
- قونية ٢٣، ٤١، ٤٦، ٩٨، ١١٧، ١١٨، ١٧١
- قيصري ٢٩، ٢٤٨، ٢٤٩

ك

- كاراشالي (قرية الحاج حسن) ٢٨٠
- الكوفة ٩
- كومولجينه ٨، ٣١، ٦٦، ٧٨، ١٧٤، ٢١٢

م

- ماردين ٣٣٢
- المدينة المنورة ٩، ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٩٨، ١٠٠، ١١٠، ١٩٢، ٢٠١، ٢٠٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٢٣
- مرو ٩
- مصر ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٥، ٢٠، ٤١، ٤٣، ٤٥، ١٢٦، ١٣٠، ١٤٣، ١٥٩، ١٦٥، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٩، ١٨٨، ١٩٠، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٨، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٥٤، ٢٦٥، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٨٨، ٢٩١، ٢٩٣، ٣٠١، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣
- مصر الجديدة ١٧٠، ١٧٦
- مكة المكرمة ٨، ٩، ٨٩، ١١٠، ١١١، ١٢١، ١٣١، ١٦٥
- ملاطية ٣٣٢

ن

- نهر النيل ٢٦٣، ٢٦٥

هـ

- الهند ١٨٥

ي

- اليمن ١٤٣
- يوغسلافيا ٩٢، ١٦٦
- اليونان ٨، ٣١، ٦٥، ٦٦، ١١٤، ١٧٤، ١٧٥، ٢١٢، ٢٢٧

❊ ❊ ❊

فهرس المؤسسات والجماعات والدول

أ

• إيران (الصفويين) ٣٣١، ٣٣٢
• آل عثمان (سلالة السلاطين العثمانيين) ١٠٨، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٦، ٣٣٥

ت

• التجديديون ٦، ١٩٩
• التغريبيون ٢٠
• تكية المولوية في قونية ١١٧

ج

• الجامع الأزهر ٢٣، ٢٤، ١٧٣، ١٨٧، ١٨٨، ٢٠٧، ٢٧٢، ٢٧٥، ٣٠١، ٣١٤، ٣٢٧
• الجامعة الأمريكية (بيروت) ٣٠٧
• جامعة القاهرة ٢١٥
• جماعة الإخوان المسلمين ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩
• جمعية الاتحاد والترقي (الاتحاديون) ٦، ٢٠، ٣٠، ٤٨، ٦٥، ٧٠، ٧١، ٧٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٤، ١١٨، ١٩٧، ٢٤١، ٢٦٠، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٩٦
• الجمعية العلمية الإسلامية ٣٠
• جمعية المدرسين ٣٠
• جمعية شباب محمد ٢١٨، ٢١٩
• جميعة الطلائع الإسلامية ٣٠

ح

• الحداثيون ٢٠
• حزب الأهالي المعارض ٣٠
• حزب الحرية والائتلاف ٣٠، ٤٨، ٧٠، ٧١، ١٠١
• حكومة اليونان ٦٦، ١٧٤
• حكومة أنقرة ٨، ٣١، ٦٦، ١٠٠، ١٠٧، ١٠٩، ١٧٤، ١٨٣، ٢١٣، ٢٢٧، ٣٣٥
• حكومة مصطفى كمال ٢٣، ٣٣

د

• دار الحكمة الإسلامية ٣٠، ٢٢٤

- دار الفنون ١٦١، ١٦٢، ٢٨١
- دار المحفوظات المصرية ٢٨٢
- الدولة العثمانية ٥، ٩، ١٣، ٢٠، ٥٩، ١٠٠، ١٧٥، ١٧٨، ١٨٠، ٢١٠، ٢٨٧، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٥
- دولة المماليك ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤

ز

- زاوية الطريقة التيجانية (القاهرة) ٢٩٤

ش

- الشيعة ٣٣٢

ص

- الصدر الأعظم ٢٠

ك

- الكماليون ٦، ٨
- الكنيسة اليونانية ١٧٥

ل

- لجنة مراجعة المصنفات الشرعية ٣٠

م

- الماسونية ١٠٠
- مجلس الأعيان (العثماني) ٣٠، ٢٣٧
- مجلس المبعوثان (البرلمان العثماني) ٢٠، ٣٠، ٨١
- مجلس شورى الدولة (العثماني) ٣٠، ٧٠
- مدرسة السلطان مصطفى الثالث ٢٨٢
- مدرسة المتخصصين ٣٠
- مدرسة الواعظين ٢٩
- مدرسة إصلاح المدارس ٤٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٣٠
- مدرسة بيازيد ١٠، ٢٥١
- مدرسة جامع السليمانية ٢٩، ٢٥١، ٢٨٢
- مدرسة جامع الفاتح ٦، ٢٩، ٩٧، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٨١
- مدرسة دار الحديث (استانبول) ٢٨١
- مدرسة دار الشفقة ٢٨٢
- مشيخة الإسلام ٤٩
- المكتبة الظاهرية (دمشق) ٢٨٢
- المكتبة المحمودية ٢٤
- مكتبة عارف حكمت ٢٤
- مكتبة قصر يلدز ٢٩، ٢٥٦، ٢٥٧
- مكتبة ملا مراد ٦

و

- وزارة الحربية (العثمانية) ٨١، ٨٣

ي

- اليهود ١٠٠، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٤

فهرس الكتب والمجلات

أ

• الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار ٢٨٥، ٣١٧، ٣٢٠
• إلغاء الخلافة (تركية) ٣٣
• إرغام المريد في شرح النظم العتيد لتوسل المريد برجال الطريقة النقشبندية الخالدية الضيائية ٢٨٤

ب

• براهين الرحمة الإلهية (تركية) ٣٢، ٧٩
• البناء لتصريف الأفعال ٣٠٥

ت

• تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب ١٣، ٢٨٤
• التجريد الصريح ٢٩٤
• تقويض المذهب المادي (تركية) ٢٤٠

ج

• جريدة البلاغ ١٩٣
• جريدة شباب محمد (القاهرة) ٢١٨

ح

• حياة محمد ١٨٧، ١٩٤

د

• دلائل الخيرات ٢٨٠
• دليل تركيا في درب النجاح والفلاح (تركية) ٣٢

ع

• عبقرية محمد ١٩٢، ١٩٣
• عثمانلي مؤلفلري (المؤلفون العثمانيون) ٢٨٩، ٢٩٠

ق

- القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون ٣٣، ١٧٩، ١٩٠، ٣١٧
- القيمة العلمية للمجتهدين الجدد في الإسلام (تركية) ٣٢

م

- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٢٥
- المجددون الدينيون (تركية) ٣٢
- مجلة الإسلام (القاهرة) ٣٠٢
- مجلة الأزهر ١٣١
- مجلة إقدام (استانبول) ٣٠
- مجلة بيامي صباح (استانبول) ٣٠
- مجلة بيان الحق (استانبول) ٣٠، ٢٦٥
- مجلة دوغان جونيش (الشمس المشرقة) ١٩٠
- مجلة سبيل الرشاد (استانبول) ٢٢٥
- مجلة علمدار (استانبول) ٣٠
- مجلة علي كمال ٢٧٥
- مجلة نور الإسلام (استانبول) ٢٥
- مجلة نور الإسلام (القاهرة) ١٣١
- مجلة يارن (الغد) ٨، ٣٠، ٣١، ٦٦، ١٧٤، ٢١٢، ٣٣١، ٣٣٥
- محق التقول في مسألة التوسل ٢٨٥
- مذكرات هرتزل ٢٠٨
- مسألة ترجمة القرآن ٣٣
- المسلمون الجدد (تركية) ٣٢
- المطالب والمذاهب ما بعد الطبيعة والفلسفة الإلهية ٨٧
- المطول في البلاغة ٢٥٢
- مقالات الكوثري ١٢، ٢٨٥
- موسوعة شؤون الديانة التركية (الموسوعة الإسلامية) ٢٧، ٢٨
- موقف البشر تحت سلطان القدر ٣٣، ١٢٩، ٣١٧
- موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ٣٣، ١٢٨، ١٢٩، ١٩٢

ن

- نظرة عابرة على من ينكرون نزول عيسى عليه السلام قبل الآخرة ٢٨٤
- النكت الطريفة في التحدث عن ردود ابن أبي شيبة على أبي حنيفة ١٣، ٢٨٤
- النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة ٣٣

و

- وحدة الوجود ٨٧

❊ ❊ ❊

فهرس الأحداث التاريخية

أ

- اتفاقية الهدنة بين تركيا والحلفاء ١٣٤
- اتفاقية الهدنة بين تركيا واليونان ٣١
- احتلال الألمان لبوخارست ٧٨
- انتفاضة الهنود ضد الإنجليز ١٨٥
- انقلاب الحرف (اعتماد الحروف اللاتينية بدل العربية في اللغة التركية) ٥

ح

- حرب الاستقلال ٧، ٣٠، ٣١، ١١٥، ٢٢٨
- الحرب العالمية الأولى ٣٠، ٧٨، ١٣٤، ١٧١، ٢٠٨، ٢١٠، ٢٦٠
- الحرب العالمية الثانية ١٥٩، ١٧٢، ٢٤٣
- حرب جناق قلعة ٢٠٨، ٢٣١

ص

- الصراع العثماني الصفوي ٣٣٢
- الصراع العثماني المملوكي ٣٣٣

ق

- قائمة المائة والخمسين ٧، ٣١، ١٠٠، ١٠٥
- قرار إغلاق المدارس الدينية (توحيد تدريسات) ٢٨٧

م

- المشروطية الثانية ٣٠، ٧٠
- معاهدة سيفر ٣١
- معركة الريدانية ٣٣٣
- معركة جالديران ٣٣٢
- معركة مرج دابق ٣٣٣

فهرس التراجم الواردة في التعليقات

أ

- إبراهيم أدهم بن مراد تيمو ٦٥
- إبراهيم بن مصطفى صبري ١٧٠
- إسماعيل حقي الإزميري ٢٣٨
- إسماعيل حقي المناستيري ٢٩٥
- إسماعيل حقي بركت زاده ١٣٩
- إسماعيل فني أرطغرل ٢٣٩
- إسماعيل كومولجينلي ٥٤
- أحمد بن إسماعيل الكوراني ١٤١
- أحمد حمدي طوباش ٤١
- أحمد عاصم الكومولجينلي ٦٤
- أحمد نعيم بابان زاده ٢٣٣
- أدب الديوان (التركي) ٢٥٦
- أنور باشا (وزير الحربية) ٨٢

ت

- توفيق فكرت ٢٧٠

ج

- جريدة يارن (الغد) ٦٦
- جناب شهاب الدين ١٩٨

ح

- حزب الاتحاد والترقي ٤٨
- حزب الحرية والائتلاف ٤٨
- حسين جاهد يالجين ١٩٧
- حسين سرت ١٣٦

د

- دار الحكمة الإسلامية ٢٢٤
- دار الفنون ١٦١

ر

- رضا توفيق ١٠٣
- رفعت باشا بيلي ١٠٧
- رفيق خالد كراي ١٠٤

ز

- زين العابدين بن بهاء الدين أفندي ٤١

س

- سعيد النورسي (بديع الزمان) ١٥٧
- سليمان شفيق ١٠٤

ش

- شيخ غالب (الشاعر) ٢٧٤

ص

- صادق بك (أميرالاي) ١٠١
- صادق صبري بك (آميرآلاي) ١١٥

ض

- ضياء عبد الحميد باشا (الشاعر) ١٣٦

ط

- طاهر البورصلي ٢٨٩
- طلعت باشا (الصدر الأعظم) ٨١

ع

- عبد الحق حامد ٢٦٦
- علي رضا كمال ١٠٥
- علي زين العابدين الألصوني ٢٩٢
- علي علوي كوروجو ٢٣
- عمر فريد كام ٢٣٨

ف

- فضولي (الشاعر) ٢٦٧

ق

- قائمة المائة والخمسين ١٠٥
- قدير مصر أوغلو ١٢٥

ك

- كامل ميراث ٢٤٩

م

- مجلة سبيل الرشاد (استانبول) ٢٢٥
- محمد جودت (المعلم) ١٩٠
- محمد السادس السلطان وحيد الدين ٥٠
- محمد إحسان بن عبد العزيز اليوزغاتي ٦٠
- محمد أسعد أربيلي ٢٥٩
- محمد أسعد يساري (الخطاط) ٩٠
- محمد حمدي يازر إلماليلي ٨٦
- محمد عاكف أرسوي (الشاعر) ٢٢٠
- محمد علي بك (الخطاط) ١٥٠
- محمود أسعد سيد شهري ٧٦
- مصطفى أويس زاده ٩٦
- مصطفى رنيون ٤٣
- مصطفى صبري أفندي ٢٩

• معلم ناجي (الشاعر) ٢٦٧
• مكتبة قصر يلدز ٢٥٦
• موسى بن أحمد حمدي طوباش ٦٠
• موسى بن جار الله ٧٩

ن

• نامق كمال ١٣٧
• نائلي قديم (الشاعر) ٢٦٧

و

• ولد جلبي ١١٦

ي

• يعقوب قدري قره عثمان أوغلو ١٩٧

* * *

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية:

- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، الموضوعات، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ١٩٦٨.
- ابن حنبل، أحمد، المسند، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١.
- ابن سعد، محمد، الطبقات الكبير، تحقيق: علي محمد عمر، القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠١.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد، السنن، تحقيق: فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ت.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث، السنن، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، بيروت: المكتبة العصرية، د.ت.
- أبو زهرة، محمد، أعلام وعلماء قدماء ومعاصرون، اعتنى به: مجد مكي، عمان: دار الفتح، ٢٠٠٩.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، التاريخ الكبير، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، د.ت.
- ابن الحجاج القشيري، مسلم، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (صحيح مسلم)، تحقيق: فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث، د.ت.

- بيومي، محمد رجب، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، دمشق، دار القلم، ١٩٩٥.
- الحاكم، محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠.
- الحموي، ياقوت، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣.
- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت: دار الحياة، د.ت.
- السرخسي، محمد بن أحمد، أصول السرخسي، بيروت: دار المعرفة، د. ت.
- الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، بيروت: دار المعرفة، د.ت.
- طاشكبري زاده، أحمد بن مصطفى، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت.
- القوسي، مفرح بن سليمان، مصطفى صبري أفندي المفكر الإسلامي والعالم العالمي وشيخ الإسلام في الدولة العثمانية سابقًا، دمشق: دار القلم، ٢٠٠٦.
- الكوثري، زاهد، التحرير الوجيز في بغية المستجيز، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، حلب: مكتبة المطبوعات الإسلامية، ١٩٩٣.
- الكوثري، زاهد، صفعات البرهان على صفحات العدوان، بيروت: دار الإمام النووي، ٢٠١٣.

المراجع التركية:

- AÇIKGENÇ, ALPARSLAN. "SAİD NURSİ". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2018), 35/565-572.
- AHISHALI, RECEP. "RUÛS". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2008), 35/272-273.

- AKÜN, ÖMER FARUK. "BURSALI MEHMED TÂHİR". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 1992), 6/452-461.
- AKÜN, ÖMER FARUK. "DİVAN EDEBİYATI". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 1994), 9/389-427.
- AKÜN, ÖMER FARUK. "NÂMIK KEMAL". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 2006), 32/361-378.
- ALBAYRAK, SADIK. "DÂRÜ'l-HİKMETİ'l-İSLÂMİYYE". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 1993), 8/506-507.
- BİRİNCİ, ALİ. "HÜRRİYET ve İTİLÂF FIRKASI". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 1998), 18/507-511.
- BİRİNCİ, ALİ. "İZMİRLİ, İsmail Hakkı". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 2001), 23/530-533.
- BOLAY, SÜLEYMAN HAYRİ. "İSMAİL FENNİ ERTUĞRUL". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 2001), 23/98-100.
- BOLAY, SÜLEYMAN HAYRİ. "KAM, Ömer Ferit". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 2001), 24/271-273.
- ÇAKAN, İSMAİL LÜTFİ. "BABANZÂDE AHMED NAİM". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 1991), 4/375-376.
- DERMAN,M. UĞUR. "YESÂRÎ MEHMED ESAD". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 2013), 43/486-487.
- DÜZDAĞ, M. ERTUĞRUL. Ali Ulvii KURUCU HATIRATI. İstanbul: Gunca Yyınları. 2021.
- EFE, ADEM. "SEBÎLÜRREŞÂD". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 2009), 36/251-252.
- ENGİN, NİHAT. "AHMED ÂSIM EFENDİ, Gümülcineli". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 1989), 2/44-45.

- ERDOĞDU, ALİ. "SEYDİŞEHRÎ". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2009), 37/25-27.
- ERGÜL, ADEM. HACE MÛSA TOPBAŞ. İstanbul: Erkam Yyınları. 2012.
- GÜNER SAYAR, AHMET. "MUALLİM CEVDET". DİA. (Ankara: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2013), 30/311-313.
- HANİOĞLU, M. ŞÜKRÜ. "ENVER PAŞA". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 1995), 11/261-264.
- HANİOĞLU, M. ŞÜKRÜ. "İBRÂHİM TEMO". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2000), 21/354-355.
- HANİOĞLU, M. ŞÜKRÜ. "İTTİHAT ve TERAKKÎ CEMİYETİ". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2001), 23/476-484.
- HANİOĞLU, M. ŞÜKRÜ. "TALAT PAŞA". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2010), 39/502-503.
- HANSU, HÜSEYİN. "et-TECRÎDÜ's-SARÎH". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2011), 40/251-252.
- HUYUGÜZEL, ÖMER FARUK. "YALÇIN, Hüseyin Cahit". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2013), 43/300-301.
- İHSANOĞLU, EKMELEDDİN. "CENKÇİLER, Ali Yakup". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 1993), 7/370-371.
- İHSANOĞLU, EKMELEDDİN. "DÂRÜLFÜNUN". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 1993), 8/521-525.
- İNCİ, ENGİNÜN. "ABDÜLHAK HÂMİD TARHAN". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 1988), 1/207-210.
- KAHRAMAN, ALİM. "KURUCU, Ali Ulvi". DİA. (Ankara: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2002), 26/457-458.

- KAHRAMAN, ALİM. "Ali Ulvii KURUCU". DİA. (Ankara: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 2002), 26/457-458.
- KALKIŞIM, M. MUHSİN. "ŞEYH GALİB". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 2020), 39/54-57.
- KANLIDERE, AHMET. "MÛSÂ CÂRULLAH". DİA. (Ankara: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 2020), 31/214-217.
- KARA, MUSTAFA. "İZBUDAK, Veled Çelebi". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 2001), 23/503-505.
- KARAHAN, ABDÜLKADİ. "FUZÛLÎ". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 1996), 13/240-246.
- KARATEPE, TUBA. "YILDIZ SARAYI KÜTÜPHANESİ". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 2013), 43/544-545.
- KOÇKUZU, ALİ OSMAN. "HACIVEYİSZÂDE MUSTAFA". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 1996), 14/506.
- KÜÇÜK, CEVDET. "DAMAD FERİD PAŞA". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 1993), 8/436-439.
- KÜÇÜK, CEVDET. "MEHMED VI". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 2003), 28/422-430.
- OKAY, ORHAN. "MEHMED ÂKİF ERSOY". DİA. (Ankara: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 2003), 28/432-439.
- OKUYAN, MEHMET. "BEREKETZÂDE İSMÂİL HAKKI". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 1992), 5/490-491.
- POLAT, NAZIM. "KARAOSMANOĞLU, Yakup Kadri". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 2001), 24/465-468.
- ŞENSOY, SEDAT. "RUNYUN, Mustafa". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfi Yayınları, 2008), 35/245-246.

- TARAKÇI, CELAL. "CENAB ŞAHABEDDİN". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 1993), 7/346-349.
- UÇMAN, ABDULLAH. "MUALLİM NÂCİ". DİA. (Ankara: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2020), 30/313-316.
- UÇMAN, ABDULLAH. "RIZA TEVFİK BÖLÜKBAŞI". DİA. (Ankara: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2008), 35/68-70.
- UÇMAN, ABDULLAH. "TEVFİK FİKRET". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2012), 41/9-13.
- UÇMAN, ABDULLAH. "ZİYÂ PAŞA". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2013), 44/475-479.
- UZUN, MUSTAFA İSMET. "ALİ KEMAL". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 1989), 2/405-408.
- YAVUZ, SALİH SABRİ. "MANASTIRLI İSMÂİL HAKKI". DİA. (Ankara: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2003), 27/563-564.
- YAVUZ, YUSUF ŞEVKİ. "ELMALILI MUHAMMED HAMDİ". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 1995), 11/57-62.
- YAVUZ, YUSUF ŞEVKİ. "MUSTAFA SABRİ EFENDİ". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2020), 31/350-353.
- YAVUZ, YUSUF ŞEVKİ. "ZÂHİD KEVSERÎ". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2013), 44/77-80.
- YAZICI, NESİMİ. "MİRAS, Kâmil". DİA. (Ankara: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2020), 30/145-146.
- YEŞİLOĞLU, AYŞEGÜL MİNE. "NÂİLÎ". DİA. (İstanbul: Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları, 2006), 32/315.

فهرس المحتويات

مقدمة الدكتور إحسان شن أوجاق ٥
شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي ووكيله في الدرس محمد زاهد الكوثري ٥
شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي ٦
الرُّدود المكتوبة في السجن ٦
الطلب إلى وحيد الدين لتعيين قائد الكفاح ٧
الجوع وبيع الكتب ٧
جريدة «الغد» ٨
قلقه بشأن الدفن في مقبرة مسيحية ٨
إعادة الاعتبار ٩
وكيل شيخ الإسلام في الدرس الشيخ محمد زاهد الكوثري ٩
هذا الكتاب ١٣
مقدمة الدكتور إياد الغوج ١٥
مقدمة المترجم ١٩
راوي المذكرات.. الأديب والشاعر التركي علي عُلوي كورجو ٢٣
قصة المذكرات ٢٦
عملي في الكتاب ٢٧
شيخ الإسلام في الدولة العثمانية مصطفى صبري أفندي التوقادي ٢٩
من آثاره العلمية ٣٢

القسم الأول

مذكرات علي علوي مع شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي ٣٥
في حضرة شيخ الإسلام ٤١
إنسان مُنَوَّر الشيبة، حسَن الثغر، رقيق العود ٤٥
كان حولك سَحابة دخان ٤٦
أيـام الحـزبـيـة ٤٨
الباب السري في المشيخة ٤٩
سارِق السلطان ٥٤
الصديق وقت الضيق ٥٥
والله لأُطلِقَنّ عليك الرصاص ٥٦
بعض مَبَرّات حمدي بك ٥٨
معاناة السلطان وحيد الدين ٥٨
فضل عائلة طُوبّاش ٦٠
إحسان السيد نوري والسيد خلوصي وعطاؤهما ٦٣
مصطفى صبري أفندي في اليونان ٦٤
إبراهيم تيمو يبيع بيت مصطفى صبري أفندي ٦٤
مفتي كومولجينة نوزاد أفندي ٦٦
الرقابة في عصر السلطان عبد الحميد الثاني ٦٨
الائتلافيون والاتحاديون.. وجهان لعملة واحدة ٧٠
الهروب من سطح إلى سطح ٧١
كم ساعة في الليل ٧٤
الهروب إلى رومانيا ٧٥
ماذا قصد أسعد أفندي ٧٧
المفتي صالح أفندي القِرمي ٧٨
في سجن رومانيا ٧٨
كتاب مَخفِيٌ في قاع إبريق الوضوء ٨٠
التهديد بالإعدام في إستانبول ٨١
صلاة الوداع لهذه الدنيا ٨٣

النفي إلى جيمليك ٨٤
رجل الدعوة ٨٥
حمدي أفندي إلماليلي ٨٦
قد يكون الإنسان ربانيًا ٨٧
الهجـرة جـهـاد ٨٩
لوحة الجدار ٩٠
طعام البندورة ٩١
عبق الروح ٩٣
القيم التي تصُوغ هُويّة الأمة ٩٤
الديـن والعلـم ٩٦
مدرسة إصلاح المدارس ٩٧
نور الإخلاص ٩٨
زين العابدين أفندي ١٠٠
مَن ضَعُف إيمانُه انحرف عن الجادة ١٠١
اختطاف علي كمال ١٠٥
تظاهرة مُسيئة في الإسكندرية ١٠٩
مراسم استقبال حافلة في جدة ١٠٩
خطاب الشريف حسين ١١٠
مؤامرة إنجليزية ١١١
الرحيل عن الحجاز ١١٣
مُعارضة صبري أفندي للسلطان وحيد الدين ١١٥
تبجيل ولد جلبي للسلطان ١١٦
ثقة السلطان المطلقة بمصطفى كمال ١١٩
واجب البلاغ ١٢٠
قد أصابنا ما أصابنا ١٢١
هل كان السلطان غبيًا؟ ١٢٢
كلمة صديق ١٢٣

اللغة الإنجليزية بديلٌ عن اللغة التركية ١٢٥
كلمة فريد وجدي ١٢٦
كتاب موقف العقل ١٢٨
شكوى شيخ الإسلام من علماء مصر ١٣٠
القناعات الخفية ١٣١
عِدّة الأحاديث الشريفة ١٣٢
عندما يغيب الإيمان، يغيب معه العقل والمنطق أيضًا ١٣٣
المجلس فترة الهدنة ١٣٤
يجب أن نضحي بإنسان لا جمل ١٣٤
نامق كمال وضياء باشا ١٣٦
زيارة إلى نامق كمال ١٣٩
الدول الإمبراطورية ١٤٠
عظمة السلطان محمد الفاتح ١٤٠
لا يمدح النبيُّ ﷺ رجلًا جاهلًا ١٤٢
السلطان سليم الأول.. تاج السلاطين ١٤٣
نماذج من قصائد نامق كمال ١٤٤
ألم فراق الوطن الأم ١٤٤
أمضغُ كل حبة أرز على حِدة ١٤٧
النعم الظاهرة والباطنة ١٤٨
أحيانًا عدم الرؤية نعمة أيضًا ١٤٨
أعظم النعم ١٤٩
ألا بذكر الله... .... ١٥٠
ماذا يجب أن تطلب النساء؟ ١٥١
القوانين الإلهية لا تتغيَّر ١٥٢
مرض الزهري والإيدز ١٥٢
القصاص يُنقِذ آلاف الأرواح ١٥٣
الزنا والعار ١٥٤
الحجاب وحده لا يكفي ١٥٥

من وراء حجاب ١٥٦
صلة القرابة إنما تتجلّى في الوجه ١٥٧
كانوا أسوة لنا بأحوالهم ١٥٩
ماذا يعني الجهاد؟ ١٦٠
كيف اختار صبري أفندي صِهرَه؟ ١٦١
أدفع له تكاليف العرس ١٦٤
هدية عرس فاخرة ١٦٥
الأصهار ١٦٥
كُن رجلًا يا بني ١٦٦
رجاء الشيخ جلال ١٦٧
لَسْن أهلًا له ١٦٨
ازداد حبي أكثر ١٦٩
أبناء الشيخ ١٧٠
كان يَلُفُّه حُزنٌ عميق على حال الأمة ١٧٢
نوبة الخبز ١٧٢
ماذا لو مِتّ في أثينا لا قدَّر الله؟ ١٧٤
البلاد المسلمة تعجز عن استضافة شيخ الإسلام ١٧٥
القنصل المصري يقف موقفًا إنسانيًا ١٧٦
طعام الفاصولياء صباح مساء ١٧٦
الحَذّاء كيركور ١٧٧
زيارة عزّام باشا ١٧٨
مختار بك الشركسي ١٧٩
كلمات ولي عهد ملك مصر ١٨٠
يعتصره الألم لحال أفراد العائلة السلطانية العثمانية ١٨٢
ميرالاي في حاجة ماسّة ١٨٣
شيخ الإسلام وصوم غاندي ١٨٥
توكُّل الشيخ ١٨٦
محمود شوكت أفندي ١٨٦

رجاء علماء الأزهر ١٨٧
زيارة حسن البنا لشيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي ١٨٨
وهل يصح إيمان من لا يؤمن بالغيب؟ ١٨٩
النص عسير القراءة ١٩٠
كتبت الكتاب مرة أخرى ١٩١
كتاب العقاد ١٩٢
سؤال الشيخ للعقاد ١٩٣
إمّا أن تكون كلُّها معجزات وإما لا ١٩٥
المرء في ظلال الإيمان ١٩٦
اقتلوه وتخلّصوا منه ١٩٦
دجاجة واحدة أم أربع دجاجات؟ ١٩٨
التضحية بالحياة الآخرة ٢٠٠
إن لم يكن الحج واجبًا عليك، فهل تسافر للسياحة؟ ٢٠١
غسيل الملائكة.. حنظلة ٢٠٣
تقديم نفقة الحج هدية عرس ابنة الجيران ٢٠٥
مفتي القدس الشيخ أمين الحسيني (١٨٩٦ ـ ١٩٧٥) في ضيافة شيخ الإسلام مصطفى صبري ٢٠٦
ضيفٌ عزيز جليل ٢٠٦
أنا دائمًا تحت المراقبة ٢٠٧
مُصاب تركيا جَلَل ٢٠٧
الحزن يخيم على جبهة جناق قلعة ٢٠٨
العبودية الأشد ٢٠٩
كلمات السلطان وحيد الدين ٢١٠
أما البابا.. فلا أحد يمسه ٢١٢
حال الدول الإسلامية ٢١٢
انظروا إلى هذا الذل! ٢١٤
ماذا عن حسن البنا؟ ٢١٤
حسن البنا والخلافة ٢١٥

حسن البنا والشباب ٢١٦
جهاد الإلحاد ليس بالأمر الهين، فاعرف عدوك ٢١٨
لقاء مصطفى صبري أفندي بالشاعر محمد عاكف ٢٢٠
ما كنا سنكتبه كتبناه ٢٢٧
أسئلة صبري أفندي لمحمد عاكف بك ٢٢٨
فضائل إحسان أفندي ٢٢٩
ذلك الحجر الذي استلقى غير آبِهٍ بدنياكم ٢٢٩
حُرمةً لِهلال ٢٣١
أيّ شعره ليس جميلًا! ٢٣٢
لا تمر عليّ صلاةٌ دون سجدة سهو ٢٣٢
وفاة أحمد نعيم بك ٢٣٣
كان محمد عاكف محِقًّا في محبته لمصطفى صادق الرافعي ٢٣٤
لا نعرف لعظمائنا قدرَهم ٢٣٥
حزن أحمد نعيم بك ٢٣٦
إلماليلي، إزميرلي، فريد كام، إسماعيل فنّي ٢٣٨
باب صبري أفندي مفتوح للجميع ٢٤١
ضرر الكلمات الدخيلة ٢٤٣
سيهجرون اللغة التركية يومًا ما ٢٤٤
الغزو الثقافي الصليبي ٢٤٥
الدين واللغة هوية الأمة ٢٤٦
لسرعان ما صرت أستاذًا ٢٤٨
من لم يأخذ إجازة العلم من إستانبول فليس بعالم ٢٤٩
أستاذ حلقة شاب في جامع الفاتح ٢٥٠
كان رجل كفاح ٢٥٣
مكتبة قصر يِلْدِز ٢٥٦
صبري أفندي وانبهاره بأداء القارئ سامي أفندي ٢٥٩
صبري أفندي ومفتي رومانيا العام ٢٦٠
مفتي رومانيا العام ضيف شيخ الإسلام في إستانبول ٢٦٠

أبٌ للطلبة ٢٦٣
الصلوات في القاهرة ٢٦٤
المقام الحسيني ٢٦٤
قصيدة محشر ٢٦٥
سخطه على عبد الحق حامد ٢٦٦
عن توفيق فكرت ٢٧٠
أسِفت على فكرت كثيرًا ٢٧٢
شعر رضا توفيق ٢٧٣
ذو الإحسان المؤبد ٢٧٤
اتركه، فلعلَّه ممن ينصر هذا الدين بشِعره ٢٧٥

القسم الثاني

مذكرات علي علوي كورجو مع الشيخ زاهد الكوثري ٢٧٧
زاهد بن حسن بن علي الكوثري (١٨٧٩ ـ ١٩٥٢) ٢٨٠
زاهد الكوثري ٢٨٦
العلامة العظيم ابن مدينة دوزجه ٢٨٧
بين الشام والقاهرة ٢٨٨
علمه وقوة ذكائه ٢٨٩
بين الشيخَين مصطفى صبري أفندي وزاهد الكوثري ٢٩١
سعة علم الشيخ زاهد ٢٩١
احترام الشيخ زاهد الكوثري وإجلاله لشيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي ٢٩٢
محبة وثقة متبادلة ٢٩٣
أحوالٌ اختصَّ بها الشيخ زاهد ٢٩٤
الظفر بإعجاب الشيخ زاهد عسير المنال ٢٩٥
ثقته المطلقة بعلمه ٢٩٧
إتقانه اللغة العربية ٢٩٧
احترامٌ للدين والتاريخ ٢٩٩
سؤال خارج عن حدود الأدب ٢٩٩

زيارة علماء مصر للشيخ زاهد الكوثري ٣٠١
لقاءٌ مع صاحب مجلة الإسلام ٣٠٢
إجابة مضحكة ٣٠٣
قد صار العلم غريبًا ٣٠٤
العلم أفضل من العبادة النافلة ٣٠٤
كيف يُطلَب العلم؟ ٣٠٥
أيهما حدث أولًا؟ ٣٠٧
قبل لُبسها أم بعده ٣٠٧
طلب الدعاء دون الجد والسعي ٣٠٩
السلطان محمد الفاتح والمدارس ٣٠٩
جلالة مهنة العلم ٣١٠
الرضا بواحد في المئة ٣١٢
غروب الشمس وشروقها ٣١٣
رسالة التعزية التي كتبتها ٣١٤
جواب شيخي ودعاؤه لي ٣١٥
أفكارٌ متباينةٌ بين الشيخَين ٣١٧
مسألة القدر.. صعبة أم سهلة؟ ٣١٧
لا تُلِحّوا عليّ كثيرًا، فلن أصير جبريًا ٣١٩
رعاية الأدب ٣٢٠
لا خلاف في الأصول ٣٢٠
سِرٌّ من أسرار الله ٣٢١
النقص في عقولنا ٣٢٢
بيت من شعر محمد عاكف ٣٢٢
مزالق الأقدام ٣٢٣
ستظل مسألة القدر سِرًّا ٣٢٤
قضية القومية ٣٢٥
شركسية الشيخ زاهد الكوثري ٣٢٦

أمور تافهة لا تليق برجل جليل ٣٢٧
ما كتبه المؤرخ المصري ٣٢٨
ماذا استعمر العثمانيون في هذه البلاد؟ ٣٢٩
التضحية من أجل الخلافة ٣٣٠
عظمة السلطان سليم الأول ٣٣١
خطر الشيعة ٣٣٢
إعدام سفراء الدولة العثمانية ٣٣٣
لماذا أُعدِم طومان باي؟ ٣٣٣
انتقال الخلافة الإسلامية إلى العثمانيين ٣٣٤
الاستقالة من القومية التركية ٣٣٥
من فضائل شيخنا زاهد الكوثري ٣٣٧
شيخنا زاهد أفندي والمذهب الحنفي ٣٣٨

الفهارس العلمية للكتاب ٣٤١
فهرس الأعلام ٣٤٣
فهرس الأماكن ٣٥٠
فهرس المؤسسات والجماعات والدول ٣٥٣
فهرس الكتب والمجلات ٣٥٥
فهرس الأحداث التاريخية ٣٥٧
فهرس التراجم الواردة في التعليقات ٣٥٨
قائمة المصادر والمراجع ٣٦١
فهرس المحتويات ٣٦٧

* * *